

عِبْرُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحَنِ **(فِي طَيْبِهَا [١٥٠] عِبْرَةٌ وَحِكْمَةٌ)**

تأليف: د. محمد هشام طاهري

المقدمة

الحمد لله الملك القدوس السلام، ذي الإفضال بالنعم الجسام، سبقت عطاياه الطلب من الأنام؛ فأظهر عليهم مننه العظام، وهم في بطون أمهاتهم، وفي الصبا وبعد القوة واشتداد العظام، أشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له ذو الجلال والإكرام، ابتلى عباده بالخير والشر فقدر المقادير قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام؛ فقدر أرزاقهم وآجالهم، وقسم بينهم معاشهم وأموالهم؛ فأبرم القضية، وقدر الأمور بالحكم المرضية، وجعل كل شيء عبرة وآية لمن نظر ببصيرة سوية، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد البرية، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه وعلى من سار على نهجه إلى يوم القيامة، وبعد:

فقد يسر الله تعالى لي - في الظروف الراهنة التي اجتمعت فيها الأمم على ضرب أهل السنة والجماعة وجرّ قدمهم في حروب وقتال، ومحاربتهم لهم في قصفٍ حاصلٍ لدولة الكويت الحبيبة، ودول الخليج العربي، والأردن، حفظهم الله تعالى من كل مكرب وكيد - أن أؤلف مؤلفاتٍ عدّة متعلقة بالحرب والفتن، وهي:

١- بشارة المرابطين.

٢- كتاب الشهداء والشهيد وتسليّة ذوي الشهداء بالقول السديد.

٣- الحصون المنيعّة.

٤- عقيدة النصر وبشائره.

٥- تقريب المنن في تهذيب كتاب الفتن.

وهذه الكتب كلها - والله الحمدُ والمنّة - كانت مُبَشِّرَاتٍ وَمُثَبِّتَاتٍ، وقد وُجِدَ القبول لها من القريب والبعيد، والله الحمد والمنة ومنه التوفيق والتسديد.

[سبب تأليف الكتاب]

بعد صدور الكتب الآنفه الذكرِ اقترح عليّ أخي وشقيقي أبو عمر عتيق الله - جعله الله عتيقاً، وفي ذريته مباركاً، وفي جميع ذريتي والدي، وذرياتكم - أن أكتب في بيان الحِكم من الفتن، فوق كلامه في نفسي؛ فبحثت لعلّي أجد فيه بغيتي، وأرسلُ له مبتغاه بطريقتي، ولكني لم أجد مؤلفاً في الباب، يشتمل على شتات اللباب، فضلاً عن لباب اللباب^(١)؛ فصرفتُ بصيرتي إلى التّأليف في هذا الباب، فاجتمع عندي مادة غزيرة، وعبراً وحكماً متعددة كثيرة؛ فجعلت ذلك في مقدمة وتمهيد وأبواب، وسميته:

عِبْرُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وصرتُ فيه على النحو الآتي:

[منهج التّأليف]

١ - أذكرُ في كل باب آيات متعددة دون حصرٍ، وإن كان في الباب آيات كثيرة، فأقدم الآية الأظهر على الآية التي دلالتها إيماءً.

(١) بعد البحث وجدتُ فتوى في موقع (الإسلام سؤال وجواب) فتوى (٣٥٩١٤) فيها ذكرُ (١٢) عبرة وعظة

فقط، ومختصرة.

- ٢- لا أعيدُ الآية إذا استشهدت بها في موضعٍ، وإن كانت دالة على عبر وحكم أخرى، وإنما أذكر غيرها إلا ضرورة.
 - ٣- لا أزيد في الباب -إن وجدت- عن ثلاثة أحاديث إلا لضرورة حتى لا يطول الكتاب، ولا أكرر الحديث، وإن اضطرت فأذكر رواية أخرى فيها زياداتٌ نافعة.
 - ٤- لا أزيد عن أثرتين، إلا إذا كان المعنى يختلف، ولا أحكم على الآثار، وإنما أكتفي بذكر مصدرها، ذلك لأن الآثار ليست للاعتماد؛ بل للتفسير والاعتضاد، وذلك ليس شرطه الصحة عند علماء السلف السابقين، ولا المتبعين لهم من الخالفين، إلا إذا كان الأثر يخالف نصًا صريحًا؛ فحينئذ لا بد من التثبت في الأخبار، والتأكد من نقلة الأخبار، حمايةً لجناب الصحابة الأبرار، والتابعين لهم من الأخيار.
 - ٥- أخرج الحديث مختصرًا في الحاشية؛ فإن كان في الصحيحين، اكتفيت بالإحالة إليهما، وإن كان في أحدهما فكذلك، وما كان في غيرهما أقتصر على تخريجه، مع الحكم المختصر عليه، وأكتفي بأحكام المتقدمين، ولا أتنازل عنهم إلا للحاجة أو الضرورة.
 - ٦- بوبت الأبواب بناء على التقدير الأعم المتعلق بالله تعالى، ثم الأخص، ثم الأعم المتعلق بالناس ثم الأخص.
- وكلُّ ذلك تبيينًا لعظمة أفعال الربِّ تبارك وتعالى، وما يكون في ملكه، وتوضيحًا لعظمة الشريعة وما يكون في أحكامه، والله أسأل أن يرزقنا البصيرة في دين الله تعالى، والحكمة في فهم شريعته وقدره، فهو سبحانه ولي كلِّ نعمة وهو العليم الحكيم.

التمهيد، وفيه (١٢) تنبيها

التنبيه الأول: حتمية الابتلاء

إنَّ ابتلاء الخلق أمرٌ لا بدُّ منه؛ فهم العبيدُ والرَّبُّ هو السيِّدُ المجيدُ؛ وهذا الابتلاء قد يقع بالسَّراء وهو الأكثرُ في الواقع الحميد، أو بالذنوب والمعاصي كما في الواقع الجديد والتَّليد، أو بالضَّراء والفتنِ والمُرِّ الشَّديد، فهذه هي سفينة الحياة، دائرةٌ بين الرخاء والبلاء، وبين السرور والشور والابتلاء؛ فَمَنْ عَرَفَ كَيْفَ يَتَعَامَلُ مَعَهَا نَجَا، وَمَنْ جَهِلَ وَسَفِهَ هَلَكَ وَغَرِقَ وَمَا تَهْنَى.

التنبيه الثاني: ضرورة اليقين بحكمة الله تعالى

إنَّ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ الْيَقِينَ بِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ، وَالْحِكْمُ الْعَظِيمَةُ، فِي إِيجَادِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْإِذْنَ بَهُمَا مَعًا، وَهَذَا يَجْعَلُ الْمُسْلِمَ فِي ثَبَاتٍ عَلَى التَّوْحِيدِ وَنِظَامِهِ، وَفِي رَسُوخٍ فِي مَبْدَأِ الْإِيمَانِ وَتَمَامِهِ، فَيَبْحَثُ عَنْ رِضَا الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ مُقَدَّرٍ عَلَيْهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمُقَدَّرَ بِالْحِكْمَةِ مَصْحُوبَةٌ، وَبِالْحِكْمِ مَشْفُوعَةٌ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمَلِكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥)﴾ [القمر].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى

لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

التنبيه الثالث: آثار اسم الله (الحكيم)

إن المسلم يعتقد أن الله تبارك وتعالى (الحكيم) ذو الحكمة العظيمة لا يمكن أن يقدر إلا ما فيه عبرةٌ وحكمةٌ؛ بل وما فيه عبرٌ وحكمٌ؛ فكل ما يقع في ملك الله تعالى له حكمةٌ وحكمٌ، وفيها منافع وفوائد، وعبرٌ وعوائد، قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢)﴾ [الجاثية].

وربنا تبارك وتعالى سمى نفسه بـ(الحكيم) فيما يقرب من (١٠٠) موضع، ووصف نفسه بأنه ﴿خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧، يونس: ١٠٩، يوسف: ٨٠]، ووصف نفسه مُتَمَدِّحًا: ﴿بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، فنُقِرَّ له بالحكمة ونقول: ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥].

ونزداد يقينًا بحكمة الله (الحكيم)، وبعبارة ما يترتب على تقديره العظيم، والاعتبار بإذنه الحكيم أن نعلم أن اسمه (الحكيم) قد جاء مقترنا بعزته؛ كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)﴾ [آل عمران].
وجاء مقترنا بخبرته، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)﴾ [الأنعام].

وجاء مقترنا بعلمه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].
وجاء مقترنا بعُلُوِّه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].
وجاء مقترنا بتوبته على عباده، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾ [النور].

كل ذلك يجعل المسلم يطمئن إلى حكمته وشرعه وقدره وتقديره.

التنبيه الرابع: اليقين بعموم حكمة الله تعالى

إنَّ الآيات السابقة ذكرها ومثيلاتها التي تأتي ضمن هذا الكتاب، وغيرها، كلها تضمنت إثبات الحكمة لله تعالى، وأنها حكمٌ شاملة عظيمة من حيث قدرة الله تعالى عليها، ومن حيث التشريع، ومن حيث التقدير، ومن حيث السبب، ومن حيث الحكم، ومن حيث الشروط، ومن حيث الواجبات والمندوب، ومن حيث الثواب، والمؤاخذه على الذنب وإنزال العقوبات، ومن حيث العفو والصفح، وذلك يفتح للقلب الصحيح بابًا واسعًا من معرفة الرب تعالى بأسمائه، وصفات كماله، ونعوت جلاله، وحكمته في شرعه وقدره، وعدله في عقابه، وفضله في ثوابه.

وذلك يتضمن كمال توحيده في ربوبيته وقيوميته وإلهيته، وأن مصادر الأمور كلها عن محض إرادته ومشئته، ومردها إلى كمال حكمته، وأن المهتدي من خصه بهدايته، وشرح صدره لدينه وشريعته، وأن الضال من جعل صدره ضيقًا حرجًا عن معرفته ومحبته، كأنما تصاعد في السماء، وليس ذلك في قدرته، وأن ذلك عدل منه في عقوبته لمن لم يقدره حق قدره، وجحد كمال ربوبيته، وكفر بنعمته^(١).

(١) انظر: شفاء العليل لابن القيم (١/ ٣٥٤).

التنبيه الخامس: الشارِعُ الحكيم لا يعلِّلُ لِمَ يَحْكُمُ لِمَ يَفْعَلُ

إنَّ الله تعالى (الحكيم) لا يقول أمرتكم بكذا لعله كذا، ولحكمة كذا، ولا يقول: نهيتكم عن كذا لعله كذا، ولحكمة كذا، ولا يقول: أوقع عليكم كذا لعله كذا، ولحكمة كذا... ذلك لأنَّ ملكَ الملوك سبحانه وتعالى يأمر وينهى، ويوقع بدون أن يُسأل عن شيء...؛ بل إن ملوك الدنيا أحدهم يأمر وينهى بدون أن يبيِّن العلة والحكمة؛ فكيف بملك الملوك العليم الخبير الحكيم سبحانه وتعالى، وذلك لأن الله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (٢٣) [الأنبياء].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُدِيءُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٍ لِمَا يُرِيدُ (١٦) [البروج].

ولكن نجد في كلام الله عز وجل في القرآن إشارات إلى التعليل، وتنبيهات إلى الحكمة والعبر المساقاة مع الدليل، ولكن بلفظٍ فيه نوع خفاء، وبتنبيه يدرِّكه العلماء، وطلبة العلم النجباء، ولهذا قد نظرتُ في الكلمات التي تدلُّ أو تشير أو تنبّه على التعليل والحكمة، وهي الكلمات التي تكون مظانَّ للعبر والحكمة، كما ذكرها العلماء، وما يتعلق بموضوعنا فهي الكلمات الآتية حصراً بعناء: (لعل، وعسى، ولئلا، وكَيْلا، ولكَيْلا، والفعل المضارع المقرون بلام التعليل نحو: ليدكّر، لتكون، لتبين، لنعلم، لتعلم، لتعلموا، لأنذر، لتندر، وحكيم، وحكم، وقسط، وعدل، وظلم، وبلو، وابتلى، وفتن، وفتنة، وغالب، وبصر، وأبصار، ولُب، وألباب، ولأجل، ومن أجل؛ ولئن، وفعلية، وألا، وتغن، ونزلنا، ونذر،

عِبْرُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحَنِ

وَبَشِّرْ، وَإِنَّهُمْ)، ونحو ذلك، من الكلمات التي تشير إلى التعليل، وتنبه على بيان العبرة والحكمة بغير قيل^(١).

التنبية السادس: طريقة القرآن والسنة في ذكر العبر والحكم

يأتي في القرآن الكريم وفي السنة النبوية بيان العلة والعبرة والحكمة تلميحاً وإشارة وتنبية، وإيماءً وتوضيحاً^(٢)، كما يأتي ذكر التعليل والعبرة والحكمة كثيراً في كلام السلف،

(١) قال أبو حامد الغزالي رحمه الله مبيناً بعض ألفاظ التعليل: (التعليل، كقوله: العلة كذا، أو لأجل كذا، أو لسبب كذا؛ أو ما يقوم مقامه، ويفيد معناه؛ فهو صريح في التعليل به، وذلك كقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧]، وهذا صريح في التعليل به.

وكقوله عليه السلام في النهي عن لحوم الأضاحي: «إِنَّمَا نَهَيْتُكُمْ مِنْ أَجْلِ الدَّافَةِ النَّبِيِّ دَفَّتْ، فَكُلُّوا وَادَّخِرُوا وَتَصَدَّقُوا» [رواه مسلم (١٩٧١/٢٨)].

وكقوله عليه السلام في الأعرابيِّ المُحْرِمِ الذي وقصت به راحلته: «وَلَا تُحَمِّرُوا رَأْسَهُ، فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبَّيًّا» [رواه البخاري (١٢٧٦)، ومسلم (١٢٠٦)]، وهو صريح في التعليل). شفاء الغليل ص (٢٧).

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في شفاء العليل (٢٢) له نوعاً من أدلة إثبات الحكمة في القرآن الكريم، وقد استفدت من هذه الطرق لاستخراج العبر والحكم من الآيات، ومن الأحاديث الثابتات، والله أسأل التوفيق والسداد، والهدى والرشاد.

(٢) قال أبو حامد الغزالي رحمه الله: (المسلك الثاني: في إثبات العلل بالتنبيهات من جهة الشارع، ووجوهها مختلفة، ومراتبها في إفادة الظن متقاربة، وإن كانت لا تنفك عن ضروب من التفاوت في الخفاء والجلاء؛ وهي أنواع: النوع الأول منها: أن يرتب الحكم على الفعل بفاء التعقيب والتسبيب؛ فهو تنبيه على تعليل الحكم بالفعل الذي رتب عليه؛ كقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]...، وقوله عليه السلام: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ» [رواه الترمذي (١٤٣٤)]، عن جابر رضي الله عنه، وقال: حسنٌ صحيح...، فدل ذلك على أن القطع مُعلَّل بالسرقة، وأنها سببه...، وسبب مُلك الموات الإحياء). شفاء الغليل ص (٢٧-٢٨).

عِبْرُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان من أئمة الدين، وعلماء المسلمين، ولا سيما في كتب التفسير، وشروحات الأحاديث، ومطولات كتب الفقه.

التنبيه السابع: أهمية معرفة الحكم والعبر

إن الله تعالى قد بين أهمية معرفة الحكمة فقال سبحانه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾ [البقرة].

وبين أهمية الاعتبار، والإبصار، بقوله سبحانه وهو العزيز الغفار: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾ [الحج].

وبين الله عز وجل أنه إنما ينزل الآيات، ويجعل الأمور المكوّنات للعة والاعتبار؛ فقال العزيز القهار: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

التنبيه الثامن: الفرق بين العلة والحكمة

قد ذكر بعض العلماء فروقات مهمة، وهي:

الأول: أن الحكمة وصف ظاهر في التشريع، وليست علة للتشريع، والعلة عكس ذلك.

الثاني: أن الحكمة لا يدور معها الحكم، بخلاف العلة فإن الحكم يدور معها وجودًا

وعدمًا.

الثالث: أَنَّ الْحِكْمَةَ لَا يُقَاسُ عَلَيْهَا؛ بِخِلَافِ الْعِلَّةِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ الْقِيَاسُ عَلَيْهَا لِاطْرَادِ الْحُكْمِ.

الرَّابِعُ: أَنَّ كُلَّ عِلَّةٍ حِكْمَةٌ، وَلَيْسَ كُلُّ حِكْمَةٍ عِلَّةً؛ فَالْحِكْمَةُ أَعْمَمٌ مِنْ جِهَةٍ وَجُودِهِ، أَخْصَصَ مِنْ جِهَةٍ حُكْمِهِ، وَالْعِلَّةُ أَعْمَمٌ مِنْ جِهَةٍ حُكْمِهِ، أَخْصَصَ مِنْ جِهَةٍ وَجُودِهِ^(١).

التنبيه التاسع: تَجَلِّي الْحِكْمَةِ لِلخَلْقِ فِي الخَلْقِ عَمُومًا

قَدْ يَتَجَلَّى لِلنَّاسِ حِكْمَةُ الْحَكِيمِ، وَخَيْرَاتُ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ، وَيُظْهِرُ الْإِعْتِبَارُ وَالْحَكْمُ فِي خَلْقِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ حَيْثُ الْعُمُومِ؛ كَمَا يَتَجَلَّى لَهُمْ وَلِلْفُقَهَاءِ خُصُوصًا الْحَكْمُ فِي الشَّرِيعِ عَمُومًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (٤٤) [النور].

(١) انظر: إعلام الموقعين لابن القيم (١/٣٠٩ وما بعدها)، والموافقات للشاطبي (١/٣٩٠ وما بعدها)، والعوامل المؤثرة في نوط الحكمة بالمظنة أو بالحكمة د. أيمن صالح ص (١١٣) من مجلة كلية العلوم الإسلامية العدد (٧٠).

وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله: (ولما كانت العلة الشرعية معلومة بالشرع، ولم تنحصر الطرق الشرعية في البيان والتعريف على النصوص - بل من طرق التنبيهات، ومن طرق الاستنباط والنظر -: جاز أن يعرف كون الشيء علة بتعريف الشرع بألفاظ وأفعال هي منبهة على العلة، وإن لم يكن صريحاً به، وجاز أن يعرف بطرق النظر والاستنباط، كما أن الأحكام في أنفسها لما كانت شرعية: جاز معرفتها بجميع هذه الطرق، فنصب الشيء علة حكم من جهة الشرع، كما أن إثبات الحرمة والحل في فعل من الأفعال حكم من جهة الشرع؛ فجاز أن تعرف بكل طريق تعرف به الأحكام). شفاء الغليل ص (٢٦).

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧].

وقال عز وجل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [المؤمنون: ٢١].

وقال في بيان حكمة التشريع: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقال سبحانه: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١].

وقال عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦) [النساء].

التنبيه العاشر: خفاء الحكمة للخلق في الخلق خصوصاً

قد تخفى على الخلق حكمة بعض الخلق خصوصاً، واعتبارات الحكم فيها تشخيصاً، ومن جملة ذلك اعتبارات الفتن، وحكم المحن؛ لكنها ظاهرة للمؤمنين، جلية للعلماء والربانيين، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات].

فالأصل في الخلق الابتلاء يُدرك ذلك العقلاء، وإن أنكره الملاحدة والسفهاء، وأنه سبحانه ما خلق الخلق عبثاً، ولا أوجد الموجودات سدى، قال جل وعز: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٢) [الإنسان].

وقال عز وجل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾ [المؤمنون].

كذلك يدرك العقلاء العبر والحكم في خلق العين في الرأس، والأذن في جانبي الرأس، ولكن قد تخفى عليهم العبر والحكم في خلق الأعمى، وفي خلق الأصم؛ فلذلك كان لا بد من بيان أوجه العبر والحكم في إيجاد ما هو مخالف لسنن الله تعالى الكونية، التي هي الأصل في الخلقة، وما يتعلق بالبشرية؛ فيرون الأمر من جانب ضيق فلا يعتبرون، قال الله تعالى: ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص].

وقد لا يتجلى للإنسان الحكمة أصلاً؛ فيسأل؟! قال الله تعالى عن نوح عليه السلام وقد وعده الله تعالى بإنجاء أهله؛ فسأل عن الحكمة في غرق ابنه، ولم يعلم الحكمة في ذلك في حينه؛ لعدم اطلاعه على النفاق المطوي في قلب ابنه، قال الله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)﴾ [هود].

التنبيه الحادي عشر: خفاء الحكمة في المحن وخفاء العبر في الفتن

هذه العبر والحكم من الفتن والبلايا هي أهم محاور وأسباب خلق الله تبارك وتعالى، وإيجاده وإذنه للشر إن دنى أو على، وإيجاده للمخلوقات الشريرة، والأشياء السيئة المستطيرة، والفتن المتعددة الكثيرة، وإذنه بوقوع الأمور السيئة الخاصة والعامة، والفتن الخاصة والعامة، يرى فيها المعتبر العبر، ويرى فيها الحكيم الحكم؛ فمن شهد هذه الحكمة والعبر استفاد واتعظ واعتبر، ومن لم يرها عاد عماه على نفسه مع العي والضجر، قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ [الأنعام].

وقال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ [الأنبياء].

التنبيه الثاني عشر: بشارة الأمة بالمن في الفتن، وتنبيهات في الحكم والفتن

لنعلم أن الله تعالى جعل في وقت الفتن بهذه الأمة أطافا ورحمة، كيف لا وهو الله الرحمن الرحيم، وهو اللطيف الكريم، وقد وعد سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يرضيه

في أمته، ولا يسوؤه؛ كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما وفيه: «فَقَالَ اللَّهُ: يَا جَبْرِيْلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوؤُكَ»^(١).

وهذه البشارة الإلهية الكريمة عامة لهذه الأمة في الدنيا والآخرة فإن الله تبارك وتعالى أَرْضَى نَبِيَّهٖ كَمَا وَعَدَ فِي الدُّنْيَا، وَسَيَرْضِي رَسُوْلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُمَّتِهِ فِي عَاجِلِ الْأَمْرِ وَأَجَلِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (٥) [الضحى].

والفتن وإن كان فيها من البلاء والتمحيص والضيق ما يكون، إلا أن الله تعالى في خفايا ذلك البلاء وأعطاه أَلطَافٌ ورحمةً مهمما تكون، وهذه الألطاف حقيقة بأن تُشكَّرَ ولا تُكْفَرُ، وأن تُعْتَبَرَ فتُذَكَّرَ ولا تُسْتَرَّ، وذلك لا يتم إلا بمعرفة ما في الفتن من العظات والعبر، وما فيها من المِنَحِّ والحِكَمِ؛ فلنبداً على بركة الله تعالى بمعرفتها وهي عِظَاتٌ جَسِيْمَةٌ وَعِبْرٌ، وَحِكْمٌ كَثِيْرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ؛ فلتتأمل الفتن لنقلها من كونها مِحْنَةً إلى كونها مِْنَحَةً، ولتتعلم من الفتن حتى نزيد بها رفعة.

وقد تكون هذه الحِكَمُ عامة ثم أفصل في بعض صورها دون تكرار أدلتها، وقد تكون مجملة ثم أذكر صورها الفردية دون تكرار مدلولاتها.

وأيضاً: هذه الحِكَمُ أكثرها عائدة الفوائد على المؤمنين، وبعضها متعلقة بغيرهم من عموم المسلمين، والمنافقين، والكافرين.

(١) رواه مسلم (٢٠٢).

وأيضًا: هذه الحِكْمُ قد تكون مترتبة على الفتن الكبار أو الفتن الصغار، الفتن العامة أو الفتن الخاصة؛ فبناءً على ذلك تكون الحِكْمُ عظيمة، أو دونها، عامة أو خاصة؛ فالعبر والحِكْمُ مبنية على نوع الفتن، ونوع المِحْنِ.

وأيضًا: المشاركون في الفتن ليسوا سواء على مرتبة واحدة في الآثام؛ فمنهم المرتدّ الزنديق، الذي أظهر الدين ومقصوده إفساد الدين، ومنهم الرؤوس المريدون الدنيا، ومنهم الأتباع الهمج الرُعاع، والقَعْدَةُ ليسوا كالمشاة، والمشاة ليسوا كالسُّعاة؛ وليحذر المسلم - ما دام قد عافاه الله تعالى من القضاء، أو الإفتاء، أو الحُكْمِ - أن يجعل نفسه حاكمًا قاضيًا مفتيًا يخوض في الحُكْمِ على الناس، وأعراضهم ودمائهم؛ فيكفر ويفسق ويظلم ويدّع، وكأنّه قاضي قضاة زمانه، ومفتي أو ان وقته؛ بل وربّما تجد بعضهم قاضيًا يحكم على الناس بالجنة والنار بأعيانهم، شابهوا الخوارج والمرجئة في مقالهم؛ وليعلم أن الحكم على الأعيان يزيد الشر والطغيان، وأن نلتزم كوننا دعاة لا قضاة، كوننا مُعلِّمين لا مُفتين ولا مفتونين، وأن نكلّ الأمور الكبار إلى العلماء الكبار، وأن نكل الحكم على الأعيان والعين إلى القضاة والحكام والمفتين.

وأيضًا: قد يكون السياق خاصًا لكنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والحكمة مأخوذة من حيث العموم لا من حيث خصوص الورد؛ فالنصوص لها اعتبارات سياقية، واعتبارات عامة^(١).

(١) تنبيه: خصوص السياق معتبر إذا كان التعميم يصادم نصًا آخر.

إِنَّ الْحِكْمَةَ قَدْ تَكُونُ كَلِيَّةً أَوْ جَزْئِيَّةً، مِنْ حَيْثُ الْعَمُومِ وَالْخُصُوصِ، أَوْ مِنْ حَيْثُ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ، أَوْ مِنْ حَيْثُ الْأَحْوَالِ، وَهَذَا نَدْرِكُ تَشَعُّبَ الْمَحَالِّ، وَكَثْرَةَ الْفَوَائِدِ وَالْعِبَرِ وَالْحِكْمِ فِي الْمَقَالِ؛ فَعَلَى بَرَكَاتِ اللَّهِ تَعَالَى نَبْدَأُ، وَمِنْهُ نَسْتَمِدُّ الْعَوْنَ وَالرِّشَادَ، وَالتَّوْفِيقَ وَالْهُدَى وَالسَّدَادَ.

١. ظهورُ مشيئةِ الله تعالى العامة

إنَّ الله سبحانه يفعلُ ما يشاء، ويقدرُ ما يشاء، ويخلقُ ما يشاء، لا يجري في ملكه إلا ما يشاء، قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)﴾ [آل عمران: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)﴾ [الأنعام].
وقال جلَّ وعزَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨)﴾ [القصص].

وقال عز وجل: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال جلَّ في علاه: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾ [الإنسان].

وقال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيِّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف].

وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة].

وقال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، والأمة مأمورة تبعًا له بذلك: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ (٧٧)﴾ [غافر].

وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَأِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ (٤٢)﴾ [الزخرف].

وقال سبحانه مبيناً أن الأمور الشرعية والقدرية بيده: ﴿لِنَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾ [الحديد].

وقال عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءُ لَهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)﴾ [الأنعام]^(١).

(١) نقل ابن القيم رحمه الله قول المعترض على تقدير الله تعالى وإيجاده المؤلّمات والفتن والبلّيات، فأجاب عنها بأوجه متعددة، ومما قال: (نقول: سبحانه الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، بل في تحقيق هذه الكلمات الجواب الشافي. {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ} [آل عمران: ١٩١]، {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِاعْبَيْنَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} [الدخان: ٣٨ - ٣٩]، {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}...، ونحن هكذا نقول بحمد الله ومنه، القول الوسط الصواب لنا. وإنكار الفاعل بالمشيئة والاختيار لأعداء الرّسل، وإنكار الحكمة والمصلحة والتعليل والأسباب للجهمية والجبرية، وإنكار عموم القدرة والمشيئة والحكمة العائدة إلى الرّب تعالى من محبته وكرهته وموجب حمده ومقتضى أسمائه وصفاته ومعانيها وآثارها للقدرية المجوسية. ونحن نبرأ إلى الله من هذه الأقوال وقائلها، إلا من حقّ تتضمنه مقالة كل فرقة منهم، فنحن به قائلون، وإليه منقادون، وله مدعون... شفاء العليل (٢/٩٩ وما بعدها).

وقال ما ملخصه: (فمنها: أن يكمل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه، ومخالفته ومراغمته في الله، وإغاظته وإغاطة أوليائه، والاستعاذة به منه، واللجأ إليه أن يعيدهم من شره وكيده، فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه، وقد قدمنا أن الموقوف على الشيء لا يحصل بدونه.

ومنها: أنه محكّ امتحن الله به خلقه؛ ليطمئن به خبيثهم من طيبهم.

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

وقال سبحانه مبيِّناً أن مخططات الأعداء، وأعمالهم السرية لا تنفع إلا بإذن الله تعالى القدري، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠)﴾ [المجادلة].

وقال جل في علاه مبيِّناً عظيم قدرته: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

وقال عز وجل في آيات متعددة مبيِّناً عموم وخصوص مشيئته: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٧٤]، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١]، ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ

ومنها: أن في خلق من يُضاد رسله ويكذبهم ويعاديهم من تمام ظهور آياته وعجائب قدرته ولطائف صنعه = ما وجوده أحب إليه وأنفع لأوليائه من عدمه، كما تقدم من ظهور آية الطوفان والعصا واليد وفلق البحر وإلقاء الخليل في النار، وأضعاف أضعاف ذلك من آياته وبراهين قدرته وعلمه وحكمته، فلم يكن بد من وجود الأسباب التي يترتب عليها ذلك كما تقدم.

ومنها: أن حمده سبحانه تام كامل من جميع الوجوه، فهو محمود على عدله ومنعه وخفضه وانتقامه وإهانتته، كما هو محمود على فضله وعطائه ورفعته وإكرامه، فله الحمد التام الكامل على هذا وهذا، وهو يحمد نفسه على ذلك كله، ويحمده عليه ملائكتُه ورسُلُه وأوليائُه، ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم، وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه فله في خلقه وإيجاده الحكمة التامة، كما له عليه الحمد التام، فلا يجوز تعطيل حمده، كما لا يجوز تعطيل حكمته.

ومنها: أنه سبحانه يحب أن يُظهر لعباده حلمه وصبره وأناته وسعة رحمته وجوده، فاقضى ذلك خلق من يُشرك به، ويضاده في حكمه، ويجتهد). شفاء العليل (٢/ ٢٤٥ وما بعدها).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

نَشَاءُ} [الأنعام: ٨٣]، {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} [الجمعة: ٤]، {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [إبراهيم: ١١]، {فَنَجِّي مَنْ نَشَاءُ} [يوسف: ١١٠] ^(١).

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَجَعَلْتَنِي وَاللَّهِ عِدْلًا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحُدَّهُ» ^(٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصْرَفُ حَيْثُ يَشَاءُ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ مُصْرَفِ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ» ^(٣).

(١) قال ابن القيم رحمه الله: (وهو سبحانه تارة يخبر أن كل ما في الكون بمشيئته، وتارة أن ما لم يشأ لم يكن، وتارة أنه لو شاء لكان خلاف الواقع، وأنه لو شاء لكان خلاف المقدر الذي قدره وكتبه، وأنه لو شاء لما عُصِيَ، وأنه لو شاء لجمع خلقه على الهدى وجعلهم أمة واحدة، فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته، وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته. وهذا حقيقة الربوبية، وهو معنى كونه رب العالمين، وكونه القيوم القائم بتدبير عباده، فلا خلق، ولا رزق، ولا عطاء، ولا منع، ولا قبض، ولا بسط، ولا موت، ولا حياة، ولا إضلال، ولا هدى، ولا سعادة، ولا شقاوة، إلا من بعد إذنه، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه؛ إذ لا مالك غيره، ولا مدبر سواه، ولا ربَّ غيره). شفاء العليل (١/١٥١-١٥٢).

(٢) رواه أحمد (١٨٣٩)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٥٩)، وابن ماجه (٢١١٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات

(٢٩٣)، وهذا لفظه، وهو حديث صحيح.

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٤).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَلَا يُنْزِلَهُمْ جَنَّةً وَلَا نَارًا)^(١).

٢. زيادةُ اليقين بعلمِ الله تعالى

إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لِنَعْلَمَ، وَلِنَدْرِكَ عَظِيمِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَكَمَالِهِ وَجَمَالِهِ وَجَلَالِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾ [القصص].

وَقَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾ [ص].
وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾ [الطلاق].
وَقَالَ جَلَّ فِي عِلْمِهِ بَعْدَ بَيَانِهِ الْهَلَاكَ وَالْفِتْنَةَ الَّتِي وَقَعَتْ لِلْأُمَّمِ السَّابِقَةِ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ في آياتٍ متعددةٍ منها.

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ فِي رَجُوعِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ أُمَّهُ: (فَأْتَتْ أُمَّهُ، فَأَخْبَرَتْهَا، فَاَنْطَلَقَتْ مَعَهَا حَتَّىٰ أَتَتْهُمُ، فَنَاولُوهَا إِيَّاهُ، فَلَمَّا وَضَعَتْهُ فِي حِجْرِهَا أَخَذَتْ يَدَيْهَا، وَسُرُّوا بِذَلِكَ مِنْهُ، وَرَدَّهُ اللَّهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فَبَلَغَ لُطْفُ اللَّهِ لَهَا وَلِهَا أَنْ رَدَّ عَلَيْهَا وَلَدَهَا، وَعَطَفَ عَلَيْهَا

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥٥٧/٩)، وابن أبي حاتم (١٣٨٧-١٣٨٨).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

نَفَعَ فِرْعَوْنَ وَأَهْلَ بَيْتِهِ، مَعَ مَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْقَتْلِ الَّذِي يَتَخَوَّفُ عَلَيَّ غَيْرَهُ، فَكَأَنَّهُ كَانَ مِنْ بَيْتِ آلِ فِرْعَوْنَ فِي الْأَمَانِ وَالسَّعَةِ، فَكَانَ عَلَيَّ فُرْشَ فِرْعَوْنَ وَسُرُّهُ فِي بَيْتِهِ^(١).
وَقَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ فِرْعَوْنَ الطَّاعِيَةِ: (وَكَانَ أَعْتَى أَهْلِ الْأَرْضِ عَلَيَّ اللَّهُ، وَأَبْعَدَهُ مِنْ اللَّهِ، فَوَاللَّهِ، مَا ضَرَّ امْرَأَتَهُ كُفْرَ زَوْجِهَا حِينَ أَطَاعَتْ رَبَّهَا؛ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ حَكَمَ عَدْلًا، لَا يُؤَاخِذُ عَبْدَهُ إِلَّا بِذَنْبِهِ)^(٢).

٣. إِظْهَارُ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى فِي وَقُوعِ الْفِتَنِ

مَا مِنْ تَقْدِيرٍ إِلَّا وَفِيهِ لُطْفُ اللَّهِ تَعَالَى، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَخَفِيَ عَلَيَّ مَنْ خَفِيَ، قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ وَقُوعِهِ فِي فِتْنٍ وَبَلَاءَاتٍ عَدَّةٍ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يُوسُفُ: ١٠٠].

قَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَطَفَ لِيُوسُفَ، وَصَنَعَ لَهُ حِينَ أَخْرَجَهُ مِنَ السِّجْنِ، وَجَاءَ بِأَهْلِهِ مِنَ الْبَدْوِ، وَنَزَعَ مِنْ قَلْبِهِ نَزْغَ الشَّيْطَانِ، وَتَحْرِيشَهُ عَلَيَّ إِخْوَتِهِ)^(٣).

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٩٥٠/٩).

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (١١٥-١١٦/٢٣).

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٣٦٤/١٣).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال الله سبحانه أمرًا نساء النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهن لما طالبن شيئاً من فتنه الدنيا وزهرتها وخيّرَنَ فاخترن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (٣٤) [الأحزاب].
وقال جلّ وعزّ: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك] (١).

ومن عظيم لطف الله بنبيه صلى الله عليه وسلم ما أنعم الله به عليه قبل نبوته وإرساله برسالته: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨)﴾ [الضحى].

(١) إن الفتن لا تقع إلا بقدر الله تعالى، وإنما المباشر لها هم العبيد، وهم المباشرون للسينات، قال ابن القيم رحمه الله: (والعبد إذا فعل القبيح المنهي عنه كان قد فعل الشر والسوء، والربُّ تعالى هو الذي جعله فاعلاً لذلك، وهذا الجعل منه عدلٌ وحكمةٌ وصوابٌ، فجعله فاعلاً خيراً، والمفعول شرٌّ وقبيح. فهو سبحانه بهذا الجعل قد وضع الشيء موضعه، لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يُحمد عليها، فهو خيراً وحكمةً ومصالحةً، وإن كان وقوعه من العبد عيباً ونقصاً وشرّاً).

وهذا أمر معقول في الشاهد؛ فإن الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العوجاء، والحجر المكسور، واللينة الناقصة، فوضع ذلك في موضع يليق به ويناسبه = كان ذلك منه عدلاً وصواباً يمدح به، وإن كان في المحل عوجٌ ونقصٌ وعيبٌ يُذم به المحلّ.

ومن وَضَع الخبائث في موضعها ومحلها اللائق بها كان ذلك حكمةً وعدلاً وصواباً. وإنما السّفَه والظلم أن يضعها في غير موضعها، فمن وضع العمامة على الرأس، والنعل في الرجل، والكحل في العين، والزُّبالة في الكُناسة، فقد وضع الشيء موضعه، ولم يظلم النعل والزُّبالة إذ هذا محلها. ومن أسمائه سبحانه: العدل، و«الحكيم»). شفاء العليل (٢/٨٦-٨٧).

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْنَا: بَلَى، قَالَتْ: لَمَّا كَانَتْ لَيْلَتِي الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا عِنْدِي انْقَلَبَ فَوَضَعَ رِدَاءَهُ، وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ، فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ، وَبَسَطَ طَرَفَ إِزَارِهِ عَلَى فِرَاشِهِ، فَاضْطَجَعَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا رَيْثِمًا ظَنَّ أَنْ قَدْ رَقَدْتُ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ رُوَيْدًا، وَانْتَعَلَ رُوَيْدًا، وَفَتَحَ الْبَابَ، فَخَرَجَ، ثُمَّ أَجَافَهُ رُوَيْدًا، فَجَعَلْتُ دِرْعِي فِي رَأْسِي، وَاخْتَمَرْتُ وَتَقَنَّعْتُ إِزَارِي، ثُمَّ انْطَلَقْتُ عَلَى إِثْرِهِ، حَتَّى جَاءَ الْبَيْعَ، فَقَامَ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ انْحَرَفَ، فَانْحَرَفْتُ، فَأَسْرَعُ، فَأَسْرَعْتُ، فَهَرَوَلُ، فَهَرَوَلْتُ، فَأَحْضَرُ، فَأَحْضَرْتُ، فَسَبَقْتُهُ، فَدَخَلْتُ، فَلَيْسَ إِلَّا أَنْ اضْطَجَعْتُ، فَدَخَلَ، فَقَالَ: «مَا لَكَ يَا عَائِشُ حَشِيًا رَابِيَةً». قُلْتُ: لَا شَيْءَ، قَالَ: «لَتُخْبِرَنِي، أَوْ لِيُخْبِرَنِي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: «فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي»، قُلْتُ: نَعَمْ، فَلَهَدَنِي فِي صَدْرِي لَهْدَةً أَوْجَعْتَنِي، ثُمَّ قَالَ: «أُظَنُّنْتَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَرَسُولُهُ»، قَالَتْ: مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ، نَعَمْ. قَالَ: «فَإِنَّ جِبْرِيْلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتُ فَنَادَانِي، فَأَخْفَاهُ مِنْكَ، فَأَجَبْتُهُ فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكَ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكَ، وَقَدْ وَضَعْتَ ثِيَابَكَ وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْتِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكَ وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَيْعِ، فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ»، قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «قُولِي السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمُسْلِمِينَ وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا، وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لِلْآحِقُونَ»^(١).

(١) رواه مسلم (٩٧٤).

٤. التكليف بما في الوُسْعِ والقُدْرَةِ

إِنَّ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ الشَّرْعِيَّةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَكْلِفُ عِبَادَهُ شَرْعًا إِلَّا مَا فِي وَسْعِهَا وَتَحْتَ مَكْتَبَتِهَا الْفَعْلِيَّةِ، وَلِهَذَا يَخْفِفُ الْعِبَادَاتِ إِذَا وَجَدَتْ الْمَشَاقَّ.

وهكذا في الفتنة الإلهية يتجلى لطفُ الله تعالى، وتخفيفه على عباده؛ فيجعلها تمرّ مع إمكانه عباده المؤمنين القُدْرَةَ على الصَّبْرِ والسلوان، قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (٧) وَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) ﴿[الطلاق].

وقال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِضْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) ﴿[البقرة].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ} [البقرة: ٢٨٤] قَالَ: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ، لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا». قَالَ: فَأَلْقَى اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، {رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

إِضْرًا كَمَا حَمَلْتُهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا} قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، {وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا} قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ»^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ، أَوْ تَكَلَّمْ بِهِ»^(٢).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي؛ الْخَطَأَ، وَالنَّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»^(٣).

وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (هم المؤمنون، وسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَمْرَ دِينِهِمْ)^(٤).

٥. ظُهُورِ الْمِنَنِ الْإِلَهِيَةِ بِوُقُوعِ الْفِتَنِ الْقَدْرِيَةِ

لَوْلَا الْمِحْنَةُ لَمَا تَجَلَّى لِلنَّاسِ الْمِنْحَةُ؛ فَإِنَّمَا يَعْرِفُ قَدْرَ الصِّحَّةِ الْمَرِيضُ، وَقَدْرَ الْعَافِيَةِ الْمُبْتَلَى، وَقَدْرَ نِعْمَةِ الْأَمْنِ مَنْ عَاشَ الْخَوْفَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤].

وَقَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿وَلَيَبْدِلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

(١) رواه مسلم (١٢٦).

(٢) رواه البخاري (٢٥٤٦)، ومسلم (١٢٧).

(٣) رواه ابن ماجه (٢٠٤٥)، وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٥٣/٥) وغيره.

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ بَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾ [البقرة] (١).

وَعَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجِبْتُ مِنْ أَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، كَانَ ذَلِكَ لَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ، كَانَ ذَلِكَ لَهُ خَيْرٌ» (٢).

وقال مطرف بن عبد الله رحمه الله في قصة الغلام الذي قتله الخضر: (إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّهُمَا قَدْ فَرِحَا بِهِ يَوْمَ وُلِدَ، وَحَزْنَا عَلَيْهِ يَوْمَ قُتِلَ، وَلَوْ عَاشَ لَكَانَ فِيهِ هَلَاكُهُمَا، فَرَضِي رَجُلٌ بِمَا

(١) قال ابن القيم رحمه الله: (وأما السيئة فهو سبحانه إنما قدرها وقضاها لحكمة، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه، فإن الربّ تعالى لا يفعل سوءاً قط، كما لا يوصف به، ولا يُسَمَّى باسمه، بل فعله كله حُسنٌ وخيرٌ وحكمةٌ ومصالحةٌ، كما قال تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال أعراب الخلق به صلى الله عليه وسلم: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» [رواه مسلم (٧٧١)] من حديث علي رضي الله عنه، فهو لا يخلق شراً محضاً من كل وجه، بل كل ما خلقه ففي خلقه مصلحةٌ وحكمةٌ، وإن كان في بعضه شرٌّ جزئي إضافي، وأما الشرُّ الكلي المطلق من كل وجه فهو تعالى منزّه عنه، وليس إليه). شفاء العليل (٥٢/٢).

(٢) رواه أحمد (١٨٩٣٤)، واللفظ له، ومسلم (٢٩٩٩).

قسم الله له، فإن قضاء الله للمؤمن خيرٌ من قضائه لنفسه، وما قضى الله لك فيما تكرهه خيرٌ مما قضى لك فيما تحبُّ^(١).

٦. تجلية أن كل شيء بأجلٍ مسمى، وأن كل شيءٍ فمن عند الله تعالى

لا يقع شيءٌ إلا بقدرٍ، فهذه فتنٌ تقتل وتبيد، وبقي فلان تليداً، وهذه فتنٌ تحرق، وحيي فلان مديداً، وهذه فتنٌ تغرق ونجا فلانٌ سديداً، قال الله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٢-٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلْيَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُضَرَّفُونَ﴾ [غافر: ٦٧-٦٩].

وقال عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)﴾ [الأعراف: ٣٤].

وقال جل في علاه: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩-٥٠].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٩٢٨) والبيهقي في الشعب (١٠١٧٢)، وانظر الدر للسيوطي (٤٢٩/٥)، ومثل

ذلك مروى عن قتادة رحمه الله.

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

وقال جل وعز: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥)﴾ [الحجر].

عَنْ أُسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ ابْنُ لِبْعُصِ بْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْضِي، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهَا، فَأَرْسَلَ: «أَنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرَّهَا؛ فَلْتَضَبِرْ، وَلْتَحْتَسِبْ»^(١).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أَعَلَّمْتُكَ كَلِمَاتٍ، أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(٢).

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ شَهَابِ الزَّهْرِيِّ قَالَ: (نَرَى أَنَّهُ إِذَا حَضَرَ أَجَلُهُ فَإِنَّهُ لَا يُؤَخَّرُ سَاعَةً وَلَا يُقَدَّمُ، وَأَمَّا مَا لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ فَإِنَّ اللَّهَ يُؤَخِّرُ مَا شَاءَ، وَيُقَدِّمُ مَا شَاءَ)^(٣).

٧. تجلِّي حِكْمِ الْخَالِقِ فِي الْخَلَائِقِ

(١) رواه البخاري (٧٤٤٤)، ومسلم (٩٢٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٥)، وغيره، وقال: (حسنٌ صحيح).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٤/١٤-١٥).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

إنَّ تصريف الأمور على غير الأمرِ المبرور، يجلب النظر في الأمور، ويُفقهُ الناس في تصريف الحكيم الغفور، قال الله تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وقال جلّ في علاه: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٦٦) [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧) [التوبة].

وقال عزّ وجلّ: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ (٤٦) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦-٤٧].

عن عبد الله بن خباب بن الأرت عن أبيه رضي الله عنهما قال: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةً فَأَطَالَهَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّيْتَ صَلَاةً لَمْ تَكُنْ تُصَلِّيْهَا؟ قَالَ: «أَجَلٌ، إِنَّهَا صَلَاةٌ رَغْبَةٌ وَرَهْبَةٌ، إِنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ فِيهَا ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ، وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِسَنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنْعَنِيهَا»^(١).

(١) رواه البخاري (٧٣٠٩).

وَقَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَمَّا نَزَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ} قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، {أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، فَلَمَّا نَزَلَتْ: {أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} قَالَ: «هَاتَانِ أَهْوَنُ - أَوْ أَيْسَرُ»^(١).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (بَعَثَ مَعِيَ أَبُو مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْهُزْمِزَانِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ نَزَلَ عَلَيَّ حُكْمِيهِ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْتُ بِهِ، قَالَ: فَجَعَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُكَلِّمُهُ؛ فَجَعَلَ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ الْهُزْمِزَانِ الْكَلَامَ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ لَا تَكَلِّمُ؟ فَقَالَ: أَكَلَامٌ حَيٍّ أَمْ كَلَامٌ مَيِّتٍ؟ قَالَ: تَكَلِّمُ لَا بَأْسَ. قَالَ: كُنَّا وَأَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ، مَا خَلَى اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ نَسْتَعْبِدُكُمْ، وَنُقْصِيكُمْ، فَلَمَّا كَانَ اللَّهُ مَعَكُمْ لَمْ يَكُنْ لَنَا بِكُمْ يَدَانِ. قَالَ: ثُمَّ كَانَ عُمَرُ أَرَادَ قَتْلَهُ؛ فَقُلْتُ: لَيْسَ إِلَيَّ قَتْلُهُ سَبِيلٌ، قَدْ قُلْتُ: لَهُ تَكَلَّمَ فَلَا بَأْسَ. فَقَالَ: لَتَأْتِيَنَّ مَعَكَ بِشَاهِدٍ آخَرَ أَوْ لَا أَبْدَانَ بِعُقُوبَتِكَ. قَالَ: فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ، فَلَقِيْتُ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ حَفِظَ مِثْلَ مَا حَفِظْتُ، قَالَ: فَأَتَاهُ فَشَهِدَ عَلَيَّ مِثْلَ الَّذِي شَهِدْتُ بِهِ، فَتَرَكْتُهُ؛ فَأَسْلَمَ، وَفَرَضَ لَهُ)^(٢).

(١) رواه الترمذي (٢٣١٦) وغيره، وقال: (حسنٌ صحيح).

(٢) حديث علي بن حجر السعدي لأبي إسحاق إسماعيل بن جعفر المدني (٩٦).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَقِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَيْءٍ قَالَهُ: (يَا أَبَا سَعِيدٍ! مَا سَمِعْتُ أَحَدًا مِنَ الْفُقَهَاءِ يَقُولُ هَذَا، قَالَ: وَهَلْ رَأَيْتَ فِقِيهَا قَطُّ؟ إِنَّمَا الْفَقِيهُ: الزَّاهِدُ فِي الدُّنْيَا، الرَّاعِبُ فِي الْآخِرَةِ، الدَّائِبُ فِي الْعِبَادَةِ.

قَالَ: وَمَا رَأَيْتُ فِقِيهَا قَطُّ، يُدَارِي وَلَا يُمَارِي، يَنْشُرُ حِكْمَةَ اللَّهِ، فَإِنْ قُبِلَتْ حَمْدُ اللَّهِ، وَإِنْ رُدَّتْ حَمْدُ اللَّهِ^(١).

٨. إظهار أن الكفار الضلال هم من يوقدون الفتن الكبار

إِنَّ مَنْ تَأَمَّلَ أَحْوَالَ الْحُرُوبِ وَجَدَ أَنَّ الْمَبَادِرَ لَهَا هُمُ الْكُفَّارُ الضَّلَالُ، وَعَلَى رَأْسِهِمُ الْيَهُودَ لَا سِوَمَا الصَّهَابِيَّةِ مِنْهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

وَأَخْبَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ الْأَشْرَارَ هُمُ مَنِ اسْتَعْجَلُوا السَّاعَةَ دُونَ الْأَبْرَارِ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُمْ سَيَعُونَ فِي إِشْعَالِ فِتْلِ الْحَرْبِ، وَتَخْرِيبِ أَحْوَالِ الدُّنْيَا؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٧-١٨].

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك ص (٨).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدُهُ، وَنَصَرَ عَبْدُهُ، وَغَلَبَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ»^(١).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْأَحْزَابِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ، وَزَلِّزْلُهُمْ»^(٢).

وَعَنْ ابْنِ شَهَابٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (كَانَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ الْيَهُودِي أَحَدَ بَنِي النَّضِيرِ قَدْ آذَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهَجَاءِ، وَقَدِمَ عَلَى قَرِيشٍ؛ فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَيْهِ)^(٣).
 وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (كَلِمَا اجْتَمَعَتِ السَّفِيفَةُ عَلَى قَتْلِ الْعَرَبِ أَذْلَهُمُ اللَّهُ)^(٤).
 وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ السَّدِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (كَلِمَا أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى شَيْءٍ فَرَّقَهُ اللَّهُ، وَأَطْفَأَ حَدَّهُمْ وَنَارَهُمْ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرِّعْبَ)^(٥).

٩. ابتلاء العباد بالواقع العلمي لإظهار التوحيد العملي

(١) رواه البخاري (٤١٠٤)، ومسلم (٢٧٢٤).

(٢) رواه البخاري (٤١٠٥)، ومسلم (١٧٤٢).

(٣) تاريخ المدينة لابن شبة (٢/٤٥٤).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦٥٨٩).

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٨/٥٦١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦٥٨٨).

إنَّ الواقع العلمي الذي أخبرَ اللهُ تعالى عنه، وأخبر عنه رسوله صلى اللهُ عليه وسلم، كَلَّه قد وقعَ كما أخبر، وما ذاك إلا لإظهار وتجلية التوحيد العملي، وهو المطلوب الأصيل غاية من وجود الخلق، وهذا أصل المقصد الأول من إيجادهم، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات].

وقال ابن عباس رضي اللهُ عنهما في معنى: {لِيَعْبُدُونِ} (أي: لِيَتَذَلَّلُوا لِي، ولقدرتي، وإن لم يكن ذلك على قوانين الشرع) (١).

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه اللهُ: (صدق اللهُ - عزَّ اسمه - فيما يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾، ولم يُقل: وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعمروا الدنيا، ويجمعوا الأموال، ويبنوا الدُّور، ويُشيدوا القصور، ويتلذذوا، ويتفكَّهوا. ويَجْعَلُ يومه أجمع يُرَدِّد ذلك، ويقول: {فبهدهم اقتده} [الأنعام: ٩٠]، {وما أمروا إلا ليعبدوا اللهُ مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} (٢).

وقال سبحانه مبينا الابتلاء ببعثة موسى عليه السلام: ﴿قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)﴾ [الأعراف].

(١) تفسير ابن عطية (٨ / ٨٢)، وقال ابن عطية: (المعنى: ما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بعبادتي، وليقرّوا لي

بالعبودية، فعبر عن ذلك بقوله: {ليعبدون} إذ العبادة هي مضمون الأمر).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨ / ٤٠).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنِيسِرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧)﴾ [الضحى].

عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا، وَفِي يَدِهِ عُوْدٌ يَنْكُتُ بِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ، إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ مَنْزِلَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلِمَ نَعْمَلُ؟ أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ قَالَ: «لَا، اْعْمَلُوا فِكُلُّ مُسِيرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ: {فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ} إِلَى قَوْلِهِ {فَسَنِيسِرُهُ لِلْيُسْرَىٰ}»^(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَقَطَّرَ رِجْلَاهُ. قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَصْنَعُ هَذَا؟! وَقَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»^(٢).

١٠. ابتلاء العباد بالواقع العملي لإظهار التوحيد العلمي

إنَّ الواقع العملي الذي يقع على الإنسان ينبغي أن يستغله لإظهار وتجليه التوحيد العلمي، الذي عرفه ودرسه، وهو المطلوب الأصيل وسيلةً من وجود الخلق، وهذا أصل المقصد الثاني من إيجادهم، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ

(١) رواه البخاري (٧٥٤٨)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٢) رواه البخاري (٤٨٢١)، ومسلم (٢٨٢٠).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

مِثْلُهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ [الطلاق].

وقال سبحانه مبيناً الحكمة الإلهية في إيجاد البرية من الناحية العلمية: ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].
وقال سبحانه: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨)﴾ [النور].

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(١).
وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (إِذَا أَعْجَبَكَ حُسْنُ عَمَلِ امْرِئٍ فَقُلْ: {اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}، وَلَا يَسْتَخْفِنَكَ أَحَدٌ)^(٢).

وعن خليفة العبدي رحمه الله قال: (لو أن الله تبارك وتعالى لم يُعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد، ولكن المؤمنون تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء، فملاً كل شيء، وغطى كل شيء، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء، فمحا سلطان الليل، وفي السحاب المسخر بين السماء

(١) رواه الترمذي (٢١٠٢) وغيره، وقال: (حديث حسن).

(٢) ذكره البخاري معلقاً تحت باب: (٤٦) كتاب التوحيد من صحيحه.

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

والأرض، وفي النجوم، وفي الشتاء، والصيف، فوالله، ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم برّبهم عز وجل، وكأنما عبدوا الله عن رؤية^(١).

١١. الابتلاء بالأمور الكونية

إن الله تعالى قد ابتلى عباده وامتحانهم بنوعين؛

الأول: الأمور التشريعية، من العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق.

الثاني: الأمور الكونية؛ فجعل هذا قويا وهذا ضعيفا، وآخر صحيحا وآخر مريضا، وذاك فقيرا وذاك غنيا، قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾ [الزخرف].

وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)﴾ [الأنعام].

(١) رواه أبو الشيخ في العظمة (٦٤).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قال مقاتل بن حيان رحمه الله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضُكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ يعني: في الفضل والغنى، ﴿لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ يقول: لِيَبْتَلِيَكُمْ فيما أعطاكم؛ لِيَبْلُوَ الْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ، وَالشَّرِيفَ وَالْوَضِيعَ، وَالْحُرَّ وَالْعَبْدَ^(١).

وقال عز وجل مبيناً أن التفضيل منه: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (٢١) [الإسراء].

وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان].

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (جعلت بعضكم لبعض بلاءً لتصبروا على ما تسمعون منهم، وترون من خلافهم، وتتبعوا الهدى بغير أن أعطيهم عليه الدنيا، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رُسُلِي فلا يخالفون لفعلت، ولكنني قد أردت أن أبتلي العباد بكم، وأبتليكم بهم)^(٢).

وقال سبحانه مبيناً أنه لا يمكن أن يقع القتل إلا بمشيئته تبارك وتعالى العامة، وأنه لا يقع ذلك إلا ابتلاءً للمؤمنين: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) [الأنفال].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٤٣٦/٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٤٢٥/١٧).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول الله: يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلا من هديتُ، فسألوني الهدى أهديتُكم، وكلُّكم فقيرٌ إلا من أغنيتُ، فسألوني أرزقتُكم، وكلُّكم مُذنبٌ إلا من عافيتُ، فمن علمَ مِنْكُمْ أَنِّي ذو قُدْرَةٍ عَلَى الْمَغْفِرَةِ، فَاسْتَغْفِرْنِي غَفَرْتُ لَهُ، وَلَا أَبَالِي، وَلَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيَّتَكُمْ وَرَطَبَكُمْ وَيَابَسَكُمْ اجْتَمَعُوا عَلَى اتَّقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَلَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيَّتَكُمْ وَرَطَبَكُمْ وَاجْتَمَعُوا عَلَى اتَّقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَلَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيَّتَكُمْ وَرَطَبَكُمْ وَيَابَسَكُمْ اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ مَا بَلَغَتْ أُمِّيَّتُهُ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي إِلَّا كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِالْبَحْرِ فَعَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَيْهِ، ذَلِكَ بَأَنِّي جَوَادٌ وَاجِدٌ مَا جَدُّ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ، عَطَائِي كَلَامٌ، وَعَذَابِي كَلَامٌ، إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ»^(١).

١٢. الامتحان بالأمر المباحة

إنَّ من العبر في الفتن ظهور الامتحان في الأمور المباحة، وذلك بتضييقها، أو بندرتها، أو بحكم عامٍّ فيها، أو في بعضها، كما لو صار النهر الجاري ملوثًا فأصبح الشرب منه محل ابتلاء؛ كما امتحن طالوت جنوده بعدم شرب الماء من النهر إلا غرفة؛ فقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا

(١) رواه الترمذي (٢٦٦٣)، وغيره، وقال: (حديث حسن).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴿البقرة: ٢٤٩﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩)﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) ﴿[المؤمنون].

عَنْ سَعْدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ، زِيدَ فِي بَلَائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»^(٢).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: إِذَا أَخَذْتُ كَرِيمَتِي عَبْدِي فِي الدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ جَزَاءٌ عِنْدِي إِلَّا الْجَنَّةُ»^(٣).

(١) رواه أحمد (١٤٨١)، وهذا لفظه، والترمذي (٢٥٦١)، وقال: (حسنٌ صحيح). قال ابن الأثير في النهاية (٢٩٦/٤): (أي الأشرف فالأشرف، والأعلى فالأعلى في الرتبة والمنزلة، يقال: هذا أمثل من هذا، أي: أفضل وأدنى إلى الخير، وأماثل الناس: خيارهم).

(٢) رواه الترمذي (٢٥٦٢)، وغيره، وقال: (حسنٌ صحيح).

(٣) رواه الترمذي (٢٥٦٣)، وغيره، وقال: (حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه...).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُودُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ - لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ»^(١).

وَقَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (إِنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِمَا يَشَاءُ، لِيَعْلَمَ مَنْ يَطِيعُهُ مِمَّنْ يَعُصِيهِ)^(٢).

١٣. الامتحان بالأمر الشرعية من حيث العموم

قَدْ يَزْعُمُ أَنَا سِ الْاِمْتِحَانِ؛ فَيَبْتَلِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَمْرٍ لِيَتَجَلَّى اِمْتِحَانُهُمْ مِنْ عَدَمِهِ، فَتَكُونُ الْفِتْنُ وَفِيهَا الْأُمُورُ الشَّرْعِيَّةُ، وَمَنْ يَغْفُلُ عَنْهَا، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهَا، وَمَنْ يَطِيعُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيَاتُهُمْ يَوْمَ سَبَّتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وَقَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤)﴾ [المائدة].

(١) رواه الترمذي (٢٥٦٦)، وقال: (غريب...)، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٤/٤٨٣)، وابن أبي حاتم (٢٤٩٨).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عَنْ مِقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (أُنزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عَمْرَةَ الْحَدِيثِيَّةِ، فَكَانَتْ الْوَحْشُ وَالطَّيْرُ وَالصَّيْدُ يَغْشَاهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ قَطُّ فِيمَا خَلَا، فَنَهَاهُمْ اللَّهُ عَنْ قَتْلِهِ وَهُمْ مُحْرِمُونَ؛ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ) (١).

وَقَالَ جَلٌّ وَعَزٌّ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)﴾ [الملك].
وَقَالَ عَزٌّ وَجَلٌّ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: أَحْسَنُ عَقْلًا، وَأَوْرَعُ عَنْ مُحَارَمِ اللَّهِ، وَأَسْرَعُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ) (٢).

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَيُّكُمْ أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا زَاهِدًا، وَأَقْوَى لَهَا تَرْكًا) (٣).
وَعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: (أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً، فَأَمَرْتَنِي أَنْ أَشْهَدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/١٢٠٤).

(٢) رواه الحارث في مسنده (٨٣١) وغيره مرفوعًا بسندٍ ضعيف، والأشبه أنه موقوف.

(٣) تفسير الثعلبي (٥/١٥٩).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قَالَ: «أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟». قَالَ: لَا، قَالَ: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ». قَالَ: فَرَجَعَ، فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ^(١).

١٤. الابتلاء بالأمر الشرعية من حيث الخصوص

إنَّ الله تعالى كما شرع العبادات العامة ابتلاءً كذلك شرع بعض العبادات الخاصة ابتلاءً، مثل الجهاد، وجعل القتال والاقتيال اختباراً، ليظهر الطائع الجاد، قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (٣١) [محمد]. وقال سبحانه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٧) [الأنفال].

وقال عز وجل مبيناً الحكمة في تشريع الجهاد، وأنه لدفع الظلم والعدا: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٩٣) [البقرة]. قال الشافعي رحمه الله: (يُقال: نزل هذا في أهل مكة، وهم كانوا أشد العدو على المسلمين، ففرض عليهم في قتالهم ما ذكر الله، ثم يُقال: نسخ هذا كله، والنهي عن القتال حتى يقاتلوا، أو النهي عن القتال في الشهر الحرام بقول الله عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ ، ونزول هذه الآية بعد فرض الجهاد)^(٢).

(١) رواه البخاري (٢٦٠٣)، ومسلم (١٦٢٣).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٥٨١ / ٢).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال إسماعيل السدي رحمه الله: (فإن الله لا يحب العدوان على الظالمين، ولا على غيرهم، ولكن يقول: اعتدوا عليهم بمثل ما اعتدوا عليكم)^(١).

عَنْ نَافِعٍ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَحُجَّ عَامًا وَتَعْتَمِرَ عَامًا، وَتَتْرِكَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَدْ عَلِمْتَ مَا رَغَبَ اللَّهُ فِيهِ؟ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: إِيْمَانٍ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالصَّلَاةِ الْخَمْسِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ. قَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَلَا تَسْمَعُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ إِلَى: ﴿أَمْرٍ بِاللَّهِ﴾، ﴿قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، قَالَ: فَعَلْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ الْإِسْلَامُ قَلِيلًا، فَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ؛ إِمَّا قَتَلُوهُ، وَإِمَّا يُعَدَّبُوهُ، حَتَّى كَثُرَ الْإِسْلَامُ، فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ^(٢).

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ خَلِيًّا قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ. قَالَ: «بَخٍ، لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَهُوَ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسْرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَلْقَى اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، أَوْ لَا أَدُلُّكَ عَلَى رَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟ أَمَّا رَأْسُ الْأَمْرِ فَالْإِسْلَامُ، فَمَنْ أَسْلَمَ سَلِمَ، وَأَمَّا عَمُودُهُ فَالصَّلَاةُ، وَأَمَّا ذُرْوَةُ سَنَامِهِ، فَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ لَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ وَقِيَامُ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ يُكْفِرُ

(١) أخرجه ابن جرير (٣/٣٠٣)، وابن أبي حاتم (١٧٣٧).

(٢) رواه البخاري (٤٤٩٣).

الْخَطَايَا»، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]. «أَوَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَمَلِكِ ذَلِكَ لَكَ كُفْلُهُ؟». قَالَ: فَأَقْبَلَ نَفْرًا، قَالَ: فَخَشِيتُ أَنْ يَشْغَلُوا عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَوْلُكَ: أَوَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَمَلِكِ ذَلِكَ لَكَ كُفْلُهُ؟ قَالَ: فَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ إِلَىٰ لِسَانِهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَنُؤَاخِذُ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: «ثَكَلْتِكَ أُمَّكَ، يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُوبُ النَّاسَ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»^(١).

١٥. إظهار المؤمنين الصادقين

إِنَّ الْفِتْنَ تَظْهَرُ الصَّادِقِينَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَلَوْلَا الْبَلَاءُ وَالْفِتْنُ لَمَا تَبَيَّنَ الْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ الدَّعِيِّ، فَمِنْ حِكْمِ الْإِبْتِلَاءِ وَالشَّدَائِدِ التَّمْحِيصُ؛ فَإِنَّهَا تَكْشِفُ حَقَائِقَ النَّاسِ وَتَمَيِّزُ الطَّيِّبَ مِنَ الْخَبِيثِ، وَالصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ، وَالْمُؤْمِنَ مِنَ الْمُنَافِقِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤٠].

(١) رواه أحمد (٢٢٠٦٨)، وهذا لفظه، والترمذي (٢٨٠٤)، وغيره، وقال: (حسنٌ صحيحٌ).

وقال سبحانه: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)﴾ [آل عمران] (١).

وقال عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦)﴾ [آل عمران].

وقال جلّ في علاه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)﴾ [التوبة].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (نهى الله تعالى المؤمنين أن يلاطفوا الكفار، فيتخذوهم وليجةً من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين، فيظهورون اللطف لهم، ويخالفونهم في الدين) (٢).

وعن عكرمة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (لَمَّا كَانَ قِتَالُ أُحُدٍ، وَأَصَابَ الْمُسْلِمِينَ مَا أَصَابَ؛ صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجَبَلَ، فَجَاءَ أَبُو سَفْيَانَ، فَقَالَ: يَا

(١) قال ابن القيم رحمه الله: (فمما دل عليه القرآن والسنة أن جنس الآلام لمصلحة بني آدم...؛ فأخبر أن ألم القتل والجراح في سبيله تمحيص، أي تطهير وتصفية للمؤمنين، وبشر الصابرين على ألم الجوع والخوف والفقير، وفقد الأحباب وغيرهم بصلاته عليهم ورحمته وهدايته)، وهذا مثل الآلام التي تصيب الإنسان في رأسه أو بدنه؛ ليعلمه بما فيه من العيب والنقص فيتطبب ويعالج قبل أن يستفحل الأمر، ولولا ذلك الألم لما شعر الشخص بما فيه من العطب، وبما في بده من الخراب، الذي حصل بسببه أو بتقصير منه، وبابتلاء من الله تعالى له.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/١٠٩٢).

عَبْرُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

محمد، يا محمد، ألا تخرج، ألا تخرج! الحربُ سجالٌ، يومٌ لنا، ويومٌ لكم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «أَجِيبُوهُ». فقالوا: «لا سِوَاءَ، لا سِوَاءَ، قَتَلْنَا فِي الْجَنَّةِ، وَقَتَلَكُم فِي النَّارِ». فقال أبو سفيان: لنا عَزَى، ولا عَزَى لكم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قولوا: اللهُ مولانا، ولا مولى لكم». فقال أبو سفيان: اعلُ، هُبْلُ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قولوا: اللهُ أعلى، وأجلُّ». فقال أبو سفيان: موعدكم وموعدنا بدرُ الصُّغْرَى. قال عكرمة: وفيهم أنزلت: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(١).

وَعَنْ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: (وَاللَّهِ، لَوْلَا الدُّوَلُ مَا أُوْذِيَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَكِنْ قَدْ يُدَالُ لِلْكَافِرِ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَيُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ بِالْكَافِرِ؛ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يَعْبِيهِ، وَيَعْلَمَ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ)^(٢).

وقال مقاتل بن سليمان رحمه الله: **{وليعلم الله}** يعني: وليرى إيمان **{الذين آمنوا}** منكم عند البلاء، فيتبين إيمانهم؛ أيشكوا في دينهم أم لا؟^(٣).

(١) أخرجه ابن جرير (٨٤/٦) وابن أبي حاتم (٤٢٢٥)، وأصل الحديث في صحيح البخاري بنحوه (٣٠٥١)،

(٤٠٣٢) من حديث البراء رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن جرير (٨٣/٦)، وابن المنذر (١/٣٩٧).

(٣) تفسير مقاتل (١/٣٠٣-٣٠٤).

عَبْرُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وعن محمد بن إسحاق رحمه الله قال: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة} وتصيبوا من ثوابي الكرامة، {ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم} يقول: ولم أختبركم بالشدة، وأبتليكم بالمكاره، حتى أعلم صدق ذلك منكم؛ الإيمان بي، والصبر على ما أصابكم فيي^(١).

١٦. إخراج ما في الصدور

وهذا قريب من الذي قبله، ولكنه أخص من جهة ما تكنه الصدور من المخبوءات؛ فتظهر عند البلاءات، وهو نوع تمحيص لما في القلوب، قال الله تعالى: ﴿هَاتِنْتُمْ أَوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعْضِكُمْ إِنَّا اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)﴾ إِنَّ تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾ [آل عمران].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)﴾ [آل عمران].

وقال عز وجل: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣)﴾ [الأنفال].

(١) أخرجه ابن جرير (٩٢/٦).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبِدُ فِي الْأَرْضِ». فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَا دَامَ يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ، حَتَّى سَقَطَ رِذَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَخَذَ رِذَاؤَهُ؛ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشِدَتَكَ رَبِّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ}؛ فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ^(١).

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَالَ: (بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَرِيَّةٍ، فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا؛ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَطَعَنْتُهُ؛ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَقَتَلْتُهُ؟». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ، قَالَ: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟»؛ فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ...^(٢).

(١) رواه مسلم (١٧٦٣).

(٢) رواه مسلم (١٥٨/٩٦).

وعن أبي الجوزاء رحمه الله قال: (والذي نفسي بيده، لأن تَمْتَلِيَ داري قِرْدَةً وخنزيرَ أحبُّ إليَّ من أن يجاورني أحدٌ من أهل الأهواء، لقد دخلوا في هذه الآية: {ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا})^(١).

وعن قتادة بن دعامه رحمه الله في قوله: {ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم}، قال: (فوالله، إن المؤمنَ ليُحْسِنُ إلى المنافق، ويأوي له، ويرحمه، ولو أن المنافق يقدر على ما يقدر عليه المؤمنُ لأبادَ خضراءه)^(٢).

١٧. اتخاذُ الشهداء ممن ماتوا في الفتنة مظلومين

إن من الحكمة في المحن أن من مات في المحنة والفتنة مظلوماً يكون شهيداً، والله تعالى يريد أن يتخذ من الأمة شهداء، قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)﴾ [آل عمران].

عن قتادة بن دعامه رحمه الله قال: (يُكْرِمُ اللهُ أوليائه بالشهادةِ بأيدي عدوهم، ثم تصيرُ حواصلُ الأمورِ وعواقبها لأهل طاعة الله)^(٣).

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٧٨/٣).

(٢) أخرجه ابن جرير (٧١٨/٥) بنحوه، وابن أبي حاتم (٧٤٥/٣) بلفظه.

(٣) أخرجه ابن جرير (٨٧/٦)، وابن أبي حاتم (٧٧٤/٣).

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)﴾ [آل عمران].

عن محمد بن إسحاق رحمه الله قال: (أي: إن الموت كائنٌ لا بد منه؛ فموتٌ في سبيل الله، أو قتلٌ خيرٌ - لو علموا، وأيقنوا - مما يجمعون من الدنيا التي لها يتأخرون عن الجهاد تَخَوُّفَ الموتِ والقتلِ، لِمَا جمعوا من زهيد الدنيا، زهادةً في الآخرة.

وقال: ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾، أي: ذلك كائنٌ، إذ إلى الله المرجع، فلا تغرَّكم الحياة الدنيا، ولا تغترُّوا بها، وليكن الجهادُ وما رَغِبَكم اللهُ فيه منه أثرٌ عندكم منها^(١). وقال عز وجل: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦)﴾ [محمد].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْصَّرُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمِ

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ ١٧٠).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُدِّبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»^(١).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ فَتَدْخُلُ الْجَنَّةَ، فَتَوَدُّ أَنَّهَا رَجَعَتْ إِلَيْكُمْ، وَلَهَا الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا إِلَّا الشَّهِيدَ، فَإِنَّهُ يَوَدُّ أَنَّهُ قُتِلَ كَذَا مَرَّةً لِمَا رَأَى مِنَ الثَّوَابِ»^(٢).

١٨ . دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ

هذا يتجلى في أمورٍ كثيرة من الفتن، فكم يدفعُ الله تعالى بالقتالِ وبغيره من الابتلاءات عن بعضٍ؛ فلولا قتال الكفارِ للمسلمين لما كان منهم رجوعٌ إلى الدين، ولولا قتال المسلمين للكفار لما ظهر المنافقون، ولولا وقوع الفتن بأهل الأهواء لما ظهر المتمسكون بالسنة، وهكذا، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ

(١) رواه البخاري (٦٥٤٣).

(٢) رواه الدارمي (٢٤٥٣) بإسناد صحيح، وأصله في صحيح البخاري (٢٨١٢) ومسلم (١٨٧٧) بنحوه.

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

لَهَدَّمَتْ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ [الحج].

عَنْ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجُلُ يَكُونُ حَامِيَةَ الْقَوْمِ، أَيَكُونُ سَهْمُهُمْ وَسَهْمُ غَيْرِهِ سَوَاءً؟ قَالَ: «تَكَلَّتْكَ أُمَّكَ يَا ابْنَ أُمَّ سَعْدِ، وَهَلْ تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ إِلَّا بِضَعْفَائِكُمْ»^(١).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (يُدْفَعُ اللَّهُ بِمَنْ يُصَلِّي عَمَّنْ لَا يُصَلِّي، وَبِمَنْ يَحُجُّ عَمَّنْ لَا يَحُجُّ، وَبِمَنْ يُزَكِّي عَمَّنْ لَا يُزَكِّي)^(٢)، وقال: (ولولا دفعُ الله بجنود المسلمين وسراياهم ومرابطيهم؛ لَغَلَبَ المشركون على الأرض، فقتلوا المؤمنين، وخرَّبوا المساجدَ والبلادَ)^(٣).

وقال مجاهد بن جبرٍ رحمه الله: (ولولا دِفَاعُ اللَّهِ بِالْبِرِّ عن الفاجر، ودفعه ببقية أخلاف الناس بعضهم عن بعض؛ لفسدت الأرض بهلاك أهلها)^(٤).

١٩. إظهارٌ من ينصرُ المستضعفين

(١) رواه أحمد (١٤٩٣)، بإسنادٍ حسن، وأصله في صحيح البخاري (٢٩١٣).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٨٠/٢)، والبيهقي في الشعب (٧٥٩٧).

(٣) تفسير الثعلبي (٢٢٤/٢)، والبغوي (٣٠٧/١).

(٤) أخرجه ابن جرير (٥١٥/٤)، وابن أبي حاتم (٤٨٠-٤٨١/٢).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

إذا وقعتِ الفتن تظهَرُ خباباً ما في الصدور، وحسن نوايا أهل الشهامة والجسارة والمروءة والغيور؛ فينتصرون للمستضعفين، ويعدون العدة لنصرة المظلومين، الذين اعتدى عليهم الكفار أو الفجار أو أهل الأهواء ممن لا عهدَ بينا وبينهم، فالمِحْنُ تكشف المسلمين الذين يقومون بالواجب في المصائب مع المسلمين، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال] (١).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (وكان حقاً على المؤمنين الذين آووا ونصروا إذا استنصروهم في الدين أن ينصروهم إن قوتلوا، إلا أن يستنصروا على قوم بينهم

(١) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (إن استنصروكم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم، لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق، أي: مهادنة إلى مدة؛ فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم). وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحُدَيْبِيَّةِ، وهذه المسائل من نصرة المستضعفين، ومكنة ذلك، وإمكانه، وكيفيته، وإظهاره أو أخفاؤه، إنما يتكلم بها أهل العلم الكبار، وعند العقلاء من الناس، لا عند عامة الناس. قال الإمام الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: (وخضتم في مسائل من هذا الباب، كالكلام في الموالاتة، والمعاداة، والمصالحة، والمكاتبات، وبذل الأموال والهدايا، ونحو ذلك، والحكم بغير ما أنزل الله، عند البوادي ونحوهم من الجفافة. لا يتكلم فيها إلا العلماء من ذوي الألباب، ومن رزق الفهم عن الله، وأوتي الحكمة وفصل الخطاب). (مجموع الرسائل ص ١١).

وبين النبي صلى الله عليه وسلم ميثاق، ولا نصر لهم عليهم، إلا على العدو الذي لا ميثاق لهم^(١).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رحمه الله: (وما لكم لا تفعلون؛ تقاتلون، وهؤلاء الضعفاء المساكين الذين يدعون الله بأن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها، فهم ليس لهم قوة؟! فما لكم لا تقاتلون حتى يُسَلِّمَ اللهُ هؤلاء ودينهم؟! قال: والقرية الظالم أهلها: مكة^(٢)).
وقال الله سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥)﴾ [النساء].

وقال عز وجل: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠].

عن المسور بن مخرمة رضي الله عنهما - في قصة صلح الحديبية وفيه - قال: (ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اكتب باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو». فقال: لو شهدت أنك رسول الله، لم أقاتلك، ولكن اكتب: هذا ما اصطاح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو، على وضع

(١) أخرجه ابن جرير (١١/٢٩٠-٢٩١).

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/٢٢٨).

الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ، يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّاسُ، وَيَكْفُفُ بَعْضُهُمْ عَنِ بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَصْحَابِهِ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلِيَّهِ رَدُّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ أَتَى قُرَيْشًا مِمَّنْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّ بَيْنَنَا عَيْبَةً مَكْفُوفَةٌ، وَإِنَّهُ لَا إِسْلَالَ وَلَا إِغْلَالَ.

وَكَانَ فِي شَرْطِهِمْ حِينَ كَتَبُوا الْكِتَابَ: أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ، فَتَوَاتَبَتْ خُرَاعَةٌ، فَقَالُوا: نَحْنُ مَعَ عَقْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَهْدِهِ، وَتَوَاتَبَتْ بَنُو بَكْرٍ، فَقَالُوا: نَحْنُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ. وَأَنَّكَ تَرْجِعُ عَنَّا عَامَنَا هَذَا، فَلَا تَدْخُلُ عَلَيْنَا مَكَّةَ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ عَامٌ قَابِلٍ، خَرَجْنَا عَنكَ، فَتَدْخُلُهَا بِأَصْحَابِكَ، وَأَقَمْتَ فِيهِمْ ثَلَاثًا مَعَكَ سِلَاحُ الرَّايِبِ لَا تَدْخُلُهَا بِغَيْرِ السُّيُوفِ فِي الْقُرْبِ. فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ إِذْ جَاءَهُ أَبُو جَنْدَلِ بْنِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْحَدِيدِ قَدْ انْفَلَتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجُوا وَهُمْ لَا يَشْكُونَ فِي الْفَتْحِ لِرُؤْيَا رَأَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَأَوْا مَا رَأَوْا مِنَ الصُّلْحِ وَالرُّجُوعِ، وَمَا تَحَمَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى نَفْسِهِ، دَخَلَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ حَتَّى كَادُوا أَنْ يَهْلِكُوا، فَلَمَّا رَأَى سُهَيْلُ أَبُو جَنْدَلٍ، قَامَ إِلَيْهِ، فَضْرَبَ وَجْهَهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ لَجَّتِ الْقَضِيَّةُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيكَ هَذَا. قَالَ: «صَدَقْتَ». فَقَامَ إِلَيْهِ، فَأَخَذَ بِتَلْبِيئِهِ، قَالَ: وَصَرَخَ أَبُو جَنْدَلٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، أَتَرُدُّونِي إِلَى أَهْلِ الشَّرْكِ، فَيَفْتِنُونِي فِي دِينِي. قَالَ: فَزَادَ النَّاسُ شَرًّا إِلَى مَا بِهِمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صَلَاحًا، فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَأَعْطَوْنَا عَلَيْهِ عَهْدًا، وَإِنَّا لَنْ نَعْدِرَ بِهِمْ»^(١).

وَعَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى»^(٢).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ، أَوْ قَالَ: لِجَارِهِ، مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٣).

٢٠. العمل بالأحكام المتعلقة بالفتنة

وهذا يعني العلم بالأحكام الشرعية، والحفظ لمسائل الدين المرعية، فيظهر العمل بالأحكام المتعلقة بالفتنة، ويظهر العلماء تيسير الله تعالى على البرية، فيوقع الله تعالى قدره وتقديره في المحن للعمل ببعض الأحكام المتعلقة بالفتن، وتجلي تيسير العمل في المحن، ومن جملة ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ

(١) رواه أحمد (١٨٩١٠) بهذا اللفظ، وهو في صحيح البخاري (٢٧٨٤، ٢٧٤٩) بنحوه.

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٦).

(٣) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، وهذا لفظه.

الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا
(١٠١) ﴿ [النساء].

وقال عز وجل: ﴿وَابْتُلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ
أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ
بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

عَنْ يَعْلَىٰ بْنِ أُمِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا}؛ فَقَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَقَالَ: عَجِبْتُ
مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللَّهُ
بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ»^(١).

وَعَنْ أُمِيَّةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: (أَنَّهُ سَأَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَرَأَيْتَ قَصَرَ الصَّلَاةِ فِي
السَّفَرِ، إِنَّا لَا نَجِدُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ، إِنَّمَا نَجِدُ ذِكْرَ صَلَاةِ الْخَوْفِ؟ فَقَالَ ابْنُ عَمَرَ: يَا ابْنَ أَخِي،
إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا نَعْلَمُ شَيْئًا، فَإِنَّمَا نَفْعَلُ كَمَا رَأَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُ، وَقَصَرَ الصَّلَاةَ فِي السَّفَرِ سُنَّةً سَنَّهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ)^(٢).

(١) رواه مسلم (٦٨٦).

(٢) رواه أحمد (١٩٩٢٦)، والحاكم (٣٤٦)، وقال: (رواه مدنيون ثقات)، ووافقه الذهبي.

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمَوَحِنِ

وَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: (عَنْ نَافِعٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ صَلَاةِ الْخَوْفِ، قَالَ: يَتَقَدَّمُ الْإِمَامُ، وَطَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُصَلِّي بِهَمُّ الْإِمَامِ رَكْعَةً، وَتَكُونُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ، وَلَمْ يُصَلُّوا، فَإِذَا صَلَّى الَّذِينَ مَعَهُ رَكْعَةً، اسْتَأْخَرُوا مَكَانَ الَّذِينَ لَمْ يُصَلُّوا، وَلَا يُسَلِّمُونَ، وَيَتَقَدَّمُ الَّذِينَ لَمْ يُصَلُّوا، فَيُصَلُّونَ مَعَهُ رَكْعَةً، ثُمَّ يَنْصَرِفُ الْإِمَامُ، وَقَدْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، فَتَقُومُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ، فَيُصَلُّونَ لَأَنْفُسِهِمْ رَكْعَةً، بَعْدَ أَنْ يَنْصَرِفَ الْإِمَامُ، فَيَكُونُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ قَدْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ هُوَ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ، صَلَّى رَجُلًا قِيَامًا عَلَى أَقْدَامِهِمْ، أَوْ رُكْبَانًا مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ، أَوْ غَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا.

قَالَ مَالِكٌ: قَالَ نَافِعٌ: لَا أَرَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذَكَرَ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

٢١. الاعتبار بالفتن

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَجْرَى الْأُمُورَ عَلَى سَنَنِ مَعِينَةٍ لِلْعِظَةِ وَالْإِعْتِبَارِ، وَيَغَيِّرُ هَذِهِ السُّنَنَ لِأَسْبَابِ الْعِظَةِ وَالْإِعْتِبَارِ؛ فَيُهْلِكُ أَقْوَامًا، وَيُبْقِي آخَرِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

(١) رواه مالك في الموطأ (٦٠١) رواية أبي مصعب الزهري.

قال مقاتل بن سليمان رحمه الله: (يعني: في خبرهم، يعني: نصر الرُّسُلِ، وهلاك قومهم، حين خبر الله عنهم في كتابه، في طسم الشعراء، وفي اقتربت الساعة، وفي سورة هود، وفي الأعراف، ماذا لقوا من الهلاك {عبرة لأولي الألباب})^(١).

وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وقال جل وعزّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾ [غافر].

قال عطاء رحمه الله: (لَمَّا دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة اشتدّ الضُّرُّ عليهم؛ لأنهم خرجوا بغير مالٍ، وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهودُ العداوةَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسَرَ قومٌ من الأغنياء النِّفاقَ؛ فأنزل الله تعالى تطيباً لقلوبهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ الآية)^(٢).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَجْرِبُ أَحَدَكُمْ بِالْبَلَاءِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ كَمَا يُجْرِبُ أَحَدَكُمْ ذَهَبَهُ بِالنَّارِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ كَالذَّهَبِ الْإِبْرِيذِ

(١) تفسير مقاتل (٢/ ٣٥٤).

(٢) تفسير الثعلبي (٢/ ١٣٥)، والبيهقي (١/ ٢٤٥).

فَذَلِكَ الَّذِي نَجَّاهُ اللَّهُ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ كَالذَّهَبِ دُونَ ذَلِكَ فَذَلِكَ الَّذِي يَشْكُ بَعْضُ الشُّكِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ كَالذَّهَبِ الْأَسْوَدِ فَذَلِكَ الَّذِي قَدْ افْتِنَ»^(١).

٢٢. العلم بلزوم الحكيم بما في الكتب المنزلة

إنَّ الله تعالى ما ذكرَ الكتب المنزلة إلا وذكر معها الحكمة، وهذا لوجود التلازم بينهما، فما من شريعة إلا ومعها الحكمة، وما من خبرٍ عن أمرٍ قدرني إلا ومعها العبرة، قال الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقال عز وجل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

عن قتادة بن دعامه رحمه الله قال: (الحكمة: السنة. قال: ففعل ذلك بهم؛ بعث فيهم رسولاً منهم، يعرفون اسمه ونسبه، يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط مستقيم)^(٢).

(١) رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢٧)، والطبراني في الكبير (٧٦٩٨)، والترغيب والترهيب للأصبهاني (٥٥٩)، والحاكم (٨٠٧٦)، وقال: (صحيح الإسناد)، ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني.

(٢) أخرجه ابن جرير (٥٧٤ / ٢)، وابن أبي حاتم (٢٣٦ / ١).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَقَالَ مِقَاتِلُ بْنُ سَلِيمَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثُمَّ قَالَ: {وَالْحِكْمَةُ}، يَعْنِي: الْمَوَاعِظُ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ)^(١).

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي قَوْلِهِ: {وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ} - قَالَ: (يُعَلِّمُهُمُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ لِيَعْرِفُوا الْخَيْرَ فَيَعْمَلُوا، وَالشَّرَّ فَيَتَّقُوهُ، وَيُخْبِرُكُمْ بِرِضَائِهِ عَنْكُمْ إِذَا أَطَعْتُمُوهُ؛ لِتَسْتَكْثِرُوا مِنْ طَاعَتِهِ، وَتَجْتَنِبُوا مَا سَخِطَ مِنْكُمْ مِنْ مَعْصِيَتِهِ)^(٢).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»^(٣).

٢٣. الاصطفاء طريقه الابتلاء

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْتِي بِالْمِحْنِ لِيَصْطَفِيَ الصَّابِرِينَ، وَيُقَدِّرُ الْفِتْنَ لِيَخْتَارَ الْمُتَّقِينَ، وَجَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْإِبْتِلَاءَ سُلْمًا لِلْمُصْطَفِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمْنَا وَتَلَّهِ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾ [الصافات].

(١) تفسير مقاتل (١/١٣٩)، والبغوي (١/١٥٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١/٢٣٧).

(٣) رواه البخاري (٧٢٨٤)، ومسلم (١٣٣٧).

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَا هُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ

بَلَاءٌ مُّبِينٌ (٣٣)﴾ [الدخان].

وقال عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ

يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ

عَظِيمٌ (٦)﴾ [إبراهيم: ٦].

وقال جل في علاه: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ

إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم فأتَمهن:

فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاجته نمرود في الله حين وقفه على ما وقفه عليه

من خطر الأمر الذي فيه خلافهم، وصبره على قذفهم إياه في النار ليحرقوه في الله، والهجرة

بعد ذلك من وطنه وبلاده حين أمره بالخروج عنهم، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها،

وما ابتلي به من ذبح ولده، فلما مضى على ذلك كله، وأخلصه البلاء، قال الله له: ﴿أَسْلَمَ قَالَ

أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ

تُقَاتِلُوا قَوْمًا نَعَالُهُمُ الشَّعْرُ، وَحَتَّىٰ تُقَاتِلُوا التُّرُكَ صِغَارَ الْأَعْيُنِ حُمْرَ الْوُجُوهِ ذُلْفَ الْأَنْوْفِ كَأَنَّ

وُجُوهُهُمْ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ. وَتَجِدُونَ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ أَشَدَّهُمْ كَرَاهِيَةً لِهَذَا الْأَمْرِ حَتَّىٰ يَقَعَ فِيهِ.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٢١٩/١).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَالنَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ. وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَى أَحَدِكُمْ زَمَانٌ، لَأَنَّ يِرَانِي أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ أَهْلِهِ وَمَالِهِ»^(١).

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «أَتْقَاهُمْ». قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَأَلُكَ. قَالَ: «فَيُؤَسَفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ». قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَأَلُكَ. قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَضُّهُوا»^(٢).

٢٤. التَّمْيِيزُ وَالتَّمَايِزُ

إِنَّ فِي الْفِتْنِ - لَا سِيَّمَا الَّتِي تَمُوجُ كَمُوجِ الْبَحْرِ - يَتَبَيَّنُ الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ مِنَ الْمُدَّعِينَ، وَيَتَمَيَّزُ الصَّابِرُونَ عَلَى الْجُزَعِ، وَيَتَمَايَزُ الْمُتَّقُونَ عَنِ الْفَاسِقِينَ، وَالْمُؤْمِنُونَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُنذِرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]^(٣).

(١) رواه البخاري (٣٥٨٣).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥٥)، ومسلم (٢٣٧٨).

(٣) قال ابن عطية رحمه الله في تفسيره (٤٢٩/٢) مبيِّناً المراد والمعنى في التَّمْيِيزِ: (ما كان الله ليدع المؤمنين مختلطين بالمنافقين، مشكلاً أمرهم، يجري المنافق مجرى المؤمن، ولكن ميِّز بعضهم من بعض، بما ظهر من هؤلاء وهؤلاء في أحد من الأفعال والأقوال...، حتى يميز المؤمنين من الكافرين بالإيمان والهجرة).

وقال عز وجل: ﴿لِيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنِ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨)﴾ [الأنفال] (١).

عن عبّاد بن منصور قال: (سألت الحسن البصري رحمه الله عن قوله: {حتى يميز الخبيث من الطيب}. قال: حتى نبتليهم، ويُعَلِّمُ الصَّادِقُ، وَيُعَلِّمُ الكاذِبُ، فأما المؤمن فصدّق، وأما الكافر فكذّب) (٢).

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَفَ فِي النَّارِ» (٣).

(١) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٧ / ٧٤): (يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة، كقوله: {ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَزْنَا بَيْنَهُمْ} [يونس: ٢٨]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِتُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ} [الروم: ١٤]...، ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا، بما يَظْهَرُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وتكون اللام مُعَلَّلَةٌ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِ مِنْ مَالٍ يَنْفِقُونَهُ فِي الصَّدَقَاتِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، أي: إنما أَقْدَرْنَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ: {لِيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}، أي: مَنْ يَطِيعُهُ بِقِتَالِ أَعْدَائِهِ الْكَافِرِينَ، أَوْ يَعْصِيهِ بِالنُّكُولِ عَنْ ذَلِكَ...).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٣ / ٨٢٥).

(٣) رواه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣ / ٦٧).

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «عِظَمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»^(١).

٢٥. التفاضل ورفع الدرجات

مع وقوع الفتن والبلايا تظهر التفاضل والخبايا؛ فبالبلاء ينال الصابرون الدرجات العلى، وفي الفتن تظهر المعادن النفيسة المكنونة، ويرتفع من تجدد الخير في قلبه ممن الشر طبعه، قال الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦)﴾ [النساء].

وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)﴾ [الأنعام].

وقال عز وجل مبينا أن موسى عليه السلام نال ما نال بعد الفتن والبلايا: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)﴾ [طه].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)﴾

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٣١) وهذا لفظه، والترمذي (٢٥٥٩)، وغيره، وقال: (حديث حسن غريب...).

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ
(٥٣) ﴿[الأنعام]﴾^(١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ أَوْ الْمُؤْمِنَةِ، فِي جَسَدِهِ، وَفِي مَالِهِ، وَفِي وَلَدِهِ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ»^(٢).
وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أَرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ نَفَجَرُ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ»^(٣).

(١) قال ابن القيم رحمه الله: (لا ريب أن هذا تعليل لفعله المذكور، وهو امتحان بعض خلقه ببعض، كما امتحن السادات والأشراف بالعبيد والضعفاء والموالي، فإذا نظر الشريف والسيد إلى العبد والضعيف والمسكين قد أسلم أنفَ وحمي أن يسلم معه أو بعده، ويقول: أهذا يسبقني إلى الخير والفلاح وأتخلف أنا؟! فلو كان ذلك خيرًا وسعادة ما سبقنا هؤلاء إليه. فهذا القول منهم هو بعض الحكم والغاية المطلوبة بهذا الامتحان؛ فإن هذا القول دالٌّ على إباء واستكبار، وترك الانقياد للحق بعد المعرفة التامة به) شفاء العليل (٢/١١٩).

(٢) رواه أحمد (٧٨٥٩)، والترمذي (٣٥٦٢)، وقال: (حسنٌ صحيح).

(٣) رواه البخاري (٢٨٠٧).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ». فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فَقَالَ: أَعِدْهَا عَلَيَّ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفَعَلَ، ثُمَّ قَالَ: «وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

٢٦. إظهار الصابرين

إِنَّ الْبَلَايَا تُثَبِّتُ أَهْلَ الْخُبَايَا، وَتُظْهِرُ صَبْرَهُمْ بَيْنَ الْبِرَايَا؛ فَيَتَجَلَّى كَوْنُهُمْ مِنَ الصَّابِرِينَ، وَيُظْهِرُ اللَّهُ بِالْفِتْنِ الْمَخْبُوءَ مِنْ أَحْوَالِ الصَّابِرِينَ، وَفِي الْآلَامِ وَالْمَصَائِبِ امْتِحَانٌ لَصَبْرِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾ [آل عمران].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمْرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ [البقرة].

(١) رواه مسلم (١٨٨٤).

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقُولُ: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أَجْرُنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلَفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجْرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»، قَالَتْ: فَلَمَّا تُوِّفِيَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ؛ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (أَخْبَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلَاءٍ، وَأَنَّهُ مُبْتَلِيهِمْ فِيهَا، وَأَمَرَهُم بِالصَّبْرِ وَبَشَّرَهُمْ، فَقَالَ: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ فَعَلَ هَكَذَا بِأَنْبِيَائِهِ وَصَفْوَتِهِ؛ لِتَطْيِيبِ أَنْفُسِهِمْ، فَقَالَ: {مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا}، وَأَخْبَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلَاءٍ، وَأَنَّهُ مُبْتَلِيهِمْ فِيهَا، وَأَمَرَهُم بِالصَّبْرِ، وَبَشَّرَهُمْ، فَقَالَ: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}.)^(٢).

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: (غَشِيَ عَلِيٌّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي وَجَعِهِ غَشِيَةً، ظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ فَاضَتْ بِهِ نَفْسُهُ فِيهَا، حَتَّى قَامُوا مِنْ عِنْدِهِ، وَجَلَّلُوهُ ثَوْبًا، وَخَرَجَتْ أُمُّ كَلْثُومُ بِنْتُ عَقْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا امْرَأَتُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ تَسْتَعِينُ بِمَا أَمَرَتْ بِهِ مِنَ الصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، فَلَبِثُوا سَاعَةً وَهُوَ فِي غَشِيَتِهِ، ثُمَّ أَفَاقَ.)^(٣).

(١) رواه مسلم (٩١٨) بهذا اللفظ.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧٠٤/٢)، والطبراني (١٣٠٢٧).

(٣) رواه الحاكم بنحوه (٣١٠٣)، وقال: (حديثٌ صحيح...)، والبيهقي في الدلائل (٤٣/٧).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمَةُ الْمُحَنِّ

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (الصَّبْرُ: اعْتِرَافُ الْعَبْدِ لِلَّهِ بِمَا أَصَابَ مِنْهُ، وَاحْتِسَابُهُ عِنْدَ اللَّهِ رَجَاءَ ثَوَابِهِ، وَقَدْ يَجْزَعُ الرَّجُلُ وَهُوَ مُتَجَلِّدٌ لَا يُرَى مِنْهُ إِلَّا الصَّبْرُ)^(١).
 وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: (الصَّبْرُ فِي بَابَيْنِ؛
 الصَّبْرُ لِلَّهِ بِمَا أَحَبَّ، وَإِنْ ثَقُلَ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَبْدَانِ.
 وَالصَّبْرُ لِلَّهِ عَمَّا كَرِهَ، وَإِنْ نَازَعَتْ إِلَيْهِ الْأَهْوَاءُ.
 فَمَنْ كَانَ هَكَذَا؛ فَهُوَ مِنَ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ يُسَلَّمُ عَلَيْهِمْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ)^(٢).

٢٧. تَأْهِيلُ الصَّابِرِينَ لِنَيْلِ الْحِكْمَةِ فِي الدِّينِ

إِنَّ الْمُحَنِّ تَثَبَّتْ أَهْلُ الصَّبْرِ عَلَى حِكْمَتِهِمْ، وَإِنَّ الْبَلَاءَ وَالْفِتْنَ تَكْسِبُ الْإِنْسَانَ خِبْرَةً،
 وَتُظْهِرُ مَا عِنْدَهُ مِنْ خِبْرَةٍ وَحِكْمَةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي هَرَبَ مِنْ فِتْنَةِ
 فِرْعَوْنَ: ﴿فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ
 (٢١)﴾ [الشعراء].

وكذلك الراسخون في العلم لا سيما عند ورود الشبهات، والفتن المهلكات، دعاؤهم
 لرب البريات، أن يهب لهم الحكمة والرحمة فهو سبحانه المنان بالهبات، قال سبحانه:

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٠٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٠٥).

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران ٧-٨].

وهذا دعاء أمر الله المؤمنين أن يدعوا به، ويسألوا الله أن لا يميل قلوبهم عن الحق والحكمة التي يعلمونها بأحداثٍ وأفعالٍ فعلوها، وبفتنٍ يعيشون فيها وبينها^(١).

وبيّن سبحانه الأعطيات لإبراهيم عليه السلام بعد البلاءات، وكيف كان مع الابتلاءات تلك الحكمة والثبات على الأمور المحكمات، حتى خصّه وذريته بالنبوات، قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)﴾ [مريم].

عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استيقظ من الليل قال: «لا إله إلا أنت، سبحانك، اللهم، إني أستغفرُك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم، زدني علماً، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة؛ إنك أنت الوهاب»^(٢).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (اشْتَكَيْ سَلْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَادَهُ سَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَرَأَهُ يُبْكِي فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا يُبْكِيكَ يَا أَخِي؟ أَلَيْسَ قَدْ صَحَبْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَلَيْسَ؟ أَلَيْسَ؟ قَالَ سَلْمَانُ: مَا أَبْكِي وَاحِدَةً مِنْ اثْنَتَيْنِ، مَا أَبْكِي صَبًّا لِلدُّنْيَا، وَلَا كَرَاهِيَةً لِلْآخِرَةِ، وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَاهَدَ إِلَيْنَا عَهْدًا، فَمَا أُرَانِي إِلَّا قَدْ

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢١٢/٦) تحقيق أحمد شاکر.

(٢) رواه أبو داود (٥٠٦١)، والنسائي في الكبرى (١٠٦٣٥)، والحاكم (٢٠٠٤)، وقال: (صحيح الإسناد)، وقال

الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار (١١٦/١): (حديث حسن).

عِبْرُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

تَعَدَّيْتُ. قَالَ: وَمَا عَهْدَ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَهْدَ إِلَيْنَا أَنَّهُ يَكْفِي أَحَدَكُمْ مِثْلُ زَادِ الرَّكِيبِ، وَلَا أُرَانِي إِلَّا قَدْ تَعَدَّيْتُ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا سَعْدُ، فَاتَّقِ اللَّهَ عِنْدَ حُكْمِكَ إِذَا حَكَمْتَ، وَعِنْدَ قَسْمِكَ إِذَا قَسَمْتَ، وَعِنْدَ هَمِّكَ إِذَا هَمَمْتَ. قَالَ ثَابِتٌ: فَبَلَّغْنِي أَنَّهُ مَا تَرَكَ إِلَّا بِضْعَةَ وَعِشْرِينَ دِرْهَمًا، مِنْ نُفَيْقَةٍ كَانَتْ عِنْدَهُ^(١).

وقال مقاتل بن سليمان رحمه الله في تفسير الحكمة: (العلم، والفهم)^(٢).

٢٨. توريث الصابرين العلم

إنَّ البلياءَ والفتنَ تجلِّي العلمِ المتعلق بالمِحْنِ، وتكون سببًا في زيادة طلاب العلم لطلب العلم، والبحث عنه، والتفتيش عنه، وتحصيله، وذلك من تثبيت العلم، ومن توريث الصابرين العلم، قال الله تعالى بعد صبر يوسف عليه السلام على فتنة إخوته، وإلقائه في الجبِّ، وبيعه عبدًا في السوق: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢) [يوسف].

وقال سبحانه عن لوطٍ عليه السلام بعد صبره على قومه: ﴿وَلَوْ طَأَّ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء].

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٤)، بإسنادٍ حسنٍ، ورواه ابن حبان في صحيحه (٧٠٦).

(٢) تفسير مقاتل (٣/٢٦٠)، والبغوي (٦/١١٠).

عِبْرُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال موسى عليه السلام الذي فرّ من فتنة فرعون: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤)﴾ [القصص].

عن مجاهد بن جبر رحمه الله - في قوله: {آتيناه حكماً وعلماً} - قال: (هو الفقه، والعلم، والعقل، قبل النبوة^(١)).

وقال الضحاك بن مزاحم رحمه الله في قوله: {وكذلك نجزي المحسنين}: (الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عليه السلام)^(٢).

وقال مقاتل بن سليمان رحمه الله: (وهكذا نجزي المخلصين بالفهم والعلم)^(٣).
وقال القاسم بن عبد الرحمن الشامي: (من أعطي قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وجسداً صابراً؛ فقد أوتي في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووُقي عذاب النار)^(٤).

٢٩. تجلية المقسطين

في الفتن يظهر من يُقدّم مشاعره على من يُقدّم مبادئه، ومن يُقدّم العدل على من يقدم الجور، ومن يُقدّم الاستقامة وحسن المُقام على الجور والانتقام، قال الله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا

(١) أخرجه ابن جرير (٦٧/١٣)، وابن أبي حاتم (٢١١٩/٧).

(٢) تفسير الثعلبي (٢٠٧/٥)، والبغوي (٢٢٧/٤).

(٣) تفسير مقاتل (٣٢٧/٢).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٨٧).

الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿[الحجرات: ٩].

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رحمه الله قال: (هذا أمرٌ، أمر الله به الولاية؛ كهيئة ما تكون العصبية بين الناس، وأمرهم أن يصلحوا بينهما، فإن أبوا قاتل الفئة الباغية، حتى ترجع إلى أمر الله، فإذا رجعوا أصلحوا بينهما، وأخبروهم أن المؤمنين إخوة، {فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ}، قال: ولا يُقاتل الفئة الباغية إلا الولاية)^(١).

وقال عز وجل مبيناً أهمية العدل وخطورة الميل إلى النفس والولد وذوي القربى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [السراء].

وقال سبحانه مبيناً ضرورة العدل ولو مع ظلم العدو، ولزوم القسط ولو مع بغض العدو: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

وقال جل في علاه مبيناً أهمية الحكم بالقسط ولو على الأعداء: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرَضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿[المائدة: ٤٢].

(١) أخرجه ابن جرير (٣٥٨/٢١).

وقال شعيبٌ عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٥) ﴿هود﴾.

وقد أمر الله تعالى بالعدل بين الناسِ عموماً ولم يخص أحداً؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٥٨) ﴿النساء﴾.

ومدح الله تعالى أهل العدل لاستحقاقهم المديح؛ فقال سبحانه: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١) ﴿الأعراف﴾.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عِزَّ وَجَلَّ، وَكَلَّمَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَوْ»^(١).

٣٠. إظهارُ المفلحين

يظهر أهل الفلاح في الفتن، ويجليهم الله تعالى في المحن، وتكشفُ حُسنَ ما فعلوا من الإصلاح، وتظهرُ أعمالهم بالفلاح وبالصلاح، المفلحون الذين يلتزمون أوامر الدين، ولو كان فيها حياتهم، أو أموالهم، ولا يخافون لومة لائم؛ يقاتلون الأعداء، وهم على الاستعداد دوماً وأبداً للأعداء، قال الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

(١) رواه مسلم (١٨٢٧).

وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ

يَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)﴾ [المائدة].

عن كعب الأحبار رحمه الله قال: (ما من شيء أحب إلى الله من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الله الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه قد أمر الناس بالذكر عند القتال)^(١).

وقال جل في علاه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ازْكُرُوا مَا كُنْتُمْ تُحِبُّونَ وَاللَّيْسَ بِكُفْرَانِكُمْ إِذَا قُلْتُمْ لِلرَّبِّ ادْعُوا مَا كُنْتُمْ تُدْعُونَ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَأَسْمِعُوا أَسْمَاعَكُمْ أَصْوَاتَكُم بِغَيْرِ عِلْمٍ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٧)﴾ [الحج: ٧٧-٧٨].

وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧)﴾ [القصص].

عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَيْهِ عَمَلُهُ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يُنْمَىٰ لَهُ عَمَلُهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَأْمَنُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ»، وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ»^(٢).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١١ / ٥).

(٢) رواه أحمد (٢٣٩٥١، ٢٣٩٥٢)، والترمذي (١٧١٥)، وقال: (حسن صحيح)، وقال البخاري: (من جاهد

نفسه في طاعة الله) كتاب الرقاق من صحيحه الباب (٣٦).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وعن قتادة بن دعامة رحمه الله قال في تفسير المفلحين: (قومٌ اسْتَحَقُّوا الْهُدَى وَالْفَلَاحَ، فَأَحَقَّهُ اللَّهُ لَهُمْ) ^(١).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (هُوَ مُجَاهِدَةُ النَّفْسِ وَالْهَوَى، وَهُوَ الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ، وَهُوَ حَقُّ الْجِهَادِ) ^(٢).

٣١. تُجَلِّيْ أَهْمِيَّةَ كَفِّ أَدْوِي الْأَعْدَاءِ وَالْكَافِرِينَ

إِنَّ كَفَّ الْأَعْدَاءِ وَالْمُتْرَبِصِينَ بِالْمُسْلِمِينَ، وَكَفَّ أَذَاهُمْ وَشَرَّهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، أَمْرٌ مَفْرُوضٌ شَرْعًا، وَهُوَ مِنَ الضَّرُورَاتِ الْعَقْلِيَّةِ فَطْرَةً، وَالْوَاجِبُ عَلَى الْوَلَاةِ الْعَمَلُ عَلَى ذَلِكَ، وَفَقَّ مَا يَتَيْسِرُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَبِمَا هُوَ مَتَّاحٌ مُمْكِنٌ وَاقِعًا.

وَتَجَلَّى أَهْمِيَّةَ كَفِّ أَدْوِي الْأَعْدَاءِ وَالْكَافِرِينَ فِي الْفِتَنِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَعْثُونَ بِالْخِفَاءِ فِي الضَّرْرِ وَالْإِضْرَارِ بِالْمُسْلِمِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْتُمْ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣)﴾ [التوبة: ١٢-١٣].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٠٠١/٩).

(٢) تفسير الثعلبي (٣٥/٧)، وتفسير البغوي (٤٠٢/٥).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عن محمد بن إسحاق رحمه الله قال: (أمر الله رسوله بجهاد أهل الشرك؛ ممن نقض من أهل العهد، ومن كان من أهل العهد العام، بعد الأربعة الأشهر التي ضرب لهم أجلاً، إلا أن يعدو فيها عادٍ منهم فيقتل بعدائه)^(١).

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠-١١١].

عن زيد بن وهب الجهنبي رحمه الله: (أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي رضي الله عنه، الذين ساروا إلى الخوارج؛ فقال علي رضي الله عنه: أيها الناس إنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يُخْرِجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَيَّ قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَيَّ صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَيَّ صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ».

لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَكَلُّوا عَنِ الْعَمَلِ، وَآيَةٌ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ عَضُدٌ وَلَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ، عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلْمَةِ الثَّدي عَلَيْهِ شَعْرَاتٌ بِيضٌ؛ فَتَذْهَبُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ، وَتَتْرَكُونَ هَؤُلَاءِ

(١) أخرجه ابن جرير (١١/٣٦٨).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

يَخْلِفُونَكُمْ فِي ذَرَارِيِّكُمْ، وَأَمْوَالِكُمْ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ، وَأَغَارُوا فِي سَرْحِ النَّاسِ، فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ.

قال: مَرَرْنَا عَلَى قَنْطَرَةٍ فَلَمَّا التَّقِينَا، وَعَلَى الْخَوَارِجِ يَوْمَئِذٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهَبِ الرَّاسِبِيِّ، فَقَالَ: لَهُمْ أَلْقُوا الرِّمَاحَ، وَسَلُّوا سُيُوفَكُمْ مِنْ جُنُونِهَا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُنَاشِدُوكُمْ كَمَا نَاشَدُوكُمْ يَوْمَ حَرُورَاءَ؛ فَارْجِعُوا، فَوَحَّشُوا بِرِمَاحِهِمْ، وَسَلُّوا السُّيُوفَ، وَشَجَرَهُمُ النَّاسُ بِرِمَاحِهِمْ.

قال: وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَمَا أُصِيبَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ إِلَّا رَجُلَانِ؛ فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: التَّمَسُّوا فِيهِمُ الْمُخَدَجَ، فَالتَّمَسُّوهُ؛ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَقَامَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِنَفْسِهِ حَتَّى أَتَى نَاسًا قَدْ قُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، قَالَ: أَخْرُوهُمْ، فَوَجَدُوهُ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ، فَكَبَّرَ، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ اللَّهُ، وَبَلَغَ رَسُولُهُ. فَقَامَ إِلَيْهِ عِيْدَةُ السَّلْمَانِيِّ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَسَمِعْتَ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

فَقَالَ: إِي، وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، حَتَّى اسْتَحْلَفَهُ ثَلَاثًا، وَهُوَ يَحْلِفُ لَهُ^(١).

٣٢. كَشَفَ أَهْمِيَةَ الْحَذَرِ

إن أخذ الحيطة ضرورة فطرية، ولكننا نجد في الواقع لا سيما مع استدامة الأمن التساهل في بعض الأمور والاحتياطات الممكنة الواقعية، وهنا تأتي أهمية البلايا والفتن لتكشف

(١) رواه مسلم (١٠٦٦).

أهمية الحذر والاستعداد للأمر المستقبلية، والعمل على ذلك علماً وعملاً، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقال سبحانه أمراً نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ حذرَه من المفتونين: ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾ [المائدة].

وقال سبحانه مبيناً أهمية أن يكون في المؤمنين نوع غلظة تخيف العدو: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِّمُوا أَنْ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)﴾ [التوبة].

وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١)﴾ [النساء].

وقال جل في علاه: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].
 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَزَلَ بَيْنَ ضَجْنَانَ وَعُسْفَانَ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّ لَهُؤُلَاءِ صَلَاةً هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَبْكَارِهِمْ وَهِيَ الْعَصْرُ؛ فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ، فَمِيلُوا عَلَيْهِمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً. وَإِنَّ جَبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَهُ أَنْ يَقْسِمَ أَصْحَابَهُ شَطْرَيْنِ؛ فَيَصَلِّيَ بَعْضُهُمْ، وَتَقُومَ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى وَرَاءَهُمْ، وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ، ثُمَّ تَأْتِي الْأُخْرَى فَيَصَلُّونَ مَعَهُ، وَيَأْخُذُ هَؤُلَاءِ

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

حَذَرَهُمْ وَأَسْلِحَتْهُمْ؛ لِتَكُونَ لَهُمْ رَكْعَةً، رَكْعَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَكْعَتَانِ^(١).

وقال أبو عمرو والأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز التنوخي رحمهما الله: (يُرَابِطُ كُلُّ قَوْمٍ مَا يَلِيهِمْ مِنْ مَسَالِحِهِمْ، وَحِصُونِهِمْ، وَيَتَأَوَّلَانِ قَوْلَ اللَّهِ: {قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ})^(٢).
 وَقَالَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ يُوصِي، وَقَدْ جَمَعَ بَنِيهِ وَهُمْ اثْنَانِ وَثَلَاثُونَ ذَكَرًا، فَقَالَ: (يَا بَنِيَّ، إِذَا أَنَا مِتُّ فَسُودُوا أَكْبَرَكُمْ تَخَلَّفُوا آبَاءَكُمْ، وَلَا تُسُودُوا أَصْغَرَكُمْ فَيُزِرِي بِكُمْ ذَاكَ عِنْدَ أَكْفَائِكُمْ، وَلَا تُقِيمُوا عَلَيَّ نَائِحَةً، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنِ النَّيَاحَةِ، وَعَلَيْكُمْ بِإِصْلَاحِ الْمَالِ؛ فَإِنَّهُ مَنْبَهُةٌ لِلْكَرِيمِ، وَيُسْتَعْنَى بِهِ عَنِ اللَّئِيمِ، وَلَا تُعْطُوا رِقَابَ الْإِبِلِ فِي غَيْرِ حَقِّهَا، وَلَا تَمْنَعُوهَا مِنْ حَقِّهَا، وَإِيَّاكُمْ وَكُلَّ عِرْقٍ سُوءٍ، فَمَهْمَا يَسْرَكُم يَوْمًا فَمَا يَسُوءُكُمْ أَكْثَرُ، وَاحْذَرُوا أَبْنَاءَ أَعْدَائِكُمْ، فَإِنَّهُمْ لَكُمْ أَعْدَاءٌ عَلَى مَنْهَاجِ آبَائِهِمْ...)^(٣).

٣٣. تَجْلِيَةُ أَهْلِ الْإِسْتِقَامَةِ

يَتَجَلَّى فِي الْفِتْنِ مَنْ هُوَ مُسْتَقِيمٌ حَقًّا مِمَّنْ تَزَيَّى بِزَيِّهِمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ وَاقِعًا؛ فَتَرَى أَهْلَ الْإِسْتِقَامَةِ حَقًّا لَا يَتْرُحُّونَ عَنِ مَبَادِيِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَا يَتْرُكُونَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى وَوَصَايَاهُ

(١) رواه أحمد (١٠٧٦٥)، والترمذي (٣٢٨٤)، وقال: (حسنٌ صحيحٌ غريبٌ...).

(٢) أخرجه ابن جرير (٨٧/١٢).

(٣) رواه الحاكم (٦٧١٠).

العظيمة، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)﴾ إلى قوله: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾ [فصلت].

وقال جل في علاه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)﴾ [الأحقاف].

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ - مُتَفَرِّقَةٌ - عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] (١).

وَعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْتَقِيمُوا، وَلَنْ تُخْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَنْ يُحَافِظَ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا الْمُؤْمِنُ» (٢).

(١) رواه أحمد (٤١٤٢)، بإسنادٍ حسن، وابن حبان في صحيحه (٣٦٦٥)، والحاكم (٢٩٧٥)، وقال: (صحيح

الإسناد...).

(٢) رواه أحمد (٢٢٣٧٨)، والحاكم (٤٥٤)، وقال: (صحيح...).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (يَا مَعْشَرَ الْقُرَاءِ اسْتَقِيمُوا، فَقَدْ سُبِقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا)^(١).

٣٤. تجلّي من يتمسك بحكم الله

إِنَّ فِي الْفِتَنِ يَتَجَلَّى مَنْ يَكُونُ نَصِيًّا مَمَّنْ يَكُونُ عَقْلَانِيًّا، أَوْ ذَوْقِيًّا، يَنْكَشِفُ مَنْ يَقْدُمُ عَقْلَهُ أَوْ ذَوْقَهُ أَوْ مَشَاعِرَهُ، أَوْ الرَّأْيَ الْغَالِبَ، وَفِي الْفِتَنِ يَظْهَرُ الْفَاسِقُونَ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ مَصَالِحَهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفِئْدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرِضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)﴾ [الأنعام].

(١) رواه البخاري (٧٢٧٨).

وقال عزّ من قائل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَيَّ نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»^(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (قَالَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ صُورِيَا، وَشَأْسُ بْنُ قَيْسٍ: أَذْهَبُوا بِنَا إِلَى مُحَمَّدٍ، لَعَلَّنَا نَفْتِنَهُ عَنْ دِينِهِ. فَأَتَوْهُ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّا أَحْبَابُ يَهُودٍ وَأَشْرَافِهِمْ وَسَادَاتِهِمْ، وَإِنَّا إِنْ اتَّبَعْنَاكَ اتَّبَعْنَا يَهُودَ، وَلَمْ يُخَالَفُونَا، وَإِنَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا خِصْمَةٌ فَتُحَاكِمُهُمْ إِلَيْكَ، فَتَقْضِي لَنَا عَلَيْهِمْ، وَنُؤْمِنُ لَكَ وَنُصَدِّقُكَ. فَأَبَى ذَلِكَ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ: {وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ} إِلَى قَوْلِهِ: {لِقَوْمٍ يوقنون}»^(٢).

وَعَنْ قَتَادَةَ بْنِ دَعَامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (لَمَّا أَنْبَأَكُمُ اللَّهُ بِصَنِيعِ أَهْلِ الْكِتَابِ قَبْلَكُمْ بِأَعْمَالِهِمْ أَعْمَالَ السُّوءِ، وَبِحُكْمِهِمْ بغيرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَوَعَظَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ مَوْعِظَةً بليغة شافية، وَلِيَعْلَمَ مَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْحُكْمِ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْعِبَادِ وَبَيْنَ اللَّهِ شَيْءٌ يُعْطِيهِمْ بِهِ خَيْرًا، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ بِهِ سُوءًا، إِلَّا بِطَاعَتِهِ وَالْعَمَلَ بِمَا يُرْضِيهِ، فَلَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ

(١) رواه البخاري (٦٩٧٣)، ومسلم (١٧١٣).

(٢) أخرجه ابن جرير (٥٠٢/٨)، وابن أبي حاتم (١١٥٤/٤).

صلى الله عليه وسلم والمؤمنين صنيع أهل الكتاب، وحذرهم؛ قال: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه} يقول: للكتب التي قد خلت قبله: {ومهيمننا عليه}، قال: شاهداً على الكتب التي قد خلت قبله^(١).

٣٥. ظُهُورُ الشُّجْعَانِ

إنَّ الشُّجَاعَةَ خَصْلَةٌ حَمِيدَةٌ يَدْعِيهَا كُلُّ أَحَدٍ فِي غَيْرِ وَقْتِهِ، وَيُنْكَشِفُ زَيْفَ مَدْعِيهِ فِي حِينِهِ، وَيُظْهِرُ الْمُتَّصِفُ بِهِ حَقِيقَةَ فِي سَاحَاتِ الْوَعْيِ، وَتَتَجَلَّى الشُّجَاعَةُ إِذَا وَقَعَتِ الْمُحَنُّ وَظَهَرَتِ الْفِتْنُ وَالْبَلَايَا، وَهَذِهِ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ الْمُوصُوفُ بِكَمَالَاتِ الْبَشَرِيَّةِ، وَالْمُتَّصِفُ بِالشُّجَاعَةِ الْعَظِيمَةِ، أَنْ يِقَاتِلَ وَلَوْ بِنَفْسِهِ؛ فَقَالَ: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤].

وقال سبحانه مبيناً من ادعى استعداداً للقتال عند عدم وقته وخلوه في وقته: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٢٤٦) [البقرة].

(١) عزاه السيوطي في الدر المشهور (٢/ ٩٥) إلى عبد بن حميد، وأبي الشيخ في كتابيهما.

وَحَثَّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ، وَالْقِتَالَ وَمَقَاتَلَةَ مَنْ يِقَاتِلُهُمْ مِنَ الْأَنَامِ؛ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)﴾ [النساء].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةِ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا رَهَقُوهُ، قَالَ: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ؟».

فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ؛ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ رَهَقُوهُ أَيْضًا، فَقَالَ: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ؟»

فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِصَاحِبِيهِ: «مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا»^(١).

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - لِلنَّاسِ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبْرُهُمْ، فَقَالَ: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ، وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»^(٢).

(١) رواه مسلم (١٧٨٩).

(٢) رواه البخاري (٤٢٤٦)، وعني بسيفِ الله خالد بن الوليد رضي الله عنه، وذلك في غزوة مؤتة سنة (٥٨هـ).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمُحَنِّ

وَعَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ رَأَى غُلَامًا يَتَبَخَّرُ فِي مَشِيَّتِهِ - فَقَالَ: (إِنَّ الْبَخْرَةَ مِشِيَّةٌ تُكْرَهُ إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ^(١).

٣٦. تَجَلِّيَةٌ مَنْ يَنْصُرُ اللَّهَ تَعَالَى وَيَنْصُرُ دِينَهُ

كُلُّ أَحَدٍ يَدْعِي أَنَّهُ يَنْصُرُ اللَّهَ تَعَالَى، وَيَنْصُرُ دِينَهُ، وَلَكِنَّ الْبَلَايَا وَالْفِتْنَ، وَالرِّزَايَا وَالْمُحَنِّ، هِيَ الَّتِي تَجَلِّي حَقِيقَةَ مَنْ يَنْصُرُ اللَّهَ تَعَالَى، وَيَنْصُرُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَنْصُرُ سُنَّةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَجَلِّي مَنْ يَخْذُلُ الدِّينَ، وَيُظْهِرُ الْبِدْعَ وَالْأَهْوَاءَ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد] ^(٢).

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي

(١) الدر المنثور (٦/٢٧٢)، وعزاه إلى الأمدى في شرح ديوان الأعشى.

(٢) قال ابن عطية رحمه الله بعد نقله قول مجاهدٍ وابن زيدٍ ومقاتل الذي فيه الدليل على أن الكتاب للعمل والحديد للنصرة: (ويترتب معنى الآية: فَإِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَرْسَلَ رَسُولًا، وَأَنْزَلَ كِتَابًا، وَعَدَلًا مَشْرُوعًا، وَسَلَاحًا، يُحَارَبُ بِهِ مَنْ عَانَدَ، وَلَمْ يَهْتَدِ بِهَدْيِ اللَّهِ، فَلَمْ يَبْقَ عُدْرٌ، وَفِي الْآيَةِ - عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ حُضُّ عَلَى الْقِتَالِ، وَتَرْغِيبٌ فِيهِ. ثُمَّ قَالَ:

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ يَقْوَى هَذَا التَّأْوِيلِ (تفسير ابن عطية (٨/٢٣٨-٢٣٩).

الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴿﴾ [المتحنة] (١).

وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصَلَّ أَعْمَالُهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩)﴾ [محمد].

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُعْطِيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا؛ وَإِيْمًا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتُهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيْتُ الشَّفَاعَةَ» (٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى الْعَدُوِّ، وَأُوتِيَتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ، وَبَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيْتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوَضِعَتْ فِي يَدِي» (٣).

(١) قال ابن القيم رحمه الله: (إن الله سبحانه لما نهى في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفار أولياء، وقطع المودة بينهم وبينهم؛ توهم بعضهم أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة، فبين الله سبحانه أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها، وأنه لم يثنه عن ذلك، بل هو من الإحسان الذي يحببه ويرضاه، وكتبه على كل شيء، وإنما المنهي عنه تولي الكفار، والإلقاء إليهم بالمودة) أحكام أهل الذمة (٤١٦/١).

(٢) رواه البخاري (٤٤٢)، ومسلم (٥٢١).

(٣) رواه البخاري (٢٩٩٣)، ومسلم (٥٢٣).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَقَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْطِيَ مَنْ سَأَلَهُ، وَأَنْ يَنْصُرَ مَنْ نَصَرَهُ) (١).
 وَقَالَ مِقَاتِلُ بْنُ سَلِيمَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَوْلُهُ: {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ} حَتَّى يُوحِدَ، {يَنْصُرْكُمْ} عَلَى
 عَدُوِّكُمْ، {وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} فَلَا تَزُولُ عِنْدَ الْلِقَاءِ عَنِ التَّوْحِيدِ...؛ فَمَا تَرَكَ التَّوْحِيدَ قَوْمٌ إِلَّا
 سَقَطُوا مِنْ عَيْنِ اللَّهِ، وَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ السَّبْيَ) (٢).

٣٧. إظهار من يموت في سبيل الله

إِنَّ الْفِتْنَ تَكْشِفُ مَنْ يَمُوتُ فِي الْفِتْنَةِ نَصْرَةً لِمُلْكٍ أَوْ طَائِفَةٍ أَوْ مَنْ يَمُوتُ فِي سَبِيلِ
 الطَّوَاغِيتِ مِنَ الْكُفَّارِ وَأَهْلِ الْبِدْعِ، وَتُظْهِرُ مَنْ يِقَاتِلُ حَمِيَّةً لِلْإِسْلَامِ، وَحَمِيَّةً لِلْمُسْلِمِينَ،
 وَحَمِيَّةً لِأَرْضِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ، وَتَكُونُ تِلْكَ الْفِتْنُ سَبَبًا لظُهُورِهِمْ، وَمَوْتِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى،
 وَدُخُولِهِمُ الْجَنَاتِ، سِوَاءَ مَنْ مَاتَ فِي الْفِتْنَةِ، أَوْ مَنْ نَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْإِبْتِلَاءِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
 ﴿(٢) وَيَنْصُرْكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا
 مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ
 وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ
 عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥)﴾ [الفتح].

(١) أخرجه ابن جرير (١٩٣/٢١).

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان (٥٤/٤).

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّهَا نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرْجِعُهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَأَصْحَابُهُ مُخَالِطُونَ الْحُزْنَ، وَالْكَآبَةَ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنَاسِكِهِمْ، وَنَحَرُوا الْهَدْيَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} إِلَى قَوْلِهِ: {صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ أَنْزَلْتُ عَلَى آيَتَانِ، هُمَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا». قَالَ: فَلَمَّا تَلَاهُمَا، قَالَ رَجُلٌ: هَنِيئًا مَرِيئًا، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكَ مَا يَفْعَلُ بِكَ، فَمَا يَفْعَلُ بِنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْآيَةَ الَّتِي بَعْدَهَا {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} حَتَّى خَتَمَ الْآيَةَ^(١).

وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: (إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَلَمَّا صَدَّقَ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ زَادَهُمُ الصَّلَاةَ، فَلَمَّا صَدَّقُوا بِهَا زَادَهُمُ الصِّيَامَ، فَلَمَّا صَدَّقُوا بِهِ زَادَهُمُ الزَّكَاةَ، فَلَمَّا صَدَّقُوا بِهَا زَادَهُمُ الْحَجَّ، فَلَمَّا صَدَّقُوا بِهِ زَادَهُمُ الْجِهَادَ، ثُمَّ أَكْمَلَ لَهُمْ دِينَهُمْ، فَقَالَ: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]؛ فَأَوْثَقَ إِيمَانَ أَهْلِ السَّمَاءِ وَأَهْلِ الْأَرْضِ، وَأَصْدَقَهُ وَأَكْمَلَهُ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(٢)).

(١) رواه أحمد (١٢٣٧٤)، والترمذي (٣٥٤٦)، وقال: (حسنٌ صحيح)، وهو في البخاري (٤١٥٩) مختصراً.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢١/٢٤٥-٢٤٦)، والطبراني (١٣٠٢٨).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَقَالَ مِقَاتِلُ بْنُ سَلِيمَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: **{وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ}** يَقُولُ: وَلَكِي يَنْصُرَكَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ عَلَى عَدُوِّكَ، **{نَصْرًا عَزِيزًا}** يَعْنِي: مَنِيعًا فَلَا تَذَلُّ، فَهَذَا الَّذِي قَضَى اللَّهُ لَهُ: الْمَغْفِرَةَ، وَالْغَنِيمَةَ، وَالْإِسْلَامَ، وَالنَّصْرَ^(١).

٣٨. المُواخِذَةُ بِبَعْضِ الْعُقُوبَاتِ

هَذِهِ سَنَةٌ كَوْنِيَّةٌ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَأْذَنُ بِالْفِتَنِ، وَلَا يُوَقِّعُ آثَارَهَا إِلَّا بِسَبَبِ ذُنُوبِ الْعِبَادِ، وَمَا كَسَبَتْهُ أَيْدِيهِمْ بِسَبَبِ الْجَهْلِ وَالْعِنَادِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)}** **{[الرُّوم] (٣٠)}**.
وَقَالَ سُبْحَانَهُ: **{وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠)}** **{[الشُّورَى: ٣٠]}**.

وَقَالَ جَلَّ فِي عِلَاهِ: **{وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُوهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤)}** وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ **{[الْأَنْفَال] (٣٥)}**.
وَقَالَ جَلَّ وَعَزَّ: **{أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)}** **{[الْأَعْرَاف] (١٠٠)}**.

(١) تفسير مقاتل بن سليمان (٤/٦٦-٦٧).

(٢) قال ابن القيم رحمه الله: (الظاهر - والله أعلم - أن الفساد المراد به: الذنوب وموجباتها، ويدل عليه قوله تعالى: **{ليذيقهم بعض الذي عملوا}**؛ فهذا حالنا، وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة) التفسير القيم ص (٤٣٣).

وقال عز وجل: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ (١١)﴾ [التغابن].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (هي المصيبات تُصيب الرجل، فيعلم أنها من عند

الله، فيُسَلِّمُ لها ويرضى) (١).

وقال علقمة رحمه الله: (هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ) (٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ

كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ؛ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَأَتْهَا، فَإِذَا اعْتَدَلَتْ تَكَفَّأَ بِالْبَلَاءِ، وَالْفَاجِرُ

كَالْأَرْزَةِ صَمَاءً مُعْتَدِلَةً، حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ» (٣).

وَعَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: أَنَا اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، خَالِقُ

الْخَلْقِ، أَنَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ، دِيَّانُ الدِّينِ، وَرَبُّ الْمَلُوكِ، قُلُوبُهُمْ بِيَدِي، فَلَا تَشَاغَلُوا بِذِكْرِهِمْ

عَنْ ذِكْرِي وَدَعَائِي، وَالتَّوْبَةُ إِلَيَّ، حَتَّى أَعْطِفَهُمْ عَلَيْكُمْ بِالرَّحْمَةِ، فَأَجْعَلَهُمْ رَحْمَةً، وَإِلَّا

جَعَلْتُهُمْ نِقْمَةً. ثم قال: ارجعوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَمُوتُوا مِنْ قَرِيبٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: {ظَهَرَ

الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون}.

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه (٨/١٠٤)، والحميدي في الجمع بين الصحيحين (٢٩٤).

(٢) نسخة وكيع عن الأعمش (٥)، السنن الكبرى للبيهقي (٧١٣٣).

(٣) رواه البخاري (٥٦٤٣).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قال: ثم قال: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله} [الحديد: ١٦]؛ فهل ترون الله تعالى يعاتب إلا المؤمنين^(١).

٣٩. تكفير الذنوب والخطايا

لا تقع بلية ولا فتنة إلا وكان سبباً لتكفير ذنوب بعض الناس؛ كما هي سببٌ لحبوط عمل آخرين، والله سبحانه يفعل ما يشاء، وهو العليم الحكيم، قال الله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)﴾ [الزمر]^(٢).
وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْ مُصِيبَةٍ يُصَابُ بِهَا الْمُسْلِمُ إِلَّا كُفِّرَ بِهَا عَنْهُ حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا»^(٣).

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٠٥٥)، حلية الأولياء لأبي نعيم (٢٠/٦).

(٢) عامة المفسرين على أن الآية دليل على عظمة التوحيد، وأن الله تعالى يتجاوز بسببه الذنوب العظام، وتكون المجازات على أحسن الأعمال وأتقنها؛ فإن كانت له صلاة تامة وأخرى ناقصة كان المعبر التامة، وإن كانت له تلاوة تامة وأخرى ناقصة كان المعبر الأحسن والأتم، وهكذا سائر الأعمال، قال مقاتل بن سليمان رحمه الله في تفسيره (٣/٦٧٧-٦٧٨): ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا مِنْ الْمَسَاوِي، يعني: يمحوها بالتوحيد، {وَيَجْزِيَهُمْ} بالتوحيد {أَجْرَهُمْ} يعني: جزاءهم {بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} يقول: {وَيَجْزِيَهُمْ} بالمحاسن، ولا يجزيهم بالمساوي.﴾

(٣) رواه البخاري (٥٦٣٩)، ومسلم (٢٥٧٢).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذَى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»^(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا، قَالَ: «أَجَلٌ، إِنِّي أُوْعَكُ كَمَا يُوْعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ». قُلْتُ: ذَلِكَ أَنْ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «أَجَلٌ؛ ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذَى؛ شُوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا نَحَطُّ الشَّجَرَةَ وَرَقَهَا»^(٢).

٤٠. التضرع إلى الله، وتجليه ضعف الإنسان

إنَّ البَلايا والفتن سببٌ لرجوع الناس إلى الله تعالى، وإظهارهم التضرع بعد الدَّعة، وإظهارهم الحاجة بعد نوع استغناء ظَهَرَ مِنْ أَكْثَرِهِمْ، فالفتن والبلايا تُظهِرُ وتجلي ضعف الإنسان، وافتقاره الذاتي إلى ربِّه، ولا فلاح له إلا بافتقاره إلى ربه، وانطراحه بين يديه؛ ففي المِحْنِ إظهار العبودية، واللجوء إليه سبحانه، والاستعاذة من الفتن، والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى بطلب النِّجاة؛ فلولا البلاء ما تضرعوا، فليس تضرع المريض كتضرع الصحيح، ولا تضرع المعافى كتضرع المُبتلى، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ

(١) رواه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣).

(٢) رواه البخاري (٥٦٦٠)، ومسلم (٢٥٧١).

قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذِ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بِغَتَّةٍ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) ﴿[الأنعام].

وقال جل في علاه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بِغَتَّةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)﴾ [الأعراف].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُوفِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦)﴾ [المؤمنون].

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعْاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ»، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بِغَتَّةٍ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} [الأنعام: ٤٤] (١).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «تَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ. قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ. فَقَالَ: تَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. قَالَ: تَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا

(١) رواه أحمد (١٧٣١١)، وهو حديثٌ حسنٌ له شواهد.

ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ. قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتْنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ. قَالَ: تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ. قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ»^(١).

وقال قتادة رحمه الله: (بَغَتِ الْقَوْمَ أَمْرُ اللَّهِ، مَا أَخَذَ اللَّهُ قَوْمًا قَطُّ إِلَّا عِنْدَ سَلْوَتِهِمْ، وَغَرَّتِهِمْ، وَنَعِيمِهِمْ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِاللَّهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْتَرُّ بِاللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ)^(٢).

وَعَنْ أَبِي حَازِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُتَابِعُ نِعْمَهُ عَلَيْكَ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرِهِ. قَالَ: وَكُلُّ نِعْمَةٍ لَا تُقَرَّبُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهِيَ بَلِيَّةٌ)^(٣).

وَعَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (إِذَا أَصَابَ النَّاسَ مِنْ قِبَلِ السُّلْطَانِ بَلَاءٌ؛ فَإِنَّمَا هِيَ نِقْمَةٌ، فَلَا تَسْتَقْبِلُوا نِقْمَةَ اللَّهِ بِالْحَمِيَّةِ، وَلَكِنْ اسْتَقْبِلُوهَا بِالِاسْتِغْفَارِ، وَتَضَرَّعُوا إِلَى اللَّهِ، وَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ: {وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِلرَّبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ})^(٤).

٤١ . التَّعْلِيمُ الْعَمَلِيُّ لِلصَّبْرِ لِلَّهِ الْعَلِيِّ

إنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمَدَارِسِ الْقَوِيَّةِ إِنَّمَا تَبْتَلِي طُلَّامَهَا بِالتَّمَارِينِ وَالْعَمَلِيَّاتِ الصَّعْبَةِ وَالشَّاقَّةِ؛ لِتَتَأَكَّدَ مِنْ جَاهِزِيَّةِ طُلَّامِهَا، وَتَحْمِلُهُمْ عَلَى الْمَشَاقِّ؛ وَهَذِهِ الْفِتْنُ وَالْبَلَايَا هِيَ شِدَّةٌ وَصَعُوبَةٌ

(١) رواه مسلم (٢٨٦٧).

(٢) الدر المثلثون (٣/ ٢٧٠)، وعزاه إلى عبد بن حميد، وأبي الشيخ.

(٣) الشكر لابن أبي الدنيا (٢٠)، وهو بلفظه في الدر المثلثون (٣/ ٢٧٠)، ونسبه إلى البيهقي في الشعب.

(٤) أخرجه ابن جرير (١٧/ ٩٣-٩٤).

مَدْرَسَةِ الْآخِرَةِ؛ فَهِيَ تُعَلِّمُ الصَّبْرَ؛ فَتَأْخُذُ بِمَجَامِعِ النَّفْسِ عَلَى الرِّضَا بِالْقَضَاءِ، وَتَجْعَلُهَا مُهَيَّئَةً لِتَحْمَلِ الْأَعْيَاءَ؛ بَلْ وَرَبَّمَا تَوْصِلُهُ إِلَى الشُّكْرِ عَلَى الْبَلَاءِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)﴾ [النحل].

وقال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف]: [٣٥].

وقال عز وجل عن نبيه أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص]: [٤٤].

عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ خَلَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي كَمَا اسْتَعْمَلْتُمْ فَلَانًا؟ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثْرَةَ فَاصِبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ»^(١).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْأَنْصَارِ: «فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ أَثْرَةَ شَدِيدَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ؛ فَإِنِّي عَلَى الْحَوْضِ، قَالُوا: سَنَصْبِرُ»^(٢).

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٨٤٥).

(٢) رواه البخاري (٤٣١٣)، ومسلم (١٠٥٩)، وفي البخاري: قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فَلَمَّ يَصْبِرُوا) يعني الذين

خرجوا من أبناء الأنصار في وقعة الحرة.

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَقَالَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا بَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ، وَإِنَّمَا مَثَلُ عَمَلٍ أَحَدِكُمْ كَمَثَلِ الْوِعَاءِ، إِذَا طَابَ أَغْلَاهُ، طَابَ أَسْفَلُهُ، وَإِذَا خَبِثَ أَغْلَاهُ، خَبِثَ أَسْفَلُهُ»^(١).

٤٢. ظهور فضل الصبر وتجلية فضائله

قد يتعلم المرء فضل الصبر، وفضائل الصابرين، ولكن لا يظهر له ذلك عملياً إلى عند وقوع الفتن، فحينئذ وبالصور العملية تظهر فضائل الصبر، وتتجلى فضائل الصابرين، وأنهم دائماً وأبداً على وتيرة واحدة؛ في البلاء والفتن صابرين، وفي النعماء والرخاء شاكرين، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن أَذَقْنَا نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿[هود: ١٠-١١].

وقال يعقوب عليه السلام الذي افتتن بفقد ولده، وأصابه ما أصابه جرأ غيبته، ثم فقده ثانيه وقرين أخيه، وفقده أكبر أولاده، ومع هذا كله كان سلوانه الصبر لعلمه بحسن مآلات الصبر، ومحاسن مآلات الصابرين؛ فقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

(١) رواه أحمد (١٦٨٥٣)، وابن ماجه (٤٠٣٥) بإسناد حسن.

عَنْ صُهَيْبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

وَعَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (الصبر الجميل: الذي ليس فيه شكوى إلا إلى الله)^(٢).

وَعَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (إِنَّ يَعْقُوبَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ، فَكَانَ يَرْفَعُهُمَا بِخِرْقَةٍ، فَقِيلَ لَهُ: مَا هَذَا؟ قَالَ: طَوَّلَ الزَّمَانَ، وَكَثُرَتِ الْأَحْزَانُ. فَأَوْحَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَيْهِ: يَا يَعْقُوبُ، أَتَشْكُونِي! قَالَ: يَا رَبِّ، خَطِيئَةٌ أَخْطَأْتُهَا، فَاغْفِرْهَا لِي)^(٣).

وَعَنْ سَفْيَانَ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (عَنْ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ قَالَ: ثَلَاثَةٌ مِنَ الصَّبْرِ: أَلَّا تُحَدِّثَ بِمَا يُوْجِعُكَ، وَلَا بِمَصِيبَتِكَ، وَلَا تُزَكِّيَ نَفْسَكَ)^(٤).

وَعَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ جُرَيْجٍ رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي قَوْلِهِ: {وَلئن أذقنا الإنسان منا رحمة} الآية - قَالَ: (يَا ابْنَ آدَمَ، إِذَا كَانَتْ بِكَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ - مِنَ السَّعَةِ وَالْأَمْنِ وَالْعَافِيَةِ - فَكْفُورٌ لِمَا بِكَ

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢١١٢/٧).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٠١٥)، والزهد لأبي حاتم (٥)، وابن جرير (٤٢/١٣).

(٤) المرض والكفارات لابن أبي الدنيا (٢٢٣)، وحلية الأولياء (٣٨٩/٦)، والشعب (١٠٠٦٢).

عِبْرُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

منها، وإذا نُزعت منك نبتغي بك قَدْعَكَ وَعَقْلَكَ فيئوس من رَوْحِ اللَّهِ، قَنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ. كذلك أمر المنافق والكافر^(١).

وَعَنْ الْفَضِيلِ بْنِ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ}، قَالَ: {صَبَرُوا} فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَالزَّلَازِلِ، {وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ} فِي الرَّخَاءِ وَالسَّرَّاءِ^(٢).

٤٣. التَّربِيَّةُ الْعَمَلِيَّةُ لِلتَّوَكُّلِ عَلَى رَبِّ الْبَرِيَّةِ^(٣)

إِنَّ الْمَدَارِسَ الْقَوِيَّةَ لِلجُنُودِ الْمَمْتَازِينَ تُدَرِّبُ طُلَّابَهَا تَدْرِيْبَاتٍ شَاقَّةً، مَعَ مَا لَهُمْ مِنَ الْاِمْتِيَازَاتِ، حَتَّى يَكُونُوا عَلَى أَحْقِيَّةِ بَتْلِكِ الْاِمْتِيَازَاتِ؛ وَلَا رَيْبَ أَنَّ الطُّلَّابَ يَجِدُونَ آلاَمًا وَمُشَاقَّةً؛ بَلْ وَرَبْمَا أَنَّ بَعْضَهُمْ لَعَدَمُ التَّحْمَلِ يَضْطُرُّ لِلخُرُوجِ مِنْ تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ الْحَرْبِيَّةِ أَوْ غَيْرِ الْحَرْبِيَّةِ لَعَدَمِ قَدْرَتِهِ، وَلِضَعْفِ وَعَجْزِهِ عَنْ تَحْمَلِ تِلْكَ الْمَشَاقِ التَّدْرِيْبِيَّةِ، لَا سِيْمَا وَهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْاِمْتِيَازَاتِ فِي نَظَرِهِ؛ فَكَذَلِكَ الْمِحْنُ هِيَ مَنْحٌ لِمَنْ لَا يَسْتَغْنِي عَنِ رَبِّهِ، وَهِيَ اِمْتِيَازَاتٌ لِلْمَمْتَازِينَ الَّذِينَ يَرُونَ فِي تِلْكَ الْبَلَايَا وَالْفِتَنِ مَجَالًا لِلتَّعَلُّمِ وَتَدْرِيْبِ النَّفْسِ عَلَى

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (١٢/٣٤٠).

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ الصَّبْرِ (٣٠).

(٣) قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَدْ دَلَّتِ الدَّلَائِلُ الْكَثِيرَةُ مِنَ النُّصُوصِ وَالْاِعْتِبَارِ، عَلَى أَنَّ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ، أَوْ قَدَّرَهُ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَاتِ، فَإِنَّمَا هُوَ لِتَهْذِيبِ النَّفُوسِ وَتَنْصِيفِهَا مِنَ الشَّرِّ الَّذِي فِيهَا، وَلِحَصُولِ مَصْلَحَةِ الزَّجْرِ وَالْاِعْتَاظِ، وَقَطْمًا لِلنَّفُوسِ عَنِ الْمَعَاوِدَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمِ الَّتِي إِذَا حَصَلَتْ خَلَا التَّعْذِيبُ عَنِ الْحِكْمَةِ وَالْمَصْلَحَةِ فَيَبْطُلُ؛ فَإِنَّهُ تَعْذِيبٌ عَلِيمٌ حَكِيمٌ رَحِيمٌ لَا يَعْذِّبُ سُدًى، وَلَا لِنَفْعِ يَعُودِ إِلَيْهِ بِالتَّعْذِيبِ، بَلْ كَلَا الْأَمْرَيْنِ مُحَالٌ، فَإِذَا لَا يَقَعُ التَّعْذِيبُ إِلَّا لِمَصْلَحَةِ الْمُعْذَّبِ أَوْ مَصْلَحَةِ غَيْرِهِ) شَفَاءُ الْعَلِيلِ (٢/٢٩٥).

التَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فالنفوس البشرية عندما ترى ما لا قوة ولا وسع لها تتخلى عن نفسها وعن حولها وقوتها، ولا تتعلق بالأسباب كتعلقها حال العافية؛ فيحصل لهم التوكل الحقيقي، فإنهم إذا رأوا الزلازل علموا أنه لا أحد يمهّد الأرض ويُقرّها غيرُ الله تعالى؛ فيلجؤون إليه، ويتوكلون عليه، وهكذا في كل بلاء وفتنة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴿ [آل عمران: ١٣٩-١٤٠].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩)﴾ [العنكبوت].

وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال].

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِنَّهُ سَمِعَ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»^(١).

وقال قتادة رحمه الله في قوله {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلىون إن كنتم مؤمنين} قال: (يُعْزِي أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا تَسْمَعُونَ، وَيَحْتُثُّهُمْ عَلَى قِتَالِ عَدُوِّهِمْ، وَيُنْهَاهُمْ عَنِ الْعَجْزِ وَالْوَهْنِ فِي طَلَبِ عَدُوِّهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)^(٢).

٤٤ . تكشف المتوكلين على الله تعالى

(١) رواه أحمد (٢٠٥)، والترمذي (٢٣٤٤)، وقال: (حسنٌ صحيح).

(٢) أخرجه ابن جرير (٧٨/٦).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

إذا كانت الفتن تُعلمُ التوكلَ، والمِحْنُ تدرِّبُ على التوكل - كما في الذي قبله - فإنها أيضًا تكشفُ المتدربين على التوكل على رب العالمين، وتجلبهم للناسِ أجمعين؛ فإنَّ الفتن إذا أقبلت برياحها وصواعقها ورعدها وبرقها، تجدُ المتوكلين ثابتين غير خائفين، وتراهم بثبات نفوسهم ظاهرين، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) ﴾ [المائدة].^(١)

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) ﴾ [يونس].

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ: فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخْضَنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَىٰ بَرْكِ الْعِمَادِ لَفَعَلْنَا. قَالَ: فَندَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ، فَانْطَلَقُوا حَتَّىٰ نَزَلُوا بَدْرًا، وَوَرَدَتْ عَلَيْهِمُ رَوَايَا قُرَيْشٍ...)^(٢)

(١) قال ابن عطية رحمه الله في تفسيره (٣/١٣٩): (أي: - يخافون - الله، وأنعم عليهما بالإيمان الصحيح، وربط

الجأش، والثبوت في الحق).

(٢) رواه مسلم (١٧٧٩).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (شَهِدْتُ مِنَ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَشْهَدًا لِأَنَّ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَدْعُو عَلَيَّ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: {أَذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا}، وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ، وَخَلْفَكَ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْرَقَ وَجْهَهُ، وَسَرَّهُ، يَعْنِي: قَوْلَهُ^(١)).

٤٥. تجلّي أهل الإيثار

إِنَّ الْمِحْنَ تَكْشِفُ خَبَايَا النُّفُوسِ، وَتُظْهِرُ مَكْنُونَاتِ مَا فِي صُدُورِ النَّاسِ؛ فَيَتَجَلَّى أَهْلُ الْإِنْفَاقِ حَقًّا، وَمَنْ يَتَصَدَّقُونَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ حَقِيقَةً، وَتَكْشِفُ مَنْ يَتَصَدَّقُ فِي السَّرَّاءِ دُونَ الضَّرَّاءِ، وَتَجَلَّى أَهْلُ الْبَخْلِ وَالْإِدْخَارِ لَا سِيَّمَا فِي الْبَلَاءِ، وَتَجَلَّى الْفِتْنِ مَنْ يَنْفِقُ لِلَّهِ، وَمَنْ يَنْفِقُ لِغَيْرِ اللَّهِ؛ فَإِذَا ضَاقَتْ بِهِ الدُّنْيَا أَمْسَكَ وَقْتَرَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾ [التغابن].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفْ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٧-١٨].

(١) رواه البخاري (٣٩٤٣).

وقال سبحانه بعد بيان سببِ بعضِ المصيبات: ﴿لِكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)﴾ [الحديد].

وقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنِيَّ لَهُ لِيْسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنِيَّ لَهُ لِعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١)﴾ [الليل].

وقال جلّ في علاه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)﴾ [الأنفال].
وقال جلّ وعزّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ: اسْتَقْرَضْتُ عَبْدِي فَلَمْ يُقْرِضْنِي، وَيَشْتُمْنِي عَبْدِي وَهُوَ لَا يَدْرِي، يَقُولُ: وَاَدَّهْرَاهُ، وَاَدَّهْرَاهُ، وَأَنَا الدَّهْرُ»، ثم تلا أبو هريرة رضي الله عنه قول الله عز وجل: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾^(١).

(١) رواه أحمد (٧٩٨٨)، وابن خزيمة في صحيحه (٢٤٧٩)، بدون قول أبي هريرة رضي الله عنه، والحاكم

(٣٨٥٨) بتمامه، وقال: (حديث صحيح...).

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ بَاتَ بِهِ ضَيْفٌ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ إِلَّا قُوْتُهُ وَقُوْتُ صَبِيَانِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: نَوْمِي الصَّبِيَّةَ وَأَطْفِي السَّرَاحَ، وَقَرِّبِي لِلضَّيْفِ مَا عِنْدَكَ، قَالَ: فَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} (١).

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي آخِرِ كَلَامِهِ: (أَوْصِي الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوْلِيَيْنَ أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَيَحْفَظَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ، وَأَوْصِيهِ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا {الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ} أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَأَنْ يُعْفَى عَنْ مُسِيئِهِمْ، وَأَوْصِيهِ بِأَهْلِ الْأَنْصَارِ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُمْ رِدْءُ الْإِسْلَامِ، وَجِبَاةُ الْمَالِ، وَغَيْظُ الْعَدُوِّ، وَالْأَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُمْ إِلَّا فَضْلُهُمْ عَنْ رِضَاهُمْ، وَأَوْصِيهِ بِالْأَعْرَابِ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُمْ أَصْلُ الْعَرَبِ، وَمَادَّةُ الْإِسْلَامِ... (٢).

٤٦. تجلّي أهل صلة الرحم

في الفتن تنقطع أوصل المحبين الذين أحبوا على الدنيا، وتزداد صلة الذي يصلون لوجه الله تعالى، وليس للمكافأة؛ فيتجلّى الواصلون أرحامهم، والمتواصلون ذويهم، وإن اشتدت بهم الفتن، وزادت عليهم المحن؛ فهم أهل وصل وشهامة، وأهل صلة ورعاية، قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)﴾ [محمد].

(١) رواه مسلم (٢٠٥٤).

(٢) رواه البخاري (٣٦٩٠).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ١٩-٢١].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الرَّحِمَ شِجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ اللَّهُ: مَنْ وَصَلَكَ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكَ قَطَعْتُهُ»^(١).

وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسَيِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(٢).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (مَنْ اتَّقَى رَبَّهُ، وَوَصَلَ رَحِمَهُ؛ نُسِيَ لَهُ فِي عُمُرِهِ، وَثَرَا مَالُهُ، وَأَحَبَّهُ أَهْلُهُ)^(٣).

وعن قتادة بن دعامة رحمه الله - في قوله تعالى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ} الآية - قال: (كيف رأيتم القوم حين تولّوا عن كتاب الله؟ ألم يسفكوا الدّم الحرام، وقطّعوا الأرحام، وعصوا الرّحمن؟)^(٤).

٤٧. عودة للناس إلى الشكر

(١) رواه البخاري (٥٩٩٢).

(٢) رواه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢٥٥٧).

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٢٧٠٣٢).

(٤) أخرجه ابن جرير (٢١٣/٢١-٢١٤)، ويعني بقوله هذا ما حصل من قتال الخوارج للمسلمين.

إِنَّ مِنَ الْعِبَرِ فِي الْفِتَنِ، وَالْحِكْمِ فِي الْمِحْنِ، رَجُوعَ النَّاسِ إِلَى الشُّكْرِ، وَإِلَى نَيْلِ مَرْتَبَةِ الشَّاكِرِينَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْفِتْنَ تَجَلِّي الْعَافِيَةِ، وَالْمِحْنُ تَوْرَثُ فِي الْقَلْبِ عَظْمَةَ الْمَنْحِ، وَالِاسْتِشْعَارَ بِالرِّخَاءِ وَالسَّرَاءِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿فَأَخَذْتُمْ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢٣) [آل عمران].

وقال جل في علاه: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (١٤٧) [النساء].

وقال سبحانه خطورة الكفران عموماً: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧) [إبراهيم].

قَالَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا كُنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَاكْنِزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا،

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ»^(١).

وعن مكحول الشامي رحمه الله قال: (أربعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كُنَّ لَهُ، وثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كُنَّ عَلَيْهِ، فأما الأربعُ اللَّاتِي لَهُ؛ الشكر، والإيمان، والدعاء، والاستغفار...، وأما الثلاثُ اللَّاتِي عَلَيْهِ؛ فالمكر، والبغي، والنكث...) ^(٢).

وقال قتادة ومقاتل رحمهما الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَدِّبُ شَاكِرًا، وَلَا مُؤْمِنًا) ^(٣).
وقال قتادة رحمه الله: (حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْطِيَ مَنْ سَأَلَهُ، وَيَزِيدَ مَنْ شَكَرَهُ، وَاللَّهُ مَنْعٌ يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ، فَاشْكُرُوا لِلَّهِ نِعْمَهُ) ^(٤).

وقال أيضًا - في قوله: {يُمْتَعِكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا} -: (فَأَنْتُمْ فِي ذَلِكَ الْمَتَاعِ، فَخُذُوهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ مُنْعِمٌ، يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ، وَأَهْلُ الشُّكْرِ فِي مَزِيدٍ مِنَ اللَّهِ، وَذَلِكَ قِضَاؤُهُ الَّذِي قِضِيَ) ^(٥).

٤٨ . سَبَبٌ لِلِاسْتِغْفَارِ

(١) رواه ابن أبي شيبة (٣١٣٣٠)، وأحمد (١٧١١٤)، وهو حسنٌ بطرقه، وقد رواه ابن حبان في صحيحه (٩٣٥).

(٢) حلية الأولياء (١٨٢/٥).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٠٠/٤)، وتفسير مقاتل (٤١٧/١).

(٤) الدر المنثور (٧/٥)، وعزاه لابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه ابن جرير (٣١٣/١٢)، وابن أبي حاتم (١٩٩٧/٦).

كَمْ مِنْ مُقْصِرٍ قَدْ أَزْدَادَ اسْتِغْفَارًا بِسَبَبِ وَقُوعِ الْفِتَنِ، وَكَمْ مِنْ مُذْنِبٍ قَدْ أَزْدَادَ اسْتِغْفَارًا بِسَبَبِ وَقُوعِ الْمِحْنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود]

وقال هودٌ عليه السلام لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (٥٢) [هود].

وقال صالحٌ عليه السلام لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].
وقال شعيبٌ عليه السلام لقومه: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (٩٠) [هود].

وقال نوحٌ عليه السلام لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ (١٢) [نوح].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لَا أَبْرُحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. قَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي، وَجَلَالِي، لَا أَزَالُ أَعْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»^(١).

(١) رواه أحمد (١١٢٣٧)، والحاكم (٧٨٦٥)، وقال: (صحيح الإسناد...).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (مَنْ لَزِمَ الْأَسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضَيْقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) ^(١).

وَعَنْ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (إِيَّاكُمْ وَالْإِصْرَارَ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ الْمُصِرُّونَ الْمَاضُونَ قُدِّمًا، لَا يَنْهَاهُمْ مَخَافَةُ اللَّهِ عَنْ حَرَامٍ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَتُوبُونَ مِنْ ذَنْبٍ أَصَابُوهُ، حَتَّى أَتَاهُمُ الْمَوْتُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ) ^(٢).

٤٩. سَبَبٌ لِلْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

إِنَّ الْفِتْنَ تَجْعَلُ النُّفُوسَ تَتُوبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَتَتُوبُ، وَتَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِحَسَنِ نِيَّةٍ، وَسَلَامَةِ طُوبَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ دَاوُدُ إِذْ أَنْتَاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] ^(٣).

(١) رواه أبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٩)، والطبراني في الدعاء (١٧٧٤)، وغيرهم، والحاكم (٧٩١٠) وقال: (صحيح الإسناد)، وتعقبه الحافظ الذهبي، وقال: (الحكم فيه جهالة) يعني (الحكم بن مصعب)، فهو مجهول كما قال الحافظ ابن حجر، وكلهم أوردوه مرفوعاً، ولا يصح، ولم أورد في هذا الكتاب حديثاً ضعيفاً إلا هذا، وأوردته لاستشهاد أبي داود به، وتصحيح الحاكم، والمتأمل في الآثار، يدرك أنه من قول ابن عباس رضي الله عنهما؛ فيكون أثراً، وأخطأ الحكم في رفعه، والله تعالى أعلم.

(٢) أخرجه ابن جرير (٦٦/٦).

(٣) أصل الإنابة بينها وبين التوبة فرق؛ فإن التوبة مطلق الرجوع، وأما الإنابة فرجوع مع وكالة، وكأن المنيب يدافع عن الدين بعد رجوعه، ويحامي عنه بعد أوبته، ولهذا كان متضمناً معنى التوبة وزيادة، قال الفيومي في المصباح المنير (٦٢٩/٢): (نَابَهُ أَمْرٌ يُنَوِّبُهُ تَوْبَةً أَصَابَهُ، وَأَنْتَابَتِ السَّبَاعُ الْمَنْهَلُ رَجَعَتْ إِلَيْهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى. وَالنَّائِبَةُ النَّازِلَةُ، وَالْجَمْعُ نَوَائِبٌ. وَأَنَابَ زَيْدٌ إِلَى اللَّهِ إِذْ رَجَعَ وَأَنَابَ وَكَيْلًا عَنْهُ).

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥)﴾ [ص].
 وقال عز وجل: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
 [لقمان: ١٥].

قَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كُنْتُ رَجُلًا إِذَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثًا نَفَعَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِمَا شَاءَ أَنْ يَنْفَعَنِي، وَإِذَا حَدَّثَنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ اسْتَحْلَفْتُهُ، فَإِذَا حَلَفَ لِي صَدَّقْتُهُ، قَالَ: وَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَصَدَقَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} إِلَى آخِرِ الْآيَةِ»^(١).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَأَيْتَنِي اللَّيْلَةَ وَأَنَا نَائِمٌ كَأَنِّي كُنْتُ أَصْلِي خَلْفَ شَجَرَةٍ، فَسَجَدْتُ فَسَجَدَتِ الشَّجَرَةُ لِسُجُودِي، فَسَمِعَتْهَا وَهِيَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا عِنْدَكَ أَجْرًا، وَضَعْ عَنِّي بِهَا وَزْرًا، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْرًا، وَتَقَبَّلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ؛ فَقَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(١) رواه أبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٤٠٨)، وقال: (حسن).

عليه وسلم سَجَدَ ثُمَّ سَجَدَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ مِثْلَ مَا أَخْبَرَهُ الرَّجُلُ عَنْ قَوْلِ الشَّجَرَةِ^(١).

٥٠. عودةُ الناسِ من الغفلةِ إلى التَّذكُّرِ، ومن الغفلاتِ إلى الطاعاتِ

لا ريب أن من فوائد المصيبة أنها تنقذ الإنسان من الغفلة إلى التذكُّر، وتنبه العبد ليخرج من الغفلات إلى الطاعات، وتجلي تقصيره في حق رب البريات، حتى لا يظن في نفسه الكمالات؛ فيكون سبباً لقسوة القلب والغفلات.

وإن عودة الناس إلى الله، وإلى دينه، وإلى هدي نبيه صلى الله عليه وسل أعم من خصوص التوبة، ولهذا أفردت هذه العبرة، لأنه مثل العام بعد الخاص؛ فنجد في كثير من البلايا والفتن إيقاظ الناس من الغفلة والغفلات، لعل ذلك يكون سبباً لرجوعهم إلى رب البريات، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وقال سبحانه مبيناً حكمة ضربه الأمثال القياسية، ومثيلاتها الواقعية: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

(١) رواه الترمذي (٥٨٦)، وقال: (حديثٌ غريبٌ...)، وحسنه الألباني.

وقال عز وجل: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿ [النحل: ٤٤-٤٧].

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) ﴿ [الزمر].

وقال سبحانه: ﴿لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) ﴿ [عبس].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿ [المدثر].

وقال جل في علاه: ﴿فَإِذَا تَثَقَفْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) ﴿ [الأنفال].

عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ النَّاسُ: إِنَّمَا انْكَسَفَتْ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ. فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّى بِالنَّاسِ...؛ فَاَنْصَرَفَ حِينَ انْصَرَفَ، وَقَدْ أَضَتِ الشَّمْسُ؛ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ. وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَصَلُّوا حَتَّى تَنْجَلِيَ، مَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلَاتِي هَذِهِ، لَقَدْ جِيءَ بِالنَّارِ. وَذَلِكَ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ مَخَافَةَ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ لَفْحِهَا. وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمِحْجَنِ يَجْرُ قُصْبُهُ فِي النَّارِ. كَانَ يَسْرِقُ

الْحَاجِّ بِمُحِبَّتِهِ. فَإِنْ فُظِنَ لَهُ قَالَ: إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمُحِبَّتِي. وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ، وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الْهَرَّةِ الَّتِي رَبَطْتَهَا فَلَمْ تُطْعَمْهَا، وَلَمْ تَدْعُهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ. حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، ثُمَّ جِيءَ بِالْجَنَّةِ، وَذَلِكَ مِنْ رَأَيْتُمُونِي تَقَدَّمْتُ حَتَّى قُمْتُ فِي مَقَامِي، وَلَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَنَاوَلَ مِنْ ثَمَرِهَا لِتَنْظُرُوا إِلَيْهِ، ثُمَّ بَدَأَ لِي أَنْ لَا أَفْعَلَ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ تُوعِدُونَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلَاتِي هَذِهِ»^(١).

٥١. رجوع الناس إلى الله تعالى^(٢)

إن الفتن كما أنها تكون مذكّرات كذلك تكون سبباً للرجوع إلى رب البريات، والرجوع إلى دينه، والرجوع إلى اتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ﴿وَيَلْوَنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]^(٣).

وقال سبحانه: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢١) [السجدة].

وقال عز وجل: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤٨) [الزخرف].

(١) رواه مسلم (٩٠٤).

(٢) هذا أعم من الذي قبله؛ فهذا من باب عطف العام على الخاص؛ فالرجوع قد يكون بالاستغاثة أو الاستعانة، أو حتى بالإيمان، وبالتوبة...، أما الإنابة فهي توبة على وجه الخصوص، مع مدافعة عن الدين وحماية له.

(٣) وفسر هذا البلاء: بـ(الجذب)، و(البلاء والعقوبة)، و(الشدة) لعلهم يرجعون ويؤوبون ويتوبون.

وقال جلّ في علاه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٧) ﴿[الأحقاف].

وقال سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩) ﴿فِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات]: ٤٩-٥٠].

وقال سبحانه مبيناً أن افتتان أصحاب البستان ببستانهم سبب لرجوعهم وتوبتهم، ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ (٣١) ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ (٣٢) ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٣) ﴿[القلم].

وقال سبحانه منبهاً على الأمرين معاً؛ التوبة والتذكر وهما علامتا الرجوع: ﴿أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ (١٢٦) ﴿[التوبة].
وهذه البلايا والفتن (هي المصائب، والأسقام، والأنصاب، عذاب للمُسْرِفِ في الدنيا، دون عذاب الآخرة)^(١).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: (مصائب الدنيا؛ الرُّوم، والبطشة، والدَّخَان)^(٢).
وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (مصائب الدنيا، وأسقامها، وبلاؤها مما يبتلي الله بها العباد، حتى يتوبوا)^(٣).

(١) عزاه السيوطي إلى ابن مردويه في تفسيره مرفوعاً!؟

(٢) رواه مسلم (٢٧٩٩).

(٣) أخرجه ابن جرير (٦٢٧/١٨).

٥٢. تجلّي أهل الوفاء بالعهود في الرخاء والضراء

إنّ الفتن تجلّي أصحاب المبادئ، وأهل الوفاء، وأهل العهد، والمحافظين على العهود، والمواثيق، الذي يحافظون على ميثاقهم وعهدهم؛ فإنّ الفتن إذا وقعت مرج الناس في عقودهم، وتركوا عهودهم ومواثيقهم، إلّا من هم أهل الوفاء صدقاً، ومن هم أهل الوفاء حقاً، قال الله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وقال سبحانه: ﴿يَعْظُمُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩٠-٩١]^(١). وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: ١٩-٢٠].

(١) قال إمام المفسرين ابن جرير رحمه الله في تفسيره (١٤ / ٣٤٠-٣٤١): (إن الله تعالى أمر في هذه الآية عباده بالوفاء بعهوده التي يجعلونها على أنفسهم، ونهاهم عن نقض الأيمان بعد توكيدها على أنفسهم لآخرين بعقود تكون بينهم بحق مما لا يكرهه الله. وجائز أن تكون نزلت في الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنهيهم عن نقض بيعتهم حذراً من قلة عدد المسلمين وكثرة عدد المشركين. وأن تكون نزلت في الذين أرادوا الانتقال بحلفهم عن حلفائهم لقلة عددهم في آخرين لكثرة عددهم. وجائز أن تكون في غير ذلك. ولا خبر تثبت به الحجّة أنها نزلت في شيء من ذلك دون شيء، ولا دلالة في كتاب، ولا حجة عقل أي ذلك عني بها، ولا قول في ذلك أولى بالحق مما قلنا؛ لدلالة ظاهره عليه، وأن الآية كانت قد تنزل لسبب من الأسباب، ويكون الحكم بها عاماً في كل ما كان بمعنى السبب الذي نزلت فيه).

وقال جل وعز: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

ولا ريب أن من وفى بمواثيقه مهما كانت الظروف وفى الله تعالى له، قال جل في علاه:

﴿وَأَوْفُوا بعهدي أوف بعهديكم وإياي فارهبون﴾ [البقرة: ٤٠].

وقال الله تعالى: ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهدٍ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين

(١٠٢)﴾ [الأعراف].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالطريق يمنع منه ابن السبيل، ورجل بايع إماماً لا يبأعه إلا لدنياه، إن أعطاه ما يريد وفى له، وإلا لم يف له، ورجل يبأع رجلاً بسلعة بعد العصر، فحلف بالله لقد أعطيتي بها كذا وكذا فصدقه، فأخذها، ولم يعط بها»^(١).

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: (ما منعتني أن أشهد بدراً، إلا أنني خرجت أنا وأبي حسيلاً، قال: فأخذنا كفار قريش، قالوا: إنكم تريدون محمداً، فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه الخبر؛ فقال: «انصرفا، نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم»^(٢).

(١) رواه البخاري (٧٢٠٨)، ومسلم (١٠٨).

(٢) رواه مسلم (١٧٨٧).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْغَادِرَ يَنْصِبُ اللَّهُ لَهُ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيْقَالَ: أَلَا هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ»^(١).
 وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثَلَاثٌ تُؤَدِّي إِلَى الْبُرِّ وَالْفَاجِرِ: الرَّحِمُ تُوَصَّلُ بِرَّةً كَانَتْ أَوْ فَاجِرَةً، وَالْأَمَانَةُ تُؤَدِّي إِلَى الْبُرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْعَهْدُ يُؤَفِّي لِلْبُرِّ وَالْفَاجِرِ)^(٢).
 وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَنْ نَكَثَ بَيْعَةَ كَانَتْ سِتْرًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ. قَالَ: وَإِنَّمَا تَهْلِكُ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِنَكْثِهَا عُهُودَهَا)^(٣).

٥٣. كشف زيف الدنيا، وعدم الركون إليها

إِنَّ الْفِتْنَ تُظْهِرُ الزُّيُوفَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ كَالنَّارِ شَدِيدَةً تَكْشِفُ الزُّيُوفَ مِنْ كُلِّ مَعْدَنٍ؛
 وَالْمِحْنُ تَكْشِفُ زَيْفَ الدُّنْيَا، وَقَرَبَ زَوَالِ زِينَتِهَا، وَمُحَالَ دَوَامِ حَالَتِهَا، وَأَنَّ مَتَاعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ،
 وَأَنَّ زِينَتَهَا إِلَى تَغْيِيرٍ وَتَحْلِيلٍ، وَبَيَانَ ضَعْفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَسُرْعَةِ زَوَالِهَا؛ فَالْفِتْنُ تَأْتِي لِكَيْلَا
 تَسْتَكِينَنَّ لِلدُّنْيَا النُّفُوسَ، وَلَا تَرُكَنَّ إِلَيْهَا الْأَنْفُسَ، وَلَا تَظَنَّ الْخُلُودَ فِيهَا الْعُقْلَاءَ، وَلَيْسَتْ تُعَدُّ
 لِلْآخِرَةِ الْأَلْبَاءَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ
 كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ

(١) رواه البخاري (٦١٨٢)، ومسلم (١٧٣٥) وهذا لفظه.

(٢) رواه ابن حرب في البر والصلة (١٣١)، ومساوي الأخلاق للخرائطي (٣٩٩).

(٣) الدر المنثور (٥/ ٢٨٥)، وأحال على تفسير ابن أبي حاتم.

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمَةُ الْمَوْتِ

مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿النساء: ٧٧-٧٨﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٥)﴾ [فاطر].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧)﴾ [الكهف].

وقال جل في علاه: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)﴾ [الأنبياء].

(١) قال ابن القيم رحمه الله: {قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}، ولم يقل: من الله لما جمع بين الحسنات والسيئات، والحسنة مضافة إلى الله من كل وجه، والسيئة إنما تضاف إليه قضاءً وقدراً وخلقاً، وأنه خالقها كما هو خالق الحسنة، فلهذا قال: {قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}. وهو سبحانه إنما خلقها لحكمة، فلا تضاف إليه من جهة كونها سيئة، بل من جهة ما تضمنته من الحكمة والعدل والحمد، وتضاف إلى النفس كونها سيئة. ولما ذكر الحسنة مفردة عن السيئة قال: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ}، ولم يقل: من عند الله، فالخير منه، وأنه موجب أسمائه وصفاته، والشر الذي هو بالنسبة إلى العبد شر من عنده سبحانه، فإنه مخلوق له، خلقه عدلاً منه وحكمة. شفاء العليل (٢/ ٤٤).

وَقَالَ سُبْحَانَهُ مَبِينًا سَبَبَ إِيقَاعِ الْمَصِيبَاتِ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ [الحديد].

وَقَالَ جَلَّ فِي عِلْمِهِ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (١٣١) وَأُمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ [طه].

وَقَالَ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ [يونس].

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٥) [الزخرف].

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَمِنَّا مَنْ يُصَلِّحُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَنْ يَتَّضِلُّ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشْرِهِ، إِذْ نَادَىٰ مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الصَّلَاةَ جَامِعَةً، فَاجْتَمَعْنَا إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَىٰ خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنذِرَهُمْ

شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوْلَئِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكَرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيَرَّقُّ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْحَرَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلِيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةً يَدِهِ وَثَمْرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطِعْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخِرٌ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخِرِ»^(١).

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا صَحِبَهَا عَلَى ذَلِكَ، مَا الدُّنْيَا كُلُّهَا مِنْ أَوْلِئِهَا إِلَى آخِرِهَا إِلَّا كَرَجُلٍ نَامَ نَوْمَةً، فَرَأَى فِي مَنَامِهِ بَعْضَ مَا يُحِبُّ، ثُمَّ انْتَبَهَ فَلَمْ يَرِ شَيْئًا)^(٢)، وَقَالَ: (كَخَضْرَاءِ النَّبَاتِ، وَلُعَبِ النَّبَاتِ، لَا حَاصِلَ لَهُ)^(٣).

وَقَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (هِيَ مَتَاعٌ مَتْرُوكٌ، أَوْ شَكْتٌ - وَاللَّهِ - أَنْ تَضُمَّحِلَ عَنْ أَهْلِهَا، فَخَذُوا مِنْ هَذَا الْمَتَاعِ طَاعَةَ اللَّهِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)^(٤).

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٢) أخرجه ابن المنذر (٧٩٥ / ٢) مختصرًا، (وابن أبي حاتم (١٠٠٦ / ٣)).

(٣) تفسير الثعلبي (٢٢٥ / ٣)، والبغوي (١٤٥ / ٢).

(٤) أخرجه ابن جرير (٢٨٨-٢٨٩).

٥٤. التذكير بعدم قرار الدنيا، وأن الآخرة هي دار القرار

وهذا نوعٌ آخرٌ من الذي قبله؛ فكم من مُستكينٍ إلى منصبٍ حصَّله، أو بيتٍ بناه، أو مالٍ جمعه؛ ثم بين عشية وضحاها تزول تلك الأمور لأنَّ الدنيا دار الغرور، ولأنها ليست بدار مستقرٍّ، فيحصلُ له التذكير بعدم قرار الدنيا كصيفها الزائل، وربيعها المُتبيِّس الماحل، قال الله تعالى عن قول مؤمن آل فرعون: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩)﴾ [غافر].

قال مقاتل بن سليمان رحمه الله: (يقول: تُمتعون في الدنيا قليلاً، ثم استقرت الدارُ الآخرةُ بأهل الجنة وأهل النار. يعني بالقرار: لا زوال عنها)^(١).

وقال سبحانه: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيُونَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)﴾ [الأعراف].

قال ابن عباس رضي الله عنهما عن حبرٍ من أهل الكتاب: (هُوَ مُسْتَقَرُّهُ فِي الْأَرْضِ، وَمُسْتَقَرُّهُ فِي الرَّحِمِ، وَمُسْتَقَرُّهُ تَحْتَ الْأَرْضِ حَتَّىٰ يَصِيرَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ أَوْ إِلَىٰ النَّارِ)^(٢).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَاِدٍ مِنْ ذَهَبٍ، أَحَبَّ أَنْ لَهُ وَاِدِيًا آخَرَ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَاللَّهُ يُتَوَّبُ عَلَيَّ مَنْ تَابَ»^(٣).

(١) تفسير مقاتل (٣/ ٧١٤).

(٢) رواه سعيد بن منصور في سننه (٥/ ٦٥) قسم التفسير، الدر المنثور (٣/ ٤٣٣).

(٣) رواه مسلم (١٠٤٨).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمَوَحَن

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ؛ فَقَالَ: «إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، وَزَيْتِيهَا» فَقَالَ رَجُلٌ: أَوْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟...؛ فَقَالَ: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ، وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ، أَوْ يُلِمُّ إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرِ، فَإِنَّهَا أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ، فَثَلَطَتْ، وَبَالَتْ، ثُمَّ رَتَعَتْ، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرٌ حُلُوٌّ، وَنَعَمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ هُوَ لِمَنْ أُعْطِيَ مِنْهُ الْمُسْكِينِ، وَالْيَتِيمِ، وَابْنَ السَّبِيلِ» - أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذْهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»^(٢).

٥٥. تجلّي شرّ بعض المحبوبات، وخير بعض المبعوضات

إنّ الإنسان لا تتكشف له الأمور على ما هي عليها إلا عند المضايق، فلا يعرف الخير الذي في بعض المكروهات إلا بعد تجلّيه، مثل الألم الذي يصيبه ليعلم إعلالاً في بدنه، ولا يعرف الشر الذي في بعض المحبوبات إلا بعد تجليها، مثل الأكل الحلو الذي يعقبه مغص، وهكذا الأمور الكونية، والفتن الشديدة المُجَلِّية، والمحن والبلايا العظيمة، قال الله تعالى:

(١) رواه مسلم (١٠٥٢).

(٢) رواه مسلم (١٤٦٧).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾ [البقرة] (١).

وقال سبحانه في الفتنة الخاصة بين الزوجين من الاختلاف والتفرق ومبادئ الشقاق:

﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء].

وقال عز وجل مبيناً الفتنة ببعض المحبوبات: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ

اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)﴾ [الأنفال].

وقال جل في علاه مبيناً وجوب الحذر من بعض المحبوبات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ

أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

(١٤)﴾ [التغابن].

وَعَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جَاهِدُوا

فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يُنَجِّي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ» (٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَرَاهُ رَفَعَهُ - قَالَ: «أَحِبِّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ

بَغِيضِكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا» (٣).

(١) قال ابن عطية رحمه الله في تفسيره (٥١٩/١): (واستمر الإجماع على أن الجهاد على أمة محمد فرض كفاية،

فإذا قام به من قام من المسلمين سقط عن الباقيين، إلا أن ينزل العدو بساحة للإسلام، فهو حينئذ فرض عين).

(٢) رواه أحمد (٢٢٦٨٠)، وهو حديث حسن بطرقه، وانظر الصحيحة (٦٧٠).

(٣) رواه الترمذي (٢١١٥)، وقال: (حديث غريب)، والبيهقي في الشعب (٦٥٩٥) موقوفاً من قول علي رضي

الله عنه، وقد رواه موقوفاً من قول علي غير واحد، ومنهم: أحمد في فضائل الصحابة (٤٨٤)، والبخاري في الأدب

المفرد (١٣٢١) وغيرهما، قال الألباني: (حسن موقوفاً، وقد صح مرفوعاً).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال سعيد بن جبير رحمه الله: (ليس كل ما يكره المؤمن من شيء هو خير له، وليس كل ما أحب هو شرُّ له)^(١).

وعن أبي إسحاق الفزاري، قال: سألت الأوزاعي رحمه الله عن قول الله عز وجل: {عليكم القتال وهو كره لكم}، أوجب الغزو على الناس كلهم؟ قال: (لا أعلمه، ولكن لا ينبغي للأئمة والعامّة تركه، فأما الرجل في خاصة نفسه فلا)^(٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (إن الرجل يستخير الله، فيختار له، فيسخط على ربه عز وجل، فلا يلبث أن ينظر في العاقبة فإذا هو قد خير له)^(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (لا يقولنّ أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنه. فإنه ليس أحد منكم إلا مُشتملٌ على فتنة؛ فإن الله يقول: {إنما أموالكم وأولادكم فتنه}، ولكن من استعاذ فليستعد من مَضَلَّاتِ الفتن)^(٤).

قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ لِبَنِيهِ: (يَا بَنِي لَا تَعَادُوا الرَّجُلَ، وَإِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ، وَلَا تَزْهَدُوا فِي صَدَاقَةِ أَحَدٍ، وَإِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَتَى تَخَافُونَ عَدَاوَةَ

(١) الدر المنثور (١/٥٨٧) وعزاه إلى ابن المنذر.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣/٦٤٤).

(٣) تفسير الثعلبي (٣/٢٧٧).

(٤) أخرجه ابن جرير (١١/١١٥)، والطبراني (٨٩٣١).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

الْعَدُوِّ، وَلَا مَتَى تَرْجُونَ صِدَاقَةَ الصَّادِقِ، وَلَا يَعْتَدِرُ إِلَيْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا قَبِلْتُمْ عُذْرَهُ مِنْهُ، وَإِنْ عَلَّمْتُمْ أَنَّهُ كَاذِبٌ^(١).

٥٦. عدم إهلاك النفس لإصلاح الآخرين

إنَّ الفتن تجلِّي أن الهداية بيد الله تعالى، وأنه لا ينبغي للمسلم أن يوقع نفسه في الحرج والهلاك، وأن يعيش في نكدٍ وتأسفٍ؛ لأجل فلان وفلان ممَّن لا يهتدون بل هم معرضون، قال الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (٦) [الكهف].

وقال سبحانه: ﴿طسّم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة].

وأنه ينبغي على المسلم عمومًا، وعلى الداعي خصوصًا، القولُ الحسنُ اللينُ مهما كانت الظروف، قال الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٤٤) [طه].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ، وَسَعِيدٌ) [هود: ١٠٥]، وَنَحْوُ هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَحْرِصُ أَنْ يُؤْمِنَ جَمِيعُ النَّاسِ، وَيَتَابِعُوهُ

(١) الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار (١٩٤).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عَلَى الْهُدَى، فَأَخْبَرَهُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ إِلَّا مَنْ سَبَقَ لَهُ مِنَ السَّعَادَةِ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ، وَلَا يَضِلُّ إِلَّا مَنْ سَبَقَ لَهُ مِنَ الشَّقَاءِ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {لَعَلَّكَ بِأَخَعِ نَفْسِكَ أَنْ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}، يَقُولُ: {إِنْ نَشَأُ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} [الشعراء: ٤] (١).

وَعَنْ قَتَادَةَ بْنِ دَعَامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: {فَلَعَلَّكَ بِأَخَعِ نَفْسِكَ}، قَالَ: (حَزَنًا عَلَيْهِمْ، نَهَى اللَّهُ نَبِيَّهُ أَنْ يَأْسَفَ عَلَى النَّاسِ فِي ذُنُوبِهِمْ) (٢).

٥٧. ظهور قيمة العلم الشرعي

النَّاسُ عَامَتُهُمْ وَخَاصَتُهُمْ، أَمْرًاؤُهُمْ وَعَوَامُهُمْ، قَدْ لَا يَعْرِفُونَ قِيَمَةَ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ، وَلَكِنْ عِنْدَ الْفِتْنِ، وَثَبَاتِ الْعُلَمَاءِ، يَتَجَلَّى لِلنَّاسِ قَدْرُ مَا كَانُوا يَقُولُونَهُ، وَقِيَمَةُ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ مِنْهُ، وَقِيَمَةُ مَا يَحْمِلُونَهُ مِنَ الْعِلْمِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]. وَقَالَ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)﴾ [النحل].

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٣٠٢٥)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٠٢٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٣٩٦/١) بنحوه، وابن جرير (١٥٠/١٥).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

وقال سبحانه مبيناً قيمة كلام العلماء بعد هلاك قارون وكيف تبين للجّهال صحة كلامهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَصَرِّينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئِنَّا اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآئِنَّا لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)﴾ [القصص].

عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: (قَامَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ صِفِّينَ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّهَمُوا أَنْفُسَكُمْ، لَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَلَوْ نَرَى قِتَالًا لَقَاتَلْنَا. وَذَلِكَ فِي الصُّلْحِ الَّذِي كَانَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَآتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَلَيْسَ قِتَالَنَا فِي الْجَنَّةِ وَقِتَالَهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَفِيمَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا، وَنَرْجِعُ، وَلَمَّا يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟! فَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا. قَالَ: فَانْطَلَقَ عُمَرُ؛ فَلَمْ يَصْبِرْ، مُتَغَيِّظًا، فَآتَى أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَلَيْسَ قِتَالَنَا فِي الْجَنَّةِ وَقِتَالَهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا، وَنَرْجِعُ، وَلَمَّا يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبَدًا).^(١)

(١) رواه مسلم (١٧٨٥) بهذا اللفظ، وهو في صحيح البخاري بنحوه، قال صاحب نوادر الأصول (١/٣١٨-

٣١٩) الحكيم الترمذي (٣٢٠هـ): (خرج رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْتَمِرًا يَزُورُ بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامَ لِبَعْدِ عَهْدِهِ بِهِ

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا، وَأَضَلُّوا»^(١).

قصد عن النبي فكان محاب الله تعالى في ذلك أن يصلحهم، ويعطيهم ما يريدون من ذلك؛ فإنهم كانوا يريدون أن لا يدخل مكة في هذه الهيئة؛ فحلت دون قضاء العمرة، ونحر الهدى، ولما يصل إلى البيت، ولم يبلغ محلها، وكان في الظاهر تعظيم البيت، والاعتماد، والوفاء بالندى، وهو الإحرام، وهدي البدن، وهي سبعون بدنة أعلى عندهم، وأشرف، والصلح والرجوع عنهم محاب الله في ذلك الوقت، فأتسع لهذا الأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يضق به ذرعاً، واتسع أبو بكر رضي الله عنه، وضاق عمر رضي الله عنه، حتى صار إلى أبي بكر رضي الله عنه؛ فقال يا أبا بكر: أليس هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو ليس نحن المسلمون؟ فقال: بلى. فقال: فعلام نعطى الدنية في ديننا وهم الكفار؟! قال أبو بكر رضي الله عنه: يا عمر، الزم غرز رسول الله صلى الله عليه وسلم، واسمع وأطع؛ فإنني أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: وأنا أشهد؛ فلم يصبر على ذلك؛ فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: يا رسول الله، ألسنت رسول الله، أو لسنا بالمسلمين أو ليسوا بالمشركين؟! قال: «بلى». قال: فعلام نعطى الدنية في ديننا، وهم الكفار؟! قال: «أنا عبد الله، ورسوله، ولكن أخالف أمره، ولن يضيعني». قال عمر رضي الله عنه: فما زلت أصوم وأصلي وأتصدق وأعتق من الذي صنعت، مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ. فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين، وكتب الكتاب فيما بينهم على وضع الحرب عشر سنين، يأمن منهم الناس، ويكف بعضهم عن بعض؛ فأمنوا، ولقي بعضهم بعضاً، وخالطوهم، واستمعوا إلى القرآن، وإلى ما جاء به عن الله تعالى، والرجل يكلم أخاه وصديقه ورحمه بذلك؛ فدخل الناس أفواجا في دين الله، مثل ما دخلوا في سنين كثيرة.

فانظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف فوض أمره إلى الله تعالى، وأبرز صدق توكله، وكيف حسن ظنه بالله تعالى؛ فقال: «إني لن أخالف أمره، ولن يضيعني»، وكيف تابعه على ذلك أبو بكر رضي الله عنه، واتسع).

(١) رواه البخاري (١٠٢)، ومسلم (٢٦٧٣).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال حذيفة رضي الله عنه: (فإنها لا تضرك الفتنة ما عرفت دينك، إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل؛ فلم تدر أيهما تتبع؟ فتلك الفتنة).^(١)

٥٨. الفتن تعلم ضرورة الرجوع إلى العلماء الربانيين

إن الذي يتأتون في الفتيا، ويدفعونها ما استطاعوا، ولا يتسارعون في الإفتاء، هم العلماء الربانيون، الذين يجب الرجوع إليهم ضرورة، فهم يتكلمون حيث يرون ضرورة الكلام، ويقدمون حيث يرون ضرورة الإقدام، ويحجمون حيث يرون ضرورة الإحجام، ويسكتون حيث يرون ضرورة السكوت.

والمحَنُ تكشف زيفَ من اتَّصف بوصف العلماء، وليس منهم في الدين، ولا من الربَّانيين، فتكشف الفتنُ مَنْ تلبَّس لباسهم زورًا وتلبَّسوا على العالمين، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقال عز وجل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران].

(١) رواه ابن أبي شيبة (٤٠٠٧٥).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

وقد ذكر العلماء الراسخون من قوم موسى للناس خطورة الافتخار بالمال، وخطورة الاغترار بما عليه قارون من الحال؛ فلم يأخذوا قولهم محمل الجد، ثم لما وقع به البلاء، تجلّى للناس صحة قول العلماء النصحاء، قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)﴾ [القصص].

ودائمًا وأبدًا يتبين صحة قول العلماء الربانيين، والعلماء الناصحين، حتى في الآخرة يوم الدين، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦)﴾ [الروم].

عن أبي قتادة رضي الله عنه قال في قصة غزوة تبوك، وفيه: (أصبح الناس فقدوا نبيهم، فقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدكم لم يكن ليخلفكم، وقال الناس: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أيديكم، «فإن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا»...) (١).

(١) رواه مسلم (٣١١/٦٨١).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَعَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُوَدَّعٌ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مِنْ يَعِشُ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ، فَعَلِيهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ»^(١).

قال أبو جعفر محمد بن علي بن حسين يذكر عن أبيه -رحمهم الله- قال: (قال فتى من بني هاشم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه حين انصرف: سمعتك تخطب يا أمير المؤمنين في الجمعة، تقول: اللهم أصلحنا بما أصلحت به الخلفاء الراشدين؛ فمن هم؟ قال: فاغرورقت عيناه، يعني ثم انهملت على لحيته، ثم قال: أبو بكر وعمر، إماما الهدى، وشيخا الإسلام، والمقتدى بهما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، من اتبعهما هُدي إلى صراط مستقيم، ومن اقتدى بهما رشد، ومن تمسك بهما فهو من حزب الله، وحزب الله هم المفلحون)^(٢).

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٨٧٠) وهذا لفظه، وقال: (حديث حسن صحيح).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢٥٠١).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (لَمَّا اعْتَزَلْتُ الْحُرُورِيَّةَ فَكَانُوا فِي دَارٍ عَلَيَّ حَدِيثَهُمْ؛ فَقُلْتُ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَبْرِدْ عَنِ الصَّلَاةِ لِعَلِّي آتِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فَأَكَلَهُمْ...؛ فَرَجَعَ مِنْهُمْ عِشْرُونَ أَلْفًا وَبَقِيَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ آلَافٍ فَقُتِلُوا)^(١).

وَعَنْ يَزِيدَ الْفَقِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (كُنْتُ أَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ، فَسَأَلْتُ بَعْضَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ بِخِلَافِ مَا كُنْتُ أَقُولُ، فَأَنْقَذَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِهِ) يَعْنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢).

وَقَالَ: (كُنْتُ قَدْ شَغَفَنِي رَأْيٌ مِنْ رَأْيِ الْخَوَارِجِ، فَخَرَجْنَا فِي عِصَابَةِ ذَوِي عَدَدٍ نُرِيدُ أَنْ نَخْرُجَ ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَيَّ النَّاسِ، قَالَ: فَمَرَرْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ فَإِذَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُحَدِّثُ الْقَوْمَ...، فَرَجَعْنَا، فَلَا وَاللَّهِ مَا خَرَجَ مِنَّا غَيْرُ رَجُلٍ وَاحِدٍ)^(٣).

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمَعَنَا رَجُلٌ يَرَى رَأْيَ الْقَدَرِيَّةِ، فَنَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَرَجَعَ عَمَّا كَانَ يَقُولُ، فَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَيَّ الْقَدَرِيَّةِ)^(٤).

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه (١٨٦٧٨).

(٢) مسند أبي حنيفة رواية الحصكفي (١١).

(٣) رواه مسلم (١٩١).

(٤) رواه الأجرى في كتاب الشريعة (٥٢٦).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَقَالَ أَبُو كَعْبٍ صَاحِبُ الْجُرَيْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَتَيْتُ الْحَسَنَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَأَنَا أُرِيدُ الْهِنْدَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! أَوْصِنِي. قَالَ: أَعَزَّ أَمْرَ اللَّهِ أَيْنَ مَا كُنْتَ يُعِزُّكَ اللَّهُ. قَالَ: فَفَعَنِي اللَّهُ بِكَلَامِهِ)^(١).

٥٩. الْفِتْنُ تَرْبِيٌّ عَلَى فَهْمِ الْمَالَاتِ وَالنَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ وَالْحَالَاتِ

ليس كلُّ فقيهٍ يكون مُتَاهِلًا لمعرفة المآلات، والنظر في العواقب والحالات؛ بل ذلك إلى المستنبطين منهم على وجه الخصوص وهم قلة في البريات، ويتجلى لكثير من الفقهاء بسبب المِحْنِ والفتن مسائل من فقه المآلات، ما كانوا يعرفونها قبل وقوع البلاءات، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]^(٢).

(١) المجالسة وجواهر العلم (٢٥٨٩).

تنبيه: إنَّ الناس في وقت الفتن المتماوجة يحتاجون إلى أهل العلم الراسخين ليوازنوا بين المصالح والمفاسد؛ فلا بُدَّ إذن من الرجوع إليهم؛ فكم أنقذ الله بهم من الضلالة، وكم هدى الله بهم من الردى، ولولا خشية الإطالة؛ لذكرت وقائع كثيرة تدل على ضرورة الرجوع إلى العلماء، ولزوم غرزهم في كل الأعصار والأنحاء؛ فقد أنقذ الله تعالى بالشيخ ابن باز شيخنا ووالدنا د. فلاح بن إسماعيل مندكار، وأنقذني الله تعالى به من أفكار؛ فجزى الله أئمتنا وعلماءنا خير ما جازى العلماء الأبرار، وثبتنا بالسير على خطاهم إلى يوم القرار..

(٢) قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره ص (١٩٠): (هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، والمصالح العامة، ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم، أن يتثبتوا، ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم،

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (لَمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ، قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى، وَيَقُولُونَ: طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْحِجَابِ، فَقَالَ عُمَرُ: فَقُلْتُ: لَأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ...، قَالَ: وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ حِينَ دَخَلْتُ، وَأَنَا أَرَى فِي وَجْهِهِ الْغَضَبَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يَشُقُّ عَلَيْكَ مِنْ شَأْنِ النِّسَاءِ؟ فَإِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتُهُ وَجِبْرِيْلَ وَمِيكَائِيلَ، وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ، وَقَلَّمَا تَكَلَّمْتُ، وَأَحْمَدُ اللَّهُ بِكَلَامِ إِلَّا رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي الَّذِي أَقُولُ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْتَّخِيْرِ: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ}...؛ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَطَلَّقْتَهُنَّ؟ قَالَ: «لَا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى يَقُولُونَ: طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ، أَفَأَنْزَلَ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُطَلِّقْتَهُنَّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنْ شِئْتَ»، فَلَمْ أَزَلْ أَحَدُهُ حَتَّى تَحَسَّرَ الْغَضَبُ عَنِّي

وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها؛ فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطا للمؤمنين وسرورا لهم وتحريزا من أعدائهم فعلوا ذلك، وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة، أو فيه مصلحة، ولكن مضرته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال: {لَعَلِمَةُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة. وفي هذا دليل لقاعدة أدبية وهي: أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يولَّى مَنْ هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ. وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيُقدِّم عليه الإنسان؟ أم لا فيحجم عنه؟ ثم قال تعالى: {وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ} أي: في توفيقكم وتأديبكم، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون، {لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره نفسه إلا بالشر. فإذا لجأ إلى ربه واعتصم به واجتهد في ذلك، لطف به ربه ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان (الرجيم).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَجِهِهِ، وَحَتَّى كَثُرَ فَضْحِكُكَ...؛ فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: لَمْ يُطَلَّقْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ آيَةَ التَّخْيِيرِ^(١).

وَعَنْ عُرْوَةَ قَالَتْ: (قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَرَأَيْتِ قَوْلَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} [البقرة: ١٥٨] فَوَاللَّهِ مَا عَلَيَّ أَحَدٌ جُنَاحٌ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا. قَالَتْ: بِسْمَا قُلْتُ، يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنَّهَا لَوْ كَانَتْ كَمَا أَوْلَتْهَا عَلَيْهِ كَانَتْ: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا، إِنَّمَا أَنْزَلْتَ أَنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ... وَكَانَ مَنْ أَهْلَ لَهَا يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطَّوَّفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةَ، فَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ...)^(٢).

وَعَنْ أَبِي الْحَارِثِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ -يَعْنِي الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي أَمْرٍ كَانَ حَدَثَ بَبِغْدَادَ، وَهَمَّ قَوْمٌ بِالْخُرُوجِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، مَا تَقُولُ فِي الْخُرُوجِ مَعَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَ يَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، الدِّمَاءُ، الدِّمَاءُ، لَا أَرَى ذَلِكَ، وَلَا أَمْرٌ بِهِ، الصَّبْرُ عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الْفِتْنَةِ، يُسْفِكُ فِيهَا الدِّمَاءُ، وَيُسْتَبَاحُ فِيهَا الْأَمْوَالُ، وَيُتْتَهَكُ فِيهَا الْمَحَارِمُ، أَمَا عَلِمْتَ مَا كَانَ النَّاسُ فِيهِ، يَعْنِي أَيَّامَ الْفِتْنَةِ. قُلْتُ:

(١) رواه مسلم (١٤٧٩/٣٠).

(٢) رواه أحمد (٢٥٩٠٥) بهذا اللفظ، وهو في صحيح البخاري (١٦٤٣)، وفي صحيح مسلم (١٢٧٧) بنحوه.

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَالنَّاسُ الْيَوْمَ، أَلَيْسَ هُمْ فِي فِتْنَةٍ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: وَإِنْ كَانَ، فَإِنَّمَا هِيَ فِتْنَةٌ خَاصَّةٌ، فَإِذَا وَقَعَ السَّيْفُ عَمَّتِ الْفِتْنَةُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، الصَّبْرُ عَلَى هَذَا، وَيَسْلَمُ لَكَ دِينُكَ خَيْرٌ لَكَ، وَرَأَيْتُهُ يُنْكِرُ الْخُرُوجَ عَلَى الْأَيْمَةِ، وَقَالَ: الدَّمَاءُ، لَا أَرَى ذَلِكَ، وَلَا أَمْرٌ بِهِ^(١).

٦٠. تكشف الفرق بين الحماسة والبصيرة

إِنَّ الْفِتْنَ إِذَا أَقْبَلَتْ خَطَفَتْ بِرَيْقِهَا كُلَّ صَاحِبِ حِمَاسَةٍ، وَكَشَفَتْ مَا فِي طَيَاتِهَا كُلَّ صَاحِبِ بَصِيرَةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٢١٤) [البقرة].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء، وأنه مبتليهم فيها، وأخبرهم أنه هكذا فعل بأنبيائه وصفوته؛ لتطيب أنفسهم، فقال: {مستهم البأساء والضراء} فالبأساء: الفتن. والضراء: السقم، {وزلزلوا} بالفتن، وأذى الناس إياهم)^(٢).

(١) السنة للإمام الخلال (٨٩)؛ فانظر إلى فقه إمام أهل السنة والجماعة، وكيف كان يقدر الفتن بقدرها، وهذا التقدير للفتن باب علم يفتحها الله لأهل البصائر من عباده؛ فيقولون الحق وبه ينطقون، ويهدون إليه وبه يعدلون، فإذا أغفل هذا الجانب وقع الزلل، وعلى هذا الباب أيضا يكون العمل عند دفع الفتن إذا تعارضت، إذ تدفع الأعلى منهما بالأدنى، والكبرى بالصغرى، والعامّة بالخاصة وهكذا، وهذا كله إنما يدركه ويعلم غوره الراسخون في العلم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/٣٧٩-٣٨٠).

عِبْرُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَعَنْ أَبِي صَخْرٍ الْخَرَّاطِ حُمَيْدِ بْنِ زِيَادٍ رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي قَوْلِ اللَّهِ: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ} - قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ اسْمُهُ - قَالَ لِلنَّاسِ: أَفَحَسِبْتُمْ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ كُلُّ مَنْ قَالَ: إِنِّي مُؤْمِنٌ، {وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مِثْلَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ}، يَقُولُ: أَفَحَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى يَصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصِيبَ بِهِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْبَلَايَا، حَتَّى أُخْتَبَرَ فِيهِ أَمْرُكُمْ، وَأَنْظَرَ فِيهِ إِلَى صِدْقِكُمْ، وَطَاعَتِكُمْ فِي الْبَلَاءِ) (١).

وَعَنْ خَبَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً فَقُلْتُ: أَلَا تَدْعُو اللَّهَ، فَقَعَدَ وَهُوَ مُحَمَّرٌ وَجْهَهُ، فَقَالَ: «لَقَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَيْمِشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِأَثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيَتَمَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّابِحُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ» (٢).

٦١. تجلّي أن النجاة ليست بكثرة المعلومات بل بطمأنينة القلب برب البريات

قد يظن المتسرعون، والمُحبِّون للفتن، أن النجاة بكثرة المعلومات، وبكثرة الاطلاع على المُجريات، مما يكون حول الإنسان في الأحوال المحيطة بالبلائات، وغير ذلك من الأمور والأسباب الكونية، وليس الأمر كذلك؛ بل النجاة بثبات القلب من رب البريات،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٧٩/٢).

(٢) رواه البخاري (٣٨٤١).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ
الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾ [إبراهيم^(١)]

وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)﴾ [آل عمران^(٢)].

(١) وهذه الآية نزلت في خصوص الثبات عند سؤال الملكين، ولكن عمومها دليل ظاهر على أن الله تعالى يثبت
من شاء.

(٢) قال الإمام أبو عبد الله محمد بن يحيى ابن أبي عمر العدني (٢٤٣هـ) في كتابه الإيمان ص (١٤٥): (فالإسلام
عند أهله عظيم شأنه، معروف سبيله، لحقوقه متفقدون، وله متعاهدون، يعرفونه ويعرفون به، بالاجتهاد بالنية،
والاقتصاد بالسنة، لا يبطرهم عنه رخاء من الدنيا أصابهم، ولا يضيعونه لشدّة بلاء نزل بهم، ذلك بأنهم جاءهم أمر
الله، أيقنت نفوسهم، واطمأنت به قلوبهم، يسيرون منه على أعلام نبيه، وسبل واضحة. حُكْمُ فَرَعِ اللَّهِ مِنْهُ، لا تلتبس به
الأهواء، ولا تزيغ به القلوب، عهد عهده الله إلى عباده... ثم نزل بهذه الأمة موعود الله، الذي وعد من وفوع الفتنه،
يفارق رجال عليه رجالات، ويوالي رجال عليه رجالات؛ فمن أراد أن يسائلنا عن أمرنا ورأينا فإننا قوم: الله ربنا، والإسلام
ديننا، والقرآن إمامنا، ومحمد نبينا، إليه نسند، ونضيف أمرنا إلى الله ورسوله، ونرضى من أئمتنا بأبي بكر وعمر،
ونرضى أن يطاعا ونسخط أن يعصيا، ونعادي لهما من عاداهما...؛ وممن نعادي فيهم، شبيبة متمنية ظهرها بكتاب الله،
وأعلنوا الفرية على بني أمية، وعلى الله، لا يفارقون الناس ببصر نافذ، ولا عقل بالغ في الإسلام، يتقنون المعصية على
من عملها، ويعملون بها، إذا ظهرها بها ينصرون فتنها، وما يعرفون المخرج منها، اتخذوا أهل بيت من العرب إماما،
وقلدوهم دينهم، يتلون على حُبهم، ويفارقون على بُغضهم، جفاة على القرآن، أتباع الكهان، يزجون دولة تكون في
بعث يكون قبل الساعة، أو قبل قيام الساعة، حرقوا كتاب الله، وارتسوا في الحُكم، وسعوا في الأرض فسادا، والله لا
يحبّ المُفسدين، وفتحوا أبوابا كان الله سدّها، وسدوا أبوابا كان الله فتحها).

عِبْرُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قال محمد بن إسحاق رحمه الله: (لِمَا أَعْرِفُ مِنْ ضَعْفِكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِي، بِسُلْطَانِي، وَقُدْرَتِي، وَذَلِكَ أَنَّ الْعِزَّ وَالْحُكْمَ إِلَيَّ، لَا إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِي)^(١).

وقال مقاتل بن سليمان رحمه الله: (وليس النصر بقله العدد ولا بكثرتة، ولكن النصر من عند الله)^(٢).

وقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)﴾ [غافر].

وقال جل وعز: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)﴾ [الروم].

قَالَ قَتَادَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (يَعْلَمُونَ تِجَارَتَهَا وَحِرْفَتَهَا وَبَيْعَهَا {وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ})^(٣).

(١) أخرجه ابن جرير (٣٩/٦).

(٢) تفسير مقاتل (١٠٣/٢).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٢٧٣)، تنبيه: ترى أكثر أهل الدنيا لا يعلمون شيئاً عن الفتن ومضارها؛ فيشعلونها، وتراهم في غفلة عنها فيغفلون عنها، وإنما علومهم مقصورة على: (معايشهم؛ متى يغرسون؟ ومتى يزرعون؟ ومتى يحصدون؟)، و(يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الآخرة جهال)، و(يعلمون ما يرفق بهم، وينفعهم

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَا خَيْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَأْتُمْ، فَإِذَا كَانَ الْإِثْمُ كَانَ أْبَعَدَهُمَا مِنْهُ، وَاللَّهُ، مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ قَطُّ، حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرْمَاتُ اللَّهِ؛ فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ»^(١).

وَعَنْ أَبِي سَلَمَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (لَمْ يَكُنْ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مُتَخَرِّقِينَ، وَلَا مُتَمَاوِتِينَ، وَكَانُوا يَتَنَاشَدُونَ الشُّعْرَ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَيَذْكُرُونَ أَمْرَ جَاهِلِيَّتِهِمْ، فَإِذَا أُرِيدَ أَحَدُهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ دَارَتْ حَمَالِقُ عَيْنَيْهِ كَأَنَّهُ مَجْنُونٌ)^(٢).

٦٢. تكشف خطورة الاغترار بالأشخاص والرموز دون الاعتبار بالآيات والسنن

إِنَّ الْفِتْنَ إِذَا وَقَعَتْ ظَهَرَ كَذِبُ أَشْخَاصٍ، وَزَيْفُ دَعَاوَى آخِرِينَ، وَهَذَا يَجْعَلُ الْمُؤْمِنَ لَا يَغْتَرُ بِالْأَشْخَاصِ وَالرَّمُوزِ، وَإِنَّمَا مِيزَانُهُ الَّذِي يَهْ يَزِنُ الْأَشْخَاصَ وَالرَّمُوزَ هُوَ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ، فَكَمْ مِنْ فِتْنَةٍ أَسْقَطَتْ رَمُوزًا وَأَفْرَادًا، وَكَمْ مِنْ فِتْنَةٍ كَشَفَتْ زِيوْفًا؛ فَالْوَاجِبُ اتِّبَاعُ مَا جَاءَ فِي الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَالسُّنَنِ الْوَاضِحَاتِ الثَّابِتَاتِ، دُونَ الْمَعْقُولَاتِ الْمَزْخَرَفَاتِ، وَالذُّوْقِيَّاتِ الْمَشْتَبِهَاتِ، وَالْآرَاءِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى الْقِيلِ وَالْقَالِ، وَهَؤُلَاءِ يَخْسِرُونَ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ

فِي مَعَايِشِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)، (لِيَبْلُغُ مِنْ حِذْقِ أَحَدِهِمْ بِأَمْرِ دُنْيَا أَنَّهُ يُقَلِّبُ الدَّرْهَمَ عَلَى ظَفْرِهِ، فَيَخْبِرُكَ بِوِزْنِهِ، وَمَا يُحْسِنُ يَصْلِي) انظر تفاسير السلف للآية في الدر المنثور (٦/ ٤٨٤) عند آية الروم.

(١) رواه البخاري (٦٧٩٣) وهذا لفظه، ومسلم (٢٣٢٧) بنحوه.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٢٧٧٣٨).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)﴾ [المائدة].

قال محمد بن السائب الكلبي رحمه الله: (فجاء الله بالفتح، فنصر نبيه، وجاء أمر الله من عنده بإجلاء بني النضير، وقتل بني قريظة، وسبي ذراريهم، فندم المنافقون حتى ظهر نفاقهم، وأجلى أهل وُدِّهم عن أرضهم، فعند ذلك قال الذين آمنوا بعضهم لبعض: {أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم} الآية) (١).

وأما خسارة المغترين بالأشخاص في الآخرة فظاهرة، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ النَّصِيبُ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧)﴾ [الأعراف].

وقال سبحانه: ﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُفِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤)﴾ [الشعراء].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ... ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُنَا عَنْ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ: «هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ». قَالَ عُمَرُ: فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَأُوا الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: فَجُعِلُوا فِي بَيْتٍ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ،

(١) تفسير ابن أبي زمنين (٢/ ٣٣-٣٤).

عِبْرُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «يَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، وَيَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللَّهُ حَقًّا». قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَكَلَّمْتُمْ أَجْسَادًا لَا أَرْوَاحَ فِيهَا؟ قَالَ: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُرَدُّوا عَلَيَّ شَيْئًا»^(١).

٦٣. تُظْهِرُ أَنْ الْحَقَّ يُعْرَفُ بِالِدَلِيلِ لَا بِالْأَشْخَاصِ وَالرِّجَالِ

إِنَّ الْمِحْنَ تُظْهِرُ بِجَلَاءِ أَنَّ الْحَقَّ يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ بِالِدَلِيلِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَالَ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَيَنْبَغِي الْحَذْرُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ بِالْأَشْخَاصِ؛ فَالْمُؤْمِنُ يَنْتَبِهُ لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِمَا ثَبَتَ؛ وَلَيْسَ الْعِبْرَةُ بِمَا قِيلَ وَأُثِّبَتْ، فَإِنَّ الْحَقَّ لَا يَعْرِفُ بِالْأَشْخَاصِ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ الْأَشْخَاصُ بِالْحَقِّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠) ﴿[البقرة].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود إلى الإسلام، ورغبهم فيه، وحذرهم عذاب الله ونقمته، فقال له رافع بن خارجة، ومالك بن

(١) رواه مسلم (٢٨٧٣).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

عوف: بل نتبع - يا محمد - ما وجدنا عليه آباءنا؛ فهم كانوا أعلم وخيرًا مِنَّا. فأنزل الله في ذلك... الآية^(١).

وقال الله سبحانه أمرًا باتباع المنزل لا باتباع المحبوبات: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥)﴾ [الأعراف].

وقال عز وجل مبيِّنًا فلاح المتبعين للحق: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

عَنْ مُجَاهِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَمْنَعُوا النِّسَاءَ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِاللَّيْلِ»؛ فَقَالَ ابْنُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ: لَا نَدْعُهُنَّ يَخْرُجْنَ فَيَتَّخِذْنَهُ دَغَلًا. قَالَ: فَزَبَّرَهُ ابْنُ عُمَرَ، وَقَالَ: أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَقُولُ: لَا نَدْعُهُنَّ!!^(٢)).

وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَزِيدَ رَحِمَهُمَا اللَّهُ قَالَ: (كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ فِي كِتَابِ اللَّهِ قَالَ بِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَكَانَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (١/ ٥٥٢)، وابن جرير (٣/ ٤٢).

(٢) رواه مسلم (٤٤٢).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عليه وسلم فيه شيء قال به، فإن لم يكن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شيء، قال بما قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فإن لم يكن لأبي بكر وعمر فيه شيء قال برأيه^(١).
وعن عبد العزيز بن رفيع رحمهما الله: (عن ابن أبي مليكة رحمه الله قال: «قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشفعة في كل شيء: الأرض والدار والجارية والخدم»). قال: فقال عطاء رحمه الله: إنما الشفعة في الأرض والدار. فقال له ابن أبي مليكة: تسمعني - لا أم لك - أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تقول مثل هذا؟^(٢).

٦٤. تعلم العبد التدرج والإصلاح الممكن

إن المِحْنَ كما تجلّي الحكم فهي تعلم الإنسان كيف يتدرج في الأمور، سواء كنا من حيث الإصلاح، أو من حيث البناء، وكيف يأخذ من الوسائل الممكنة المتاحة المباحة للإصلاح لا سيما في زمن الفتن، ويكون مستحضراً ما جرى للنبي صلى الله عليه وسلم وما قاله شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَأْقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٨٨) ﴿[هود].

(١) رواه الحاكم (٤٤٤).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٣١٠١٩-٣١٠٢١).

وليحذر المسلم من ادعاء الإصلاح والتدرج في الصلاح وحقيقته مصالح النفس، والانجراف للهوى، وتبعية الكفار والمنافقين، الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾ [البقرة].

عن أبي العالية رحمه الله قال: (يعني: لا تعصوا في الأرض، وكان فسادهم ذلك معصية الله؛ لأنه من عصي الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة)^(١).

وقال الضحاك رحمه الله مبيناً أنواع الفساد: (بتبديل الملة، وتغيير السنة، وتخریف كتاب الله)^(٢).

ولنستيقن بأن الله تعالى مطلع على الكل، على من يصلح متدرجاً، ومن يفسد متدرجاً، وعلى من يصلح كلية، وعلى من يفسد كلية، قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَكُمُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

عن مجاهد بن جبر رحمه الله قال: (يعني: أن الله لا يخفي عليه الذين يريدون منكم الإصلاح لهم، والإفساد عليهم)^(٣).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٤/١).

(٢) تفسير الثعلبي (١٥٤/١).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٩٦/٢).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

ووجود المصلحين سبب لرفع العذاب العام؛ فلهذا ينبغي وجود المصلحين في كل مجتمع قلوباً أو كثروا، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١١٧) [هود].

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «إِيمَانٌ بِاللَّهِ، وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ»، قُلْتُ: فَأَيُّ الرَّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَغْلَاهَا ثَمَنًا، وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا». قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تُعِينُ صَانِعًا، أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقٍ»، قَالَ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تَدَعِ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَىٰ نَفْسِكَ»^(١).

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصْرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشُّوْكَةَ وَالْعِظَمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلُوكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»^(٢).

٦٥ . كشف خطورة اتباع الكثرة

إنَّ الاغترار بالجمهرة، واتباع الغالبين والكثرة، والسير وراء الأكثرين أمرٌ كائنٌ لا سيما مع وتيرة واحدة يسير عليها الناس؛ فكان من الحكمة في المحن تجلية خطورة اتباع الأكثر

(١) رواه البخاري (٢٥٣٢)، ومسلم (٨٤).

(٢) رواه الترمذي (١٩٥٦) وغيره، وقال: (حديثٌ حسنٌ غريب).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

لكونهم أكثر لا لكونهم على الحق؛ وإن الغوغاء مع الكثرة، وإن الناعقين مع الجمهرة، قال الله تعالى مبيناً حبَّ الناس للغالين: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِينَ (٤٠)﴾ [الشعراء].

وقال عز وجل مبيناً ما حصل من الغالين على خلاف قول الأولين وهم العلماء في الدين فيما يفعلون بأصحاب الكهف: ﴿إِذِ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١)﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في بيان معنى الذين غلبوا على أمرهم: (يعني عدوهم)^(١)، وقال قتادة رحمه الله: (هم الأمراء. أو قال: السلاطين)^(٢)، وقال يحيى بن سلام: (ملوكهم، وأشرفهم)^(٣)، وقال إسماعيل السدي رحمه الله: (قال الملك: لأتخذن عند هؤلاء القوم الصالحين مسجداً، فلا عبُدنَّ الله فيه حتى أموت)^(٤).

(١) رواه ابن جرير (٢١٧/١٥)، وذكر الثعلبي عنه قولاً عكس هذا القول، ولكن بغير مستند.

(٢) نسبه السيوطي في الدر (٣٧٥/٥) إلى تفسير عبد الرزاق.

(٣) تفسيره (١٧٨/١).

(٤) رواه ابن أبي حاتم (١٢٧٥١)، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره (١٤٧/٥): (حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين: أحدهما: أنهم المسلمون منهم. والثاني: أهل الشرك منهم، فالله أعلم. والظاهر: أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ - وَصَالِحِيهِمْ - مَسَاجِدًا» [رواه البخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٥٢٩)] يحذر ما فعلوا، وقد رُوينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق، أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده، فيها شيء من الملاحم وغيرها).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال سبحانه مبيناً خطورة الخبيث وكثرته: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠٠) ﴿[المائدة].

وقال عز وجل: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣) ﴿[يوسف].

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ: يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ، قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةَ وَتِسْعِينَ، قَالَ: فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، {وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}». قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: «أَبْشُرُوا، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، وَمِنْكُمْ رَجُلٌ». ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فَحَمِدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فَحَمِدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَّمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ»^(١).

وعن ابن وهب قال: (كتب إلى عمر عبد العزيز بعض عماله يذكر أن الخراج قد انكسر، فكتب إليه عمر رحمه الله: إن الله يقول: {لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة

(١) رواه البخاري (٣٣٥٠)، ومسلم (٢٢٢/٢٧٩) وهذا لفظه.

عِبْرُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

الخبيث}؛ فإن استطعت أن تكونَ في العدل والإصلاح والإحسان بمنزلةٍ مَنْ كان قبلك في الظلم والفجور والعدوان فافعل، ولا قوة إلا بالله^(١).

وَعَنْ أَبِي الْجَدَلِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (قَرَأْتُ فِي مَسْأَلَةِ دَاوُدَ أَنَّهُ قَالَ: أَيُّ رَبِّ، كَيْفَ لِي أَنْ أَشْكُرَكَ، وَأَنَا لَا أَصِلُ إِلَى شُكْرِكَ إِلَّا بِنِعْمَتِكَ؟ قَالَ: فَآتَاهُ الْوَحْيُ: أَنْ يَا دَاوُدَ، أَلَيْسَ تَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي بِكَ مِنَ النِّعَمِ مِنِّي؟ قَالَ: بَلَى، يَا رَبِّ. قَالَ: فَإِنِّي أَرْضِي بِذَلِكَ مِنْكَ شُكْرًا)^(٢).

٦٦. إظهارُ أن الكثرة لا تنفع في كل الأحوال

في العبرة السابقة تبيّن لنا بالأدلة خطورة اتباع الكثرة، وهنا أذكر ما يدل على أن الكثرة لا تنفع في كل الأحوال؛ فالعبرة بالإيمان، سواء كان ثمّ كثرة أو لا، فالإيمان مع القلة والإمكانات المتاحة سببٌ للنصر والظفر، والخروج من الفتن والمحن، وأما انعدام الإيمان أو ضعفه فهذا يعني الهلاك في الفتن، والوقوع في المحن، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)﴾ [التوبة].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/١٢١٦).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٧٢)، وابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (٥).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال عز وجل مبيناً أن الكثرة والتحالفات المضادة للدين لا تنفعهم: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِنَّ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)﴾ [الأنفال].

عن إسماعيل السُّدِّي رحمه الله قال في تفسير آية الأنفال: (كان المشركون حين خرجوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من مكة، أخذوا بأستار الكعبة، واستنصروا الله، وقالوا: اللهم انصر أعزَّ الجندين، وأكرم الفتتين، وخير القبيلتين؛ فقال الله: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ}، يقول: نَصَرْتُ مَا قُلْتُمْ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم^(١)).

وقال محمد بن السائب الكلبي رحمه الله: (كان المشركون حين خرجوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من مكة -أي إلى بدر- أخذوا بأستار الكعبة، وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفتتين، وأكرم الحزبين، وأفضل الدينين. ففيه نزلت)^(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (إِنَّ هَوَازِنَ جَاءَتْ يَوْمَ حُنَيْنٍ بِالصَّبِيَّانِ وَالنِّسَاءِ وَالْإِبِلِ وَالْغَنَمِ، فَجَعَلُوهُمْ صُفُوفًا؛ لِيُكْثِرُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَالتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْمَشْرِكُونَ، فَوَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

(١) أخرجه ابن جرير (٩٢/١١).

(٢) أسباب النزول للواحدى (٣٩٦).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

صلى الله عليه وسلم: «يا عباد الله، أنا عبد الله ورسوله». ثم قال: «يا معشر الأنصار، أنا عبد الله ورسوله». فهزم الله المشركين، ولم يضرب بسيف، ولم يطعن برمح^(١).

وعن أبي إسحاق رحمه الله قال: (جاء رجل إلى البراء رضي الله عنه، فقال: أكنتم ولئتم يوم حنين يا أبا عمارة؟ فقال: أشهد على نبي الله صلى الله عليه وسلم ما ولى، ولكنّه انطلق أخفاء من الناس وحسراً إلى هذا الحي من هوازن، وهم قوم رمة، فرمؤهم برشق من نبل، كأنها رجل من جرادٍ فأنكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان بن الحارث رضي الله عنه يقود به بغلته، فنزل ودعا واستنصر وهو يقول: «أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب، اللهم نزل نصرك». قال البراء: كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لِلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢).

وعن الحسن البصري رحمه الله مُرسلاً قال: (لَمَّا اجْتَمَعَ أَهْلُ مَكَّةَ وَأَهْلُ الْمَدِينَةِ قَالُوا: الْآنَ - وَاللَّهِ - نُقَاتِلُ حِينَ اجْتَمَعْنَا. فَكَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَالُوا، وَمَا أَعْجَبَهُمْ مِنْ كَثْرَتِهِمْ، فَالْتَقَوْا، فَهَزِمُوا حَتَّى مَا يَقُومُ مِنْهُمْ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، حَتَّى جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينادي أحياء العرب: إِلَيَّ، إِلَيَّ. فوالله، ما يعرج إليه أحد، حتى أعرى موضعه، فالتفت إلى الأنصار وهم ناحية، فناداهم: أيا أنصار الله، وأنصار رسوله، إلي عباد الله، أنا رسول الله. فاجتوا بكون، وقالوا: يا رسول الله، ورب الكعبة، إليك، والله. فنكسوا رؤوسهم

(١) رواه أحمد (١٢٩٧٧)، والحاكم (٢٥٩١)، وقال: (صحيح...)، ووافقه الذهبي، وانظر الصحيحة (٢١٠٩).

(٢) رواه البخاري (٢٨٨١)، ومسلم (١٧٧٦)، واللفظ له.

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

يكون، وَقَدَّمُوا أَسْيَافَهُمْ يَضْرِبُونَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ^(١).

٦٧. الْمِحْنُ تَكْشِفُ أَنَّ مَوْقِدِي الْفِتَنِ هُمُ اللَّاهُثُونَ وَرَاءَ الدُّنْيَا

إِنَّ الْمِحْنَ تَكْشِفُ الَّذِينَ يُوْقِدُونَ نَارَ الْفِتَنِ، وَيَسْتَفِيدُونَ مِنْ دِخَانِهَا، وَمِنْ نَارِهَا، وَمِنْ شَرَارِهَا، يَرِيدُونَ مَا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَالِ وَالجَاهِ وَالْمَنَاصِبِ، وَلِهَذَا تَجِدُهُمْ يَخْطِطُونَ لِلْفِتَنِ، وَيَشْعَلُونَهَا طَلَبًا لِلْمَالِ؛ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ السَّحَرَةِ الَّذِينَ قَدِمُوا أَوَّلَ النَّهَارِ لِلدُّنْيَا، ثُمَّ لَمَّا رَأَوْا الْآيَاتِ قَدِمُوا الْآخِرَةَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ (١١٦) * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَعُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَالْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا نَنْقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾ [الأعراف].

(١) الدر المنثور (٤/١٥٨)، وعزاه إلى ابن المنذر، وروى الحاكم (٢٥٩١) بنحوه عن أنس رضي الله عنه.

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وأخبرنا الله تعالى أن قوم شعيب عليه السلام لما أفلسوا من الحجة، وخافوا ذهاب مكانتهم، لجأوا إلى الفتنة فقالوا ما أخبرنا الله تعالى عنهم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُوذَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ [الأعراف].

وقال عز وجل مبيناً أن إيقاد نار الفتن، وسلوك الغطرسة والتهديد هو سلاح الكفار قديماً وحديثاً، وعلى ذلك يعيشون، وبه يقتاتون: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥)﴾ [إبراهيم].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (كانت الرسل والمؤمنون يستضعفهم قومهم، ويقهرونهم، ويكذبونهم، ويدعونهم إلى أن يعودوا في مللتهم، فأبى الله لرسوله والمؤمنين أن يعودوا في ملّة الكفر، وأمرهم أن يتوكلوا على الله، وأمرهم أن يستفتحوا على الجبابرة، ووعدهم أن يسكنهم الأرض من بعدهم، فأنجز الله لهم ما وعدهم، واستفتحوا كما أمرهم الله أن يستفتحوا)^(١).

(١) أخرجه ابن جرير (١٣/٦١٥).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُخْرَجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ، وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: إِنِّي وَكَلْتُ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَبِالْمُصَوِّرِينَ»^(١).

٦٨. التَّبَيَّنْ بِجَلَاءِ أَنَّ الْجَهْلَ سَبَبُ كُلِّ بَلَاءٍ

مِنْ أَعْظَمِ حِكْمِ تَقْدِيرِ الْفِتَنِ التَّوْضِيحُ الْعَمَلِيُّ بِأَنَّ الْبَلَاءَ سَبَبُهُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ، وَأَنَّ الْجَهَالَاتِ سَبَبُ الْمَهْلَكَاتِ، وَالْوُقُوعُ فِي الْفِتَنِ وَالْبَلَاءَاتِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)﴾ [يوسف: ٨٩-٩٠].

وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أَعْظَمِ سَمَاتِ الْأَبْرَارِ، وَمَنْ أَجَلَّ صِفَاتِ الْأَخْيَارِ، الْإِعْرَاضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ الْأَشْرَارِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣)﴾ [الفرقان].

وَنَحْنُ مَأْمُورُونَ بِالْأَمْرِ بِالْعُرْفِ مَعَ حَسَنِ الْمَقَالَةِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَهْلَةِ وَالْجَهَالَةِ، وَالِاسْتِعَاذَةِ مِنْهُمْ وَمِنْ شَرِّهِمْ، وَشَرِّ نَزَغَاتِهِمْ وَنَزَغَاتِ شَيَاطِينِهِمْ، وَبِالْبَعْدِ عَنِ مَجَالِسِهِمْ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ

(١) رواه الترمذي (٢٧٥٤)، وغيره، وقال: (حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ).

نَزَعُ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) ﴿ [الأعراف].

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا يُحَدِّثُكُمْ بِهِ أَحَدٌ غَيْرِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؛ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَكْثُرَ الْجَهْلُ، وَيَكْثُرَ الزِّنَا، وَيَكْثُرَ شُرْبُ الْخَمْرِ، وَيَقِلَّ الرَّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقِيَمُ الْوَاحِدُ»^(١).

وقال الحسن البصري رحمه الله: (إن هذه الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل)^(٢).

٦٩. تُبَيِّنُ أَهْمِيَةَ الرَّجْوِعِ إِلَى الْحُكْمَاءِ

الفتنُ تجلِّي أهمية الأخذ بقول الحكيم، وإذا كان هذا أمراً ضرورياً في فتنة صغيرة تقع بين الزوجين؛ فكيف إذا صارت فتنة بين عائلتين، أو قبيلتين؛ فضلاً عن مجتمعين؛ فضلاً عن دولتين، أو قطرين، قال الله تعالى في حق الزوجين المختلفين: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)﴾ [النساء].

(١) رواه البخاري (٥٢٢٢).

(٢) طبقات ابن سعد (١٦٦/٧)، حلية الأولياء (٢٤/٩).

والله تعالى أمر بالرجوع إلى الحكيمين في أرنب ونحوه صاده محرم؛ فكيف بما فيه الدماء المعصومة، وما فيه الفتن المتلاطمة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (بُعِثْتُ أَنَا وَمَعَاوِيَةُ حَكَمَيْنِ، فَقِيلَ لَنَا: إِنْ رَأَيْتُمَا أَنْ تَجْمَعَا جَمْعَتُمَا، وَإِنْ رَأَيْتُمَا أَنْ تُفَرِّقَا فَرَّقْتُمَا. وَالَّذِي بَعَثَهُمَا عَثْمَانُ) (١).

وَعَنْ مَيْمُونِ بْنِ مَهْرَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَتَلْتُ صَيْدًا وَأَنَا مُحْرِمٌ، فَمَا تَرَى عَلَيَّ مِنَ الْجَزَاءِ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِأَبِي بَنِي كَعْبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- وَهُوَ جَالِسٌ عِنْدَهُ: مَا تَرَى فِيهَا؟ فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: أَتَيْتُكَ وَأَنْتَ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْأَلُكَ، فَإِذَا أَنْتَ تَسْأَلُ غَيْرَكَ! قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا تُنَكِّرُ؟ يَقُولُ اللَّهُ: {يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ}، فَشَاوَرْتُ صَاحِبِي، حَتَّى إِذَا اتَّفَقْنَا عَلَى أَمْرٍ أَمَرْنَاكَ بِهِ) (٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (لَمَّا اعْتَزَلَتِ الْحَرُورِيُّ، فَكَانُوا فِي دَارِ عَلِيٍّ حِدَتِهِمْ؛ قُلْتُ لِعَلِيِّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَبْرِدْ عَنِ الصَّلَاةِ، لِعَلِّي آتَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فَأَكَلَمَهُمْ. فَأَتَيْتُهُمْ...، قَالُوا: فَمَا جَاءَ بِكَ؟ قُلْتُ: أَخْبَرُونِي مَا تَنْقُمُونَ عَلَى ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَخَتَنِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ؟ قَالُوا: نَنْقُمُ عَلَيْهِ...)

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه (١٢٧٤٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/١٢٠٦-١٢٠٧).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

أَنَّ حَكْمَ الرِّجَالِ فِي دِينِ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]... قلت: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَرَأْتُمْ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ الْمَحْكَمِ، وَحَدَّثْتُمْ مِنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَا تَشْكُونَ؟ أترجعون؟ قالوا: نعم. قلت: أمّا قولكم: إِنَّهُ حَكَمَ الرِّجَالِ فِي دِينِ اللَّهِ. فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، وَقَالَ فِي الْمَرْأَةِ وَزَوْجِهَا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥]. أَنشَدَكُمْ اللَّهُ، أَفَحَكَمَ الرِّجَالُ فِي حَقْنِ دِمَائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ أَحَقُّ أَمْ فِي أَرْبَعِ ثَمَنُهَا رُبْعُ دَرَاهِمٍ؟! قالوا: اللَّهُمَّ فِي حَقْنِ دِمَائِهِمْ وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ. قال: أَخْرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قالوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ...^(١).

وَإِذَا كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ أَحَدُ الْعَشْرَةِ الْمُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ - يَرْجِعُ فِي الْفِتْنَةِ إِلَى مِثْلِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ فَكَيْفَ بغيره، عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: قَالَ سَعْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وَأَنَا وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ مُسْلِمًا حَتَّى يَقْتُلَهُ ذُو الْبَطْنَيْنِ، يَعْنِي: أُسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} فَقَالَ سَعْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً، وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تَقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةً)^(٢).

٧٠. تجلية أهل الزيغ

(١) رواه عبد الرزاق (١٩٨٧٧)، والطبراني في الكبير (١٠٥٩٨)، وبعضه في المسند (٣١٨٧)، وأخرجه الحاكم (٢٦٥٦)، وقال: (حديث صحيح...)، وقال الذهبي: (على شرط مسلم)، وصححه ابن تيمية (٥٣٠/٨).

(٢) رواه مسلم (١٥٨/٩٦).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

إِنَّ اللَّهَ سبحانه أنزل كتابه مشتملاً على المحكمات وهي الأصول وهي الأكثر والأظهر، وفيها بعض المتشابهات وهي التي لم تقع من مآلات الأمور، وكيفيات الغيبات، وجعل ذلك بلاءً ليتجلّى أهل الزيغ، وأكثر ما يظهر أهل الزيغ في الفتن؛ فإن ذلك مرتعهم، والفتن وحلهم؛ بل هم ممن يثيرونها، ويسعون وراءها، قال الله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] (١).

ولهذا لا ينبغي للمؤمنين أن يجالسوا مشيري الفتن، ومحركي الغوغاء، ولا أن يكثروا سوادهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مثلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾ [النساء].

(١) قال محمد بن جعفر بن الزبير رحمه الله: (المُحْكَمَاتُ: حُجَّةُ الرَّبِّ، وَعِصْمَةُ الْعِبَادِ، وَدَفْعُ الْخُصُومِ وَالْبَاطِلِ، لَيْسَ لَهَا تَصْرِيْفٌ وَلَا تَحْرِيفٌ عَمَّا وُضِعَتْ عَلَيْهِ، {وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} فِي الصِّدْقِ، لَهُنَّ تَصْرِيْفٌ وَتَحْرِيفٌ وَتَأْوِيلٌ، ابْتَلَى اللَّهُ فِيهِنَّ الْعِبَادَ كَمَا ابْتَلَاهُمْ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، لَا يُصْرَفْنَ إِلَى الْبَاطِلِ، وَلَا يُحَرَّفْنَ عَنِ الْحَقِّ) أَخْرَجَهُ ابْنُ جُرَيْرٍ (١٩٧/٥)، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٥٩١/٢)، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: {مُحْكَمَاتٌ}: نَاسِخُهُ، وَحَلَالُهُ، وَحَرَامُهُ، وَحُدُودُهُ، وَفَرَائِضُهُ، وَمَا يُؤْمَنُ بِهِ، وَيُعْمَلُ بِهِ. قَالَ: {مُتَشَابِهَاتٌ}: مَنْسُوخُهُ، وَمُقَدَّمُهُ، وَمُؤَخَّرُهُ، وَأَمْثَالُهُ، وَأَقْسَامُهُ، وَمَا يُؤْمَنُ بِهِ، وَلَا يُعْمَلُ بِهِ) أَخْرَجَهُ ابْنُ جُرَيْرٍ (١٩٣/٥).

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىَ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٦٨) ﴿[الأنعام].

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ} حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهَا قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللَّهُ، فَاحْذَرُوهُمْ»^(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا} وَنَحْوِ هَذَا فِي الْقُرْآنِ - قَالَ: (أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَمَاعَةِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الْإِخْتِلَافِ وَالْفُرْقَةِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهَا هَلَكٌ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْخُصُومَاتِ فِي دِينِ اللَّهِ)^(٢).

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (الْمُتَشَابِهَاتُ: آيَاتُ فِي الْقُرْآنِ يَتَشَابَهُنَّ عَلَى النَّاسِ إِذَا قَرَأُوهُنَّ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يَضِلُّ مَنْ ضَلَّ، فَكُلُّ فِرْقَةٍ يَقْرَأُونَ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا لَهُمْ، فَمِنْهَا يَتَّبِعُ الْحُرُورِيَّةُ مِنَ الْمُتَشَابِهَةِ قَوْلَ اللَّهِ: {وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: ٤٤]، ثُمَّ يَقْرَأُونَ مَعَهَا: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعدِلُونَ} [الأنعام: ١]،

(١) رواه أحمد (٢٤٩٢٩)، والترمذي (٣٢٣٦)، وقال: (حديثٌ حسنٌ صحيح).

(٢) أخرجه ابن جرير (٦٦٣/٥).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

فإذا رأوا الإمام يحكم بغير الحق قالوا: قد كفر، فمن كفر فقد عدل بربه، ومن عدل بربه فقد أشرك بربه، فهؤلاء الأئمة مُشْرِكُونَ؟! (١).

وَعَنْ مَعْمَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (كَانَ قِتَادَةٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ} قَالَ: إِنْ لَمْ يَكُونُوا الْحُرُورِيَّةَ وَالسَّيِّئَةَ فَلَا أَدْرِي مَنْ هُمْ؟! وَلَعَمْرِي، لَقَدْ كَانَ فِي أَهْلِ بَدْرٍ وَالْحَدِيثِيَّةِ الَّذِينَ شَهِدُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ خَيْرٌ لِمَنْ اسْتَخْبَرَ، وَعِبْرَةٌ لِمَنْ اسْتَعْبَرَ، لِمَنْ كَانَ يَعْقِلُ أَوْ يُبْصِرُ. إِنَّ الْخَوَارِجَ خَرَجُوا وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ بِالْمَدِينَةِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ، وَأَزْوَاجُهُ يَوْمَئِذٍ أَحْيَاءٌ، وَاللَّهُ، إِنْ خَرَجَ مِنْهُمْ ذَكَرٌ وَلَا أَنْثَى حُرُورِيًّا قَطُّ، وَلَا رَضُوا الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ، وَلَا مَالٌ وَهُمْ فِيهِ، بَلْ كَانُوا يُحَدِّثُونَ بَعِيْبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّاهُمْ، وَنَعْتَهُ الَّذِي نَعْتَهُمْ بِهِ، وَكَانُوا يُبْغِضُونَهُمْ بِقُلُوبِهِمْ، وَيَعَادُونَهُمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَتَشْتَدُّ - وَاللَّهِ - عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ إِذَا لَقَوْهُمْ.

ولعمري، لو كان أمر الخوارج هُدًى لاجتمع، ولكنه كان ضلالاً فتفرق، وكذلك الأمر إذا كان من عند غير الله وجدت فيه اختلافاً كثيراً، فقد ألبسوا هذا الأمر منذ زمان طويل، فهل أفلحوا فيه يوماً أو أنجحوا؟ يا سبحان الله! كيف لا يعتبر آخر هؤلاء القوم بأولهم؟! لو كانوا على هُدًى قد أظهره الله وأفلجته ونصره، ولكنهم كانوا على باطل أكذبه الله وأدحضه، فهم كما رأيتهم؛ كلما خرج لهم قرنٌ أدحض الله حجتهم، وأكذب ألدوثتهم، وأهرق

(١) أخرجه ابن المنذر (٢٢٨).

دِمَاءَهُمْ، وَإِنْ كَتَمُوا كَانَ قَرَحًا فِي قُلُوبِهِمْ، وَغَمًّا عَلَيْهِمْ، وَإِنْ أَظْهَرُوهُ أَهْرَاقَ اللَّهُ دِمَاءَهُمْ، ذَاكُم - وَاللَّهِ - دِينَ سُوءٍ؛ فَاجْتَنِبُوهُ.

وَاللَّهِ، إِنَّ الْيَهُودِيَّةَ لِبِدْعَةٌ، وَإِنَّ النَّصْرَانِيَّةَ لِبِدْعَةٌ، وَإِنَّ الْحُرُورِيَّةَ لِبِدْعَةٌ، وَإِنَّ السَّبَائِيَّةَ لِبِدْعَةٌ، مَا نَزَلَ بِهِنَّ كِتَابٌ، وَلَا سَنَّهَنَّ نَبِيٌّ^(١).

٧١. بيان ضرر المفسدين

إِنَّ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ مِنْ أَعْظَمِ سَبَابِهِ الْفِتَنَ، وَكَلَّمَا وَقَعَتْ فِتْنَةٌ وَقَعَتْ فِي الْأَرْضِ نَوْعٌ فَسَادٌ؛ وَلِهَذَا نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦].

قال محمد بن السائب رحمه الله: (لَا تُفْسِدُوا فِيهَا بِالْمَعَاصِي، وَالِدَعَاءُ إِلَى غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ، بَعْدَ إِصْلَاحِ اللَّهِ إِيَّاهَا بَيَّعَتْ الرِّسْلَ، وَبَيَانَ الشَّرِيعَةَ، وَالِدَعَاءُ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ)^(٢).

وقال أبو بكر بن عياشٍ رحمه الله: (إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَهُمْ فِي فُسَادٍ، فَأَصْلَحَهُمُ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَنْ دَعَا إِلَى خِلَافِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ مِنَ الْمَفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ)^(٣).

(١) أخرجه ابن جرير (٢٠٨/٥).

(٢) تفسير البغوي (٢٣٨/٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٠١/٥).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وذكر الله تعالى نبيه شعبياً عليه السلام وكيف نهى قومه عن الفساد بصوره المتعددة؛ من بخرس أموال الناس بالغش، وتهديد المؤمنين المصلحين بالعذاب؛ فقال سبحانه: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٦].

قال حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (فكانوا - مع ما كان فيهم من الشرك - أهل بخرس في مكابيلهم وموازنينهم، مع كفرهم بربهم وتكذيبهم نبيهم، وكانوا قوماً طغاةً بُغاةً، يجلسون على الطريق، فيبخرسون الناس أموالهم، يعني: يُعشرونه، وكان أول من سن ذلك هم، وكانوا إذا دخل عليهم الغريب يأخذون دراهمه، ويقولون: دراهمك هذه زُيوفٌ. فيقطعونها ثم يشترونها منه بالبخرس، يعني: بالنقصان، فذلك قوله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾^(١)).

وحذر الله تعالى على لسان صالح عليه السلام حيث قال لقومه مبيناً عيشتهم الآمن، وحضارتهم في زروعهم وبنياتهم، وحذرهم من إطاعة أمر المفسدين؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)﴾ [الشعراء]. وأخبرنا الله تعالى عن المفسدين الذين يبحثون عن إثارة الفتن، وإيجاد القلاقل، والتجبر على الخلق، من قوم صالح عليه السلام، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ

(١) أخرجه ابن عساکر في تاريخه (٢٣/ ٧٤-٧٦) مرفقاً.

يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) ﴿النمل﴾.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ أَنَسًا مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ كَانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَنَسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يُصْلِحُ بَيْنَهُمْ) (١).

وَعَنِ الْمَسُورِ بْنِ مَخْرَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أَنَّهُ وَفَدَّ عَلَى مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَيْهِ - حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: سَلَّمْتُ عَلَيْهِ - ثُمَّ قَالَ: مَا فَعَلَ طَعْنُكَ عَلَيَّ الْأَيْمَةَ يَا مَسُورُ؟ قُلْتُ: ارْضُنَا مِنْ هَذَا، أَوْ أَحْسِنْ فِيمَا قَدِمْنَا لَهُ.

قَالَ: لَتُكَلِّمَنَّ بِذَاتِ نَفْسِكَ.

قَالَ: فَلَمْ أَدْعُ شَيْئًا أَعِيبُهُ بِهِ إِلَّا أَخْبَرْتُهُ بِهِ.

قَالَ: لَا أَبْرَأُ مِنَ الذُّنُوبِ؛ فَهَلْ لَكَ ذُنُوبٌ تَخَافُ أَنْ تَهْلِكَ إِنْ لَمْ يَغْفِرَهَا اللَّهُ لَكَ؟

قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: فَمَا يَجْعَلُكَ أَحَقَّ بِأَنْ تَرْجُوَ الْمَغْفِرَةَ مِنِّي، فَوَاللَّهِ لَمَّا أَلِي مِنَ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ، وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْأُمُورِ الْعِظَامِ الَّتِي تُحْصِيهَا أَكْثَرُ مِمَّا تَلِي، وَإِنِّي

(١) رواه البخاري (٢٧٠٧).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

لَعَلِّي دِينَ يَقْبَلُ اللَّهُ فِيهِ الْحَسَنَاتِ، وَيَعْفُو فِيهِ عَنِ السَّيِّئَاتِ، وَاللَّهُ مَعَ ذَلِكَ مَا كُنْتُ لِأَخَيْرِ بَيْنَ اللَّهِ وَغَيْرِهِ، إِلَّا اخْتَرْتُ اللَّهَ عَلَيَّ مَا سِوَاهُ.

قَالَ: فَفَكَّرْتُ حِينَ قَالَ لِي مَا قَالَ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ خَصَمَنِي، فَكَانَ إِذَا ذَكَرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ دَعَا لَهُ بِخَيْرٍ^(١).

٧٢. تبين مضار طاعة الكافرين

إنَّ العامة لتقول: (الذي ليس على دينك لا يُعينك)، وإذا كان هذا متقررًا في نفوس العامة؛ فإن ذلك لقوة ظهور المسألة، وموافقتها للفطرة؛ ولهذا حذرنا الله تعالى من طاعة الكافرين، وما ذاك إلا لضرر ما يترتب على طاعتهم، ومع هذا فقد نرى بعض ضعاف النفوس تميل نفوسهم لطاعته، أو يطيعون تحت مسميات متنوعة، ثم يتبين لهم عند وقوع المحن والفتن مضار طاعتهم بجلاء، وخطورة فعلتهم الشنعاء، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)﴾ [الأحزاب].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال جل وعز: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤)﴾ [الإنسان].

(١) الجامع لمعمر بن راشد (٢٠٧١٧)، مصنف عبد الرزاق (٢١٧٩٤).

وقال جلّ في علاه: ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣)﴾ [القلم].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (سته لا يدخلون الجنة أبداً: العاق، والمُدمن، والجَعَثْلُ، والجَوَّاطُ، والقَتَّاتُ، والعُتْلُ الزَّيْمُ... أما الجَعَثْلُ: فَالْفِظُ الغَلِيظُ، وأما الجَوَّاطُ: فَمَنْ يَجْمَعُ المَالِ وَيَمْنَعُ، وأما القَتَّاتُ: فَمَنْ يَأْكُلُ لِحُومِ النّاسِ، وأما العُتْلُ الزَّيْمُ: فَمَنْ يَمْشِي بَيْنَ النّاسِ بِالنَّمِيمَةِ)^(١).

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)﴾ [المائدة].

عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ - وَهُوَ كَاتِبُ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: (بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا وَالزُّبَيْرُ وَالْمِقْدَادُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَقَالَ: «اتُّبُوا رَوْضَةَ حَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظِعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا». فَأَنْطَلَقْنَا تَعَادِي بَنَاتِ خَيْلِنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِالْمَرْأَةِ فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ! فَقَالَتْ: مَا مَعِيَ كِتَابٌ. فَقُلْنَا: لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَتُلْقِينَ الثِّيَابَ! فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَاتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ

(١) الدر المنثور (٨/٢٤٧)، وعزاه إلى عبد بن حميد.

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا حَاطِبُ، مَا هَذَا؟» قَالَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَمْرًا مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَكَانَ مِمَّنْ كَانَ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَدَقَ». فَقَالَ عُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ! فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَيَّ أَهْلَ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ} ^(١).

٧٣. إظهارُ كذبِ الكافرين، ومخادعتهم للمؤمنين

إِنَّ الْمِحْنَ كَمَا تَجَلَّى الصَّدِيقُ الْوَفِيُّ مِنَ الصَّدِيقِ الدَّعِيِّ؛ فَكَذَلِكَ تَجَلَّى كَذِبُ الْكَافِرِينَ، وَتَكشَفُ مَخَادَعَتُهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَجَلَّى دَسَائِسُهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي بَيَانِ الْحِكْمَةِ مِنَ الْبَعْثِ، وَهُوَ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ فِي الْحِكْمَةِ مِنْ إِيقَاعِ الْفِتْنِ: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩].

وكذلك من حيث إن العبرة بعموم المقال لا بخصوص السبب يصح الاستشهاد على ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام].

(١) رواه البخاري (٣٠٢٣)، ومسلم (٢٤٩٤)، وهذا لفظه.

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قال قتادة رحمه الله: (ولو وصل الله لهم دنيا كدنياهم التي كانوا فيها؛ لعادوا إلى أعمالهم أعمالِ السَّوءِ التي كانوا نُهوا عنها)^(١).

وقال تعالى مبيِّناً الذي ودَّ أهل الكتاب أن يكون عليه المؤمنون بعد هزيمة أحدٍ وما وقع على المسلمين من البلاء والفتنة والقتل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٩) [١].

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (نزلت في نفر من اليهود قالوا للمسلمين بعد وقعة أحد: ألم تروا إلى ما أصابكم؟! ولو كنتم على الحق ما هُزِمْتُمْ، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم)^(٢).

وقال تعالى في صريح مخادعة الكافرين للمؤمنين - لا سيما في وقتن المحن -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَغْيَظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)﴾ [آل عمران].

(١) أخرجه ابن جرير (٢١٢/٩).

(٢) أسباب النزول للواحي ص (٣٥)، ولم يذكر له سنداً.

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رجال من المسلمين يُواصلون رجالاً من يهود؛ لِمَا كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية؛ فأنزل الله فيهم ينهاهم عن مُبَاطَنَتِهِمْ تَخَوُّفَ الْفِتْنَةِ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ)^(١).

وقال عز وجل مبيناً أنهم يعودون إلى الفتن مرة بعد مرة، ولا يتوبون عن أهوائهم بالمرّة:
 ﴿سَتَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً (٩١)﴾ [النساء].

قال قتادة رحمه الله: (كلما عرض لهم بلاء هلكوا فيه)^(٢).

٧٤. تجلية مخاطر المنافقين

إنّ النفاق في نفسه خطرٌ عظيمٌ على الإسلام والمسلمين، وإنّ المنافقين خطرهم كبير وجسيم، ولعل هذا الخطر لا يتبين إلا عند البلايا والفتن، وعند الرزايا والمحن، وهو ما يسمّى اليوم بـ(الطابور الخامس)؛ فهم في بيوتات المسلمين، وبينهم يعيشون، والشدائد تكشفهم، وتكشف خبايا ما في نفوسهم؛ ولهذا حذرنا الله تعالى من طاعة المنافقين، وما ذاك إلا لضرر ما يترتب على طاعتهم، ومع هذا فقد نرى بعض ضعاف النفوس تميل نفوسهم

(١) أخرجه ابن جرير (٧٠٩/٥)، تفسير ابن المنذر (٨٤٣)، وابن أبي حاتم (٤٠٣٥)، وانظر الدر المنثور

(٢/٢٩٩).

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٠٢/٧)، وابن أبي حاتم (١٠٢٩/٣).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمُحَنِّ

لطاعتهم، أو يطيعونهم تحت مسميات متنوعة، ثم يتبين لهم عند وقوع المحن والفتن مضار طاعتهم بجلاء، وخطورة فعلتهم الشنعاء، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)﴾ [الأحزاب].

وقال جلّ في علاه مبيّنًا كذبهم ودعاويهم: ﴿وَسَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة].

قال محمد بن السائب الكلبي رحمه الله: (وذلك حين استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى تبوك في حرّ شديد، وعسرة من الناس، فكره بعض الناس الخروج، وجعلوا يستأذنون في المقام...، ومن ليست به علة، فيأذن لمن شاء أن يأذن، وتخلّف كثير منهم بغير إذن)^(١).

وقال سبحانه محذّرًا من إدخالهم في الصفوف، ومضار طاعتهم بعماء، وخطورة دخولهم في الصفوف لا سيما بالرتب العليا: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)﴾ [التوبة]^(٢).

(١) تفسير ابن أبي زمنين (٢/٢٠٧).

(٢) قال العلامة ابن القيم (٧٥١هـ) رحمه الله: (فلما تركوا الإيمان به وبلقائه وارتابوا بما لا ريب فيه، ولم يريدوا الخروج في طاعته، ولم يستعدوا له، ولا أخذوا أهبة ذلك؛ كره سبحانه انبعاث من هذا شأنه؛ فإن من لم يرفع به وبرسوله وكتابه رأسًا، ولم يقبل هديته التي أهداها إليه على يد أحب خلقه إليه وأكرمهم عليه، ولم يعرف قدر هذه النعمة ولا شكرها، بل بدلها كفرًا؛ فإن طاعة هذا وخروجه مع رسوله يكرهها الله سبحانه، فثبّطه لئلا يقع ما يكره من خروجه، وأوحى إلى قلبه قدرًا وكونًا أن يقعد مع القاعدين. ثم أخبر سبحانه عن الحكمة التي تتعلق بالمؤمنين في تشييط

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال سبحانه مبيناً خطرهم في إظهارهم نصرته الأعداء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَّيْنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢)﴾ [الحشر] (١).

٧٥. كَشْفُ الْمُنَافِقِينَ، وَإِظْهَارُ الْمُدَّعِينَ

إنَّ الشدائد تبين أهل السداد، وتجلي أهل الرشاد، وتظهر قبح المنافقين، ودعاوهم وزيفهم في الدنيا والدين، الذين يدعون حبَّ الدين، ويزعمون حبَّ الأوطان وحبَّ الرحمن، ثم عند البلاء والمحن، وعند قوع الفتن يكشرون عن أنيابهم، ويظهرون مخالبتهم، ومن ذبول المنافقين أهل البدع والأهواء؛ بل رؤسائهم منهم بلا ريب، قال الله تعالى مبيناً أن الابتلاء والفتن سببٌ لظهورهم وكشفهم: ﴿الم (١) أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا

هؤلاء عنهم، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، والخبال: الفساد والاضطراب، فلو خرجوا مع المؤمنين لأفسدوا عليهم أمرهم، وأوقعوا بينهم الاضطراب والاختلاف). شفاء العليل (١/ ٣٣٥).

(١) تنبيه: إنَّ هذه الآيات تبين العلاقات المشبوهة بين المنافقين والكفار، فقد كان المنافقون في الظاهر مع المسلمين، ولكنهم كانوا يوالون أهل الكتاب، فصاروا يظهرون في الخلوات نصرته الكافرين، ويُسرِّون معادة المؤمنين، وهذا النوع من المخاطر والارتباط المتكرر في كل مكان وزمان، له خطرٌ عظيمٌ؛ ولهذا ذكره الرحمن في سورة الحشر التي يتجلى في يومها المكونات، وتتجلى السرائر وتصبح كالمعاينات، ونجد ضعف الإيمان والنفوس والخونة في أمة الإسلام يوالون أعداءهم، ثم تكشف لهم المِحْنُ تخليهم عنهم.

وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) ﴿العنكبوت﴾.

قال إمام المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله: (معناه: أظنّ الذين خرجوا يا محمد من أصحابك من أذى المشركين إياهم، أن تتركهم بغير اختبار، ولا ابتلاء امتحان، بأن قالوا: أمانا بك يا محمد، وصدقناك فيما جئتنا به من عند الله؟ كلا، لنختبرنهم؛ ليتبين الصادق منهم من الكاذب)^(١).

وقال سبحانه مبيّناً أن الفتن التي تقع بقدر الله تعالى ابتلاءً أعظم من فتن الناس؛ كما أن عذابه أعظم، وهذه الفتن تكشف المنافقين بأقوالهم؛ كما أن الآية السابقة دالة على كشفهم بأفعالهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ آلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١)﴾ [العنكبوت].

قال مجاهد بن جبر رحمه الله: (هم أناس آمنوا بالستتهم، فإذا أصابهم بلاء من الناس أو مصيبة في أنفسهم أو في أموالهم فتنوا، فجعلوا ما أصابهم في الدنيا كعذاب الله في الآخرة)^(٢). وقال جل في علاه: ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ

(١) تفسير الطبري (١٨//٣٥٥).

(٢) تفسير مجاهد ص (٥٣٤)، وأخرجه الطبري (١٨//٣٦٥)، وابن أبي حاتم (١٧١٦٩)، وهو في الدر المنثور

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) ﴿آل عمران﴾.

قال محمد بن إسحاق رحمه الله: (أي: أنه لا بُدَّ من الموت، فإن استطعتم أن تدفعوه عن أنفسكم فافعلوا، وذلك أنهم إنما نافقوا وتركوا الجهاد في سبيل الله حِرْصًا على البقاء في الدنيا، وفرارًا من الموت)^(١).

وقال الله تعالى مبيِّنًا خطورة بعض أعمالهم التي ظاهرها الصلاح: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧)﴾ [التوبة].

قال ابن جرير رحمه الله: (والذين ابْتَنُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا لِمَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكُفْرًا بِاللَّهِ لِمُحَادَّتِهِمْ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُفَرِّقُوا بِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِيُصَلِّيَ فِيهِ بَعْضُهُمْ دُونَ مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَعْضُهُمْ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَخْتَلِفُوا بِسَبَبِ ذَلِكَ وَيُفْتَرِقُوا)^(٢).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٤٨٦)، وهو في الدر المنثور (٣٧٠ / ٢).

(٢) أخرجه ابن جرير (٦٧٤ / ١١).

عِبْرُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا عَاهَدَ عَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(١).

وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ؟ فَقَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»^(٢).

٧٦. إظهارُ حشرات المنافقين

إِنَّ المحن كما تكشف المنافقين؛ فإنها والفتن تُظهرُ حشراتهم، ومكونات ما في صدورهم؛ فهذا حال المنافقين وأهل الأهواء، وأصحاب الأغراض، لا سيما بعد انكشاف الفتن، فهم يندمون لما يحصل للمؤمنين من النجاة، ولما يكون للمؤمنين من نظرة صائبة، وعملٍ صالح؛ ولما يكون للمنافقين وأصحاب الأهواء من الخيبة والخسارة، وعدم الظفر، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةً يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣)﴾ [النساء].

(١) رواه مسلم (٢٥٥٣).

(٢) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: (هذا خبرٌ من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافقين أن شهودهم الحرب مع المسلمين - إن شهدوها - لطلب الغنيمَةِ، وإن تخلّفوا عنها فللشكِّ الذي في قلوبهم، وأنهم لا يرجون بحضورها ثوابًا، ولا يخافون بالتخلّف عنها من الله عقابًا)^(١).

وقال عز وجل مبيّنًا خطرَ ما يُحِيكُونَهُ، ومحنة ما يكيدونه، ووجوب الحذر مما يخططونه، وحسراتهم بعد فشل ما يعملونه، وتبيين خطأ ما يقلونه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْتِنُنِي لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)﴾ إِنَّ تُصِبَكَ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) ﴿[التوبة].

قال ابن جرير رحمه الله: (لقد التمس هؤلاء المنافقون الفتنة لأصحابك، يا محمد، التمسوا صدهم عن دينهم، وحرصوا على ردّهم إلى الكفر بالتّخذيل عنه، كفعل عبد الله بن أبي بك وبأصحابك يوم أُحُدٍ، حين انصرف عنك بمن تبعه من قومه، وذلك كان ابتغاءهم ما كانوا ابتغوا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفتنة من قبل)^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلِّ خيرٍ أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله

(١) تفسير الطبري (٧/٢٢٢).

(٢) تفسير الطبري (١١/٤٨٨).

وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(١).

٧٧. إظهارُ خطورة اتباع الهوى

إنَّ المِحْنَ والفتن تكشف مخاطر اتباع الهوى، سواء كان الهوى من جهة القياس بتقديم العقل أو الرأي على النصِّ الجلي، أو مخاطر اتباع الهوى من جهة الذوق والشعور بتقديمه على النصِّ العليِّ، ونحن نعلم أنَّ ابنَ نوحٍ (كنعان) قدَّم عقله على النصِّ فغرق، وقدَّم عامة الكفار والمشركين من قومِ نوحٍ وهودٍ وصالح... قدَّموا أذواقهم ومشاعرهم في اتباع الأهواء فهلكوا جميعاً...، وهكذا كلٌّ من قدم رأيه وعقله أو ذوقه وشعوره فإنه يهلك في الفتن، ولا بد، ويسقط في المِحْنَ ولا محيد.

قال الله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحذر من اتباع هوى أهل الأهواء: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقال سبحانه مبيناً خطرهم حيث يدعون عدم فهم المنزَّل، ويستهوون بالعلم المنقول المُدَلَّل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

أَنفًا أَوْلَيْكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴿محمد﴾.

قال عبد الملك ابن جريج: (كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فيستمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه، ويسمعه المنافقون فلا يعونه، فإذا خرجوا سألوا المؤمنين: ماذا قال أنفا؟ فنزلت) (١).

وَقَالَ أَبُو وَائِلٍ: (لَمَّا قَدِمَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ صِفِّينَ، أَتَيْنَاهُ، نَسْتَخْبِرُهُ؛ فَقَالَ: أَتَيْتُمُ الرَّأْيِيَّ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُرَدَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَهُ لَرَدَدْتُ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) (٢).

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (اتَّهَمُوا الرَّأْيِيَّ عَلَى الدِّينِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَأَنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَأْيِي اجْتِهَادًا إِلَيْهِ مَا أَلُو عَنِ الْحَقِّ، وَالْكِتَابُ يُكْتَبُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «اُكْتُبُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: إِذْ قَدْ صَدَّقْنَاكَ بِمَا تَقُولُ، وَلَكِنَّا نَكْتُبُ كَمَا نَكْتُبُ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَرَضِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبَيْتُ عَلَيْهِمْ، حَتَّى قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ: «تَرَى أَنِّي قَدْ رَضِيتُ وَتَأْبَى؟» قَالَ: فَرَضِيتُ) (٣).

(١) الدر المنثور (٧/٤٦٦)، وقال: أخرج ابن المنذر.

(٢) رواه البخاري (٤١٧٦).

(٣) رواه أحمد في فضائل الصحابة (٥٥٨)، وهو مشهور، قال الإمام الطحاوي رحمه الله بعد ما رواهما مبيناً وجه النهي عن الرأي وتقديم العقل وأنه إنما لا يجوز الاجتهاد في مسألة فيها نص، وأما مسألة لا نص فيها؛ فهذا الذي

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال قتادة رحمه الله: (وإن الله عز وجل علمكم؛ فأحسن تعليمكم، وأدبكم فأحسن تأديبكم؛ فليأخذ رجل بما علمه الله، ولا يتكلف ما لا علم به؛ فيخرج من دين الله، ويكون من المتكلفين، وإياكم والتكلف، والتنطع، والغلو، والاعجاب بالأنفس، تواضعوا لله عز

يجتهد فيه المجتهد دون من سواه؛ فقال رحمه الله: (فَكَانَ مَا فِي حَدِيثِي عُمَرَ وَسَهْلٍ - رضي الله عنهما - هَذَيْنِ؛ عَلَى أَنَّ الرَّأْيَ قَدْ يُصَابُ بِهِ حَقِيقَةُ الصَّوَابِ، وَقَدْ يَقْصُرُ فِيهِ عَن ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ اسْتِعْمَالُ الرَّأْيِ فِي الْحَوَادِثِ الَّتِي لَا تُوْجَدُ الْأَحْكَامُ فِيهَا فِي الْكِتَابِ، وَلَا فِي السُّنَّةِ، وَلَا فِي إِجْمَاعِ الْأُمَّةِ مَنْصُوصًا، وَإِنْ كَانَ قَدْ أُبِيحَ اجْتِهَادُ الرَّأْيِ فِي ذَلِكَ، وَأُطْلِقَ لَنَا الْحَكْمَ بِهِ، قَدْ يَكُونُ فِيهِ إِصَابَةُ الصَّوَابِ فِي تِلْكَ الْحَوَادِثِ، وَقَدْ يَكُونُ التَّقْصِيرُ عَن ذَلِكَ، وَإِنْ كُنَّا مَحْمُودِينَ فِي اجْتِهَادِنَا فِي ذَلِكَ، إِذْ لَا نَسْتَطِيعُ غَيْرَ مَا قَدْ فَعَلْنَاهُ فِيهِ، وَفِي ذَلِكَ مَا قَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَّا فِي كِتَابِنَا هَذَا فِي الْحُكْمِ ذَوِي الْخِلَافِ، إِذَا حَكَمُوا فَأَصَابُوا فَإِنَّ لَهُمْ أَجْرَيْنِ، وَإِذَا حَكَمُوا، فَأَخْطَئُوا، فَإِنَّ لَهُمْ أَجْرًا وَاحِدًا، إِذْ كَانُوا قَدْ اجْتَهَدُوا بِالْأَلَاتِ الَّتِي يُجْتَهَدُ بِمِثْلِهَا، فَأَصَابُوا حَقِيقَةَ الْوَاجِبِ فِيمَا اجْتَهَدُوا فِيهِ، أَوْ قَصَرُوا عَنْهُ، وَهَذَا قَوْلُ أَهْلِ السَّلَامَةِ مِمَّنْ يَنْتَحِلُ الْفِقْهَ، فَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ مِمَّنْ قَدْ دَخَلَ فِي الْغُلُوِّ فِي ذَلِكَ، حَتَّى قَالَ: إِنَّهُ إِذَا حَكَمَ بِالْاجْتِهَادِ، وَمَعَهُ الْأَلَةُ الَّتِي لِأَهْلِهَا اجْتِهَادٌ، أَنَّهُ قَدْ حَكَمَ بِالْحَقِّ الَّذِي لَوْ نَزَلَ الْقُرْآنُ، مَا نَزَلَ إِلَّا بِهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، وَمِنْ أَهْلِهِ، وَإِنْ كَانَ بِحَمْدِ اللَّهِ قَوْلًا مُنْكَسِرًا، وَأَهْلُهُ مَحْجُوجُونَ بِمَا لَا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَهُ، وَلَا الْخُرُوجَ مِنْهُ، فَمِمَّنْ كَانَ غَلَا فِي ذَلِكَ: إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ ابْنِ عَلِيٍّ فَحَدَّثَنِي أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ قَالَ: لَمَّا بَلَغَنِي هَذَا الْقَوْلَ عَنْهُ أَعْظَمْتُهُ، فَأَتَيْتُهُ فِي يَوْمِي الَّذِي بَلَغَنِي ذَلِكَ الْقَوْلَ عَنْهُ فِيهِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، لِأَحَقِّقَ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ قَالَهُ، فَقَالَ لِي: قَدْ قُلْتُهُ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: هَلِ اسْتَعْمَلْتَ فِي مَسْأَلَةٍ مِنَ الْفِقْهِ رَأْيًا، وَاجْتَهَدْتَ فِيهَا، حَتَّى بَلَغْتَ عِنْدَ نَفْسِكَ غَايَةَ الْاجْتِهَادِ الَّذِي عَلَيْكَ فِيهَا ثُمَّ تَبَيَّنَ لَكَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الصَّوَابَ فِي غَيْرِ الَّذِي كَانَ أَدَاكَ إِلَيْهِ اجْتِهَادُكَ فِيهَا؟، فَقَالَ لِي: نَعَمْ، نَحْنُ فِي هَذَا أَكْثَرُ نَهَارًا قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: فَأَيُّ الْقَوْلَيْنِ الَّذِي لَوْ نَزَلَ الْقُرْآنُ نَزَلَ بِهِ فِي تِلْكَ الْحَادِثَةِ، هَلْ هُوَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ الَّذِي قُلْتُهُ فِيهَا، أَوْ هُوَ الْقَوْلُ الثَّانِي الَّذِي قُلْتُهُ فِيهَا، وَقَدْ بَلَغْتَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَوْلَيْنِ الَّذِي عَلَيْكَ أَنْ تَبْلُغَهُ فِيهِ مِنَ الْاجْتِهَادِ؟ قَالَ: فَانْقَطَعَ وَاللَّهِ فِي يَدِي أَقْبَحَ انْقِطَاعٍ، وَمَا رَدَّ عَلَيَّ حَرْفًا قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَقَدْ أَجَادَ أَبُو جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ، وَأَقَامَ لِلَّهِ عِزَّ وَجَلَّ فِي حُجَّةٍ مِنْ حُجَجِهِ عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْهَا، وَغَلَا الْغُلُوَّ الَّذِي كَانَ فِيهِ مَذْمُومًا، وَاللَّهُ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ).

شرح مشكل الآثار (٥٠٣٨).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وجل، لعل الله يرفعكم. قد رأينا -والله- أقوامًا يُسرِعُونَ إلى الفتن، وَيَنْزِعُونَ فيها، وَأَمْسَكَ أقوامًا عن ذلك، هيبَةً لله، ومخافةً منه؛ فلَمَّا انكشفت إِذَا الَّذِينَ أَمْسَكُوا أَطِيبُ نَفْسًا، وَأَثْلَجُ صَدُورًا، وَأَخْفُ ظُهُورًا، مِنَ الَّذِينَ أَسْرَعُوا إِلَيْهَا، وَيَنْزِعُونَ فِيهَا، وَصَارَتْ أَعْمَالُ أَوْلَئِكَ حَزَازَاتٍ عَلَى قُلُوبِهِمْ كَلِمًا ذَكَرُوهَا. وَأَيُّمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ النَّاسَ يَعْرِفُونَ مِنَ الْفِتْنَةِ إِذَا أَقْبَلَتْ كَمَا يَعْرِفُونَ مِنْهَا إِذَا أَدْبَرَتْ لَعَقَلُ فِيهَا جَيْلٌ مِنَ النَّاسِ كَثِيرٌ، وَاللَّهُ مَا بُعِثَتْ فِتْنَةٌ قَطُّ إِلَّا فِي شُبْهَةٍ وَرِيبةٍ إِذَا شَبَّتْ، رَأَيْتَ صَاحِبَ الدُّنْيَا لَهَا يَفْرَحُ، وَلَهَا يَحْزَنُ، وَلَهَا يَرْضَى، وَلَهَا يَسْخَطُ، وَاللَّهُ لَنْ تَشْبَثَ بِالدُّنْيَا، وَحَدَبَ عَلَيْهَا؛ لِيُوشِكَ أَنْ تَلْفِظَهُ، وَتَقْضِي مِنْهُ^(١).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ اثْنَيْنِ: طُولَ الْأَمَلِ، وَاتِّبَاعَ الْهَوَى، فَإِنَّ طُولَ الْأَمَلِ يُنْسِي الْأَخِرَةَ، وَإِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ ارْتَحَلَتْ مُدْبِرَةً، وَالْآخِرَةُ مُقْبِلَةٌ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ)^(٢).

وَعَنْ الْمُقَدَّمِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُوشِكُ الرَّجُلُ مُتَكِنًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِي، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

(١) حلية الأولياء (٢/٣٣٧).

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٢٥٥).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

كِتَابُ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ! أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عِزٌّ وَجَلٌّ»^(١).

٧٨. خطورة ضعف الإيمان

ينبغي على المسلم أن يتعهد إيمانه بالعلم النافع، والعمل الصالح، حتى يدخر صالحاً ليوم تزل فيه الأقدام، وقبل ذلك يعدُّ صالحاً للفتن والمحن التي تصيب الأنام؛ فإن ضعف الإيمان سببٌ للوقوع في الفتنة، وسببٌ للإيلاج في المحنة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَاتَوَّاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدُّبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥)﴾ [الأحزاب].

وقال جلٌّ وعزٌّ مبيناً سببَ زلل بعض الناس، وأنه إنما زلَّ بذنبه الذي كانت سبباً لمزلته في المحنة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾ [آل عمران].

(١) رواه ابن أبي شيبة في مسنده (٩٢٧)، وأحمد (١٧١٩٤)، والدارمي (٦٠٦)، والترمذي (٢٨٥٥) وابن ماجه

(١٢)، وقال الترمذي: (حسنٌ غريب).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قال قتادة رحمه الله: (كان أناسٌ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تولّوا عن القتال، وعن نبي الله عليه السلام يوم أُحُد، وكان ذلك من أمر الشيطان وتخويفه؛ فأنزل الله الآية^(١)). وقال سعيد بن جبير رحمه الله: (يعني: حين تركوا المركزَ، وعصوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، حين قال للرّماة يوم أحد: «لا تبرحوا مكانكم». فترك بعضهم المركزَ)^(٢). وبين جلّ في علاه أنّ المكاسب القبيحة سببٌ للانتكاسات المسيخة؛ فقال: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء].

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا أَخَذَ عَلَى النِّسَاءِ: «أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِيَ، وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا، وَلَا يَعْضَهُ بَعْضُنَا بَعْضًا، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَتَى مِنْكُمْ حَدًّا فَأَقِيمَ عَلَيْهِ فَهُوَ كَفَّارَتُهُ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَأَمْرُهُ إِلَيَّ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»^(٣).

٧٩. إحباط أعمال المفتونين، وزيادة كفر الكافرين منهم

إنّ في المحن وفي ثنايا الفتن حكّم في إحباط أعمال المفتونين، وزيادة في ظهور كفر الكافرين، وعناد المعاندين، وطغيان الطغاة، وضلال الضالين، وفسق الفاسقين، قال الله

(١) تفسير ابن أبي زمنين (١/٣٢٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/٧٩٧).

(٣) رواه البخاري (٧٤٦٤)، ومسلم (١٧٠٩).

تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)﴾ [آل عمران].

قال الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله: (يعني... الذين يكفرون بآيات الله. ومعنى ذلك: إن الذين ذكرناهم هم الذين حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ. يعني: بطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة. فأما قوله: {فِي الدُّنْيَا} فلم يَنَالُوا بها مَحْمَدَةً ولا ثناءً مِنَ النَّاسِ؛ لأنهم كانوا على ضلالٍ وباطلٍ، ولم يَرْفَعِ اللهُ لَهُمْ بها ذِكْرًا، بل لَعَنَهُمْ وهتَكَ أَسْتَارَهُمْ، وأبدى ما كانوا يُخْفُونَ مِنَ قَبَائِحِ أَعْمَالِهِمْ، على ألسنِ أنبيائه ورسله في كُتُبِهِ التي أنزلها عليهم، فأبقى لهم ما بقيت الدنيا مَدْمَمَةً، فذلك حُبُوطُهَا في الدنيا. وأما في الآخرة؛ فإنه أَعَدَّ لَهُمْ فيها مِنَ الْعِقَابِ ما وَصَفَ في كتابه، وأعلم عباده أن أعمالهم تصيرُ بُورًا لا ثوابَ لها؛ لأنها كانت كُفْرًا بالله، فَجَزَاءُ أَهْلِهَا الْخِلُودُ فِي الْجَحِيمِ)^(١).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠)﴾ [البروج].

(١) تفسير الطبري (٥/٢٩٢).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قال الحسن البصري رحمه الله: (كان أصحاب الأعداء خدوا أخذوداً، وملئوها ناراً، فألقوا فيها من آمن بالله، وتركوا من كفر، فألقوا بضعةً وثمانين مؤمناً حتى أتوا على عجوز كبيرة وابنها خلفها صبي صغير، فلما رأت النار كيف تأخذهم جزعت، قالت: يا بني، أما ترى! قال لها ابنها: يا أمته، امضي ولا تُناقِني. فمضت، واقتحم ابنها على أثرها، قال الحسن: كانت لذعة نار، لا نار عليهم آخر ما عليهم. ثم قال: يا سبحان الله! ما أحلم الله! إنهم يُعذبون أولياءه بالنار، وهو يدعوهم إلى التوبة! ثم قرأ: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} يقول: أحرقوا المؤمنين والمؤمنات، ثم لم يتوبوا، أي: فلو تابوا لتاب الله عز وجل عليهم^(١).

وقال جل في علاه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)﴾ [الأعراف].

قال الطبري رحمه الله: (إن الله تعالى ذكره أخبر أنه سيصرف عن آياته، وهي أدلته وأعلامه على حقيقة ما أمر به عباده، وفرض عليهم من طاعته في توحيدِه وعدله وغير ذلك من فرائضه، والسموات والأرض وكل موجود من خلقه فمن آياته، والقرآن أيضاً من آياته. وقد عم بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحق، وهم الذين حقت عليهم

(١) تفسير مجاهد ص (٧١٨).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

كلمة الله أنهم لا يؤمنون، فهم عن فهم جميع آياته والاعتبار والادكار بها مصروفون؛ لأنهم لو وفقوا لفهم بعض ذلك، وهدوا للاعتبار به؛ لاتعظوا وأنابوا إلى الحق، وذلك غير كائن منهم؛ لأنه جل ثناؤه قال: **{وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا}**. ولا تبديل لكلمات الله^(١).

٨٠. الفتن تعلم العبد الحذر من الشبهات

إن المفتون يتبع الشبهات حتى يقع في فتنة ليس له منها مخرج، ويستسهل أمر دينه حتى يقع في فخاخ المضلات، قال الله تعالى: **{فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}** [آل عمران: ٧].

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: (تأويل الكلام إذن: إن الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، هو الذي أنزل عليك يا محمد القرآن، **{منه آيات مُحكمات}** بالبيان، هن أصل الكتاب الذي عليه عمادك وعماد أمتك في الدين، وإليه مفرعك ومفرعهم فيما افترضت عليك وعليهم من شرائع الإسلام، وآيات أخر هن **{متشابهات}** في التلاوة، مختلفات في المعاني...، وما احتمل من التأويل أوجهًا...، وما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم، عند التكرير في السور، بقصه باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني، وبقصه باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني...، وقال في المتشابه من القرآن: من يرد الله به البلاء والضلالة يقول: ما شأن هذا لا يكون هكذا؟ وما شأن هذا لا يكون هكذا؟... **{فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ}**

(١) تفسير الطبري (١٠/٤٤٣-٤٤٤).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

يَعْنَى بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَيْلٌ عَنِ الْحَقِّ وَانْحِرَافٌ عَنْهُ، يُقَالُ مِنْهُ: زَاغَ فُلَانٌ عَنِ الْحَقِّ، فَهُوَ يَزِيغُ عَنْهُ زَيْغًا...، {فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ}: مَا تَشَابَهَتْ أَلْفَاظُهُ وَتَصَرَّفَتْ مَعَانِيهِ بِوَجْهِهِ التَّأْوِيلَاتِ؛ لِيُحَقِّقُوا بِادِّعَائِهِمُ الْأَبَاطِيلَ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ فِي ذَلِكَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالزَّيْغِ عَنِ مَحَجَّةِ الْحَقِّ، تَلْبِيسًا مِنْهُمْ بِذَلِكَ عَلَى مَنْ ضَعُفَتْ مَعْرِفَتُهُ بِوَجْهِهِ تَأْوِيلِ ذَلِكَ وَتَصَارِيفِ مَعَانِيهِ^(١).

وَأَخْبَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِ مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)﴾ [الأعراف].
قال السُّدِّيُّ رحمه الله: (يعملوا بأحسن ما يجدون فيها)^(٢).

وقال عز وجل أمرًا اتَّبَعَ الْأَحْسَنِ مِنَ الْمَنْزِلِ دُونَ الْمُتَشَابِهِ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨)﴾ [الزمر].

(١) تفسير الطبري (٥/١٨٨-٢٠٤).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٠/٤٤٠).

عِبْرُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قال مقاتل بن سليمان رحمه الله: (أهل اللبّ والعقل حين يستمعون؛ {فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}، من أمره ونهيه، يعني: أحسن ما فيه من أمره ونهيه، ولا يتبعون السوء الذي ذكره عن غيرهم)^(١).

وَعَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ - وَأَهْوَى النَّعْمَانُ بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ -: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرِضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٢).

وقال عليّ رضي الله عنه: (إنّ الفتنه إذا أقبلت شبّهت، وإذا أدبرت أسفرت، وإنّما الفتن تحوم كحوم الرياح، يُصَبْنُ بِلَدًّا وَيَخْطُنُ آخِرًا)^(٣).

٨١. الفتن تُربّي على ترك مواطن الشبهات والشهوات

عندما ينظرُ العاقل سببَ هلاكٍ كثيرٍ من المفتونين يدرك أن من أسباب ذلك وجودهم في مواطن الشبهات والشهوات، وفي مواطن الرّيبِ والشكِّ والمنكرات، أو كونهم حاموا حول

(١) تفسير مقاتل (٣/٦٧٣).

(٢) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٤٠٥٣٥) بسندٍ صحيح.

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

الحمى، ومن حامى حول الحمى وقع فيه - كما هو منصوص الحديث السابق، حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما-؛ فالواجب على المسلم الذي يريد السلامة من الفتن، والنجاة من المحن، أن يتعد عن مواطن الشبهات، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾ [النساء].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (دخل في هذه الآية كلُّ مُحَدِّثٍ في الدين، وكلُّ مُبْتَدِعٍ إلى يوم القيامة)^(١).

وقال أبو جعفر الطبري رحمه الله: (وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع؛ من المبتدعة والفسقة، عند خوضهم في باطلهم. وبنحو ذلك كان جماعة من الأئمة الماضين يقولون، تأولوا منهم هذه الآية، أنه مراد بها النهي عن مشاهدة كل باطل عند خوض أهله فيه)^(٢).

وقال سبحانه أمرًا نبيه صلى الله عليه وسلم - وغيره أولى-: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨)﴾ [الأنعام].

(١) تفسير الثعلبي (٣/٤٠٣)، والبغوي (٢/٣٠١).

(٢) تفسير الطبري (٧/٦٠٣).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عن أبي جعفر محمد بن علي رحمه الله قال: (لا تُجَالِسُوا أَهْلَ الْخِصُومَاتِ؛ فَإِنَّهُمْ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ) (١).

ولهذا صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من أوجه متعددة ضرورة البعد عن الفتنة، ولا يكون ذلك كذلك إلا بترك مواطنها، والبعد عن عواصفها، وإن لم يمكن ذلك فلزوم قعر البيوت، وسراديبها، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يَصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي». قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «كونوا أحراساً ببيوتكم» (٢).

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَمِعَ مِنْكُمْ بِخُرُوجِ الدَّجَالِ فَلْيُنَأْ عَنْهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، فَمَا يَزَالُ بِهِ حَتَّى يَتَّبِعَهُ مِمَّا يَرَى مِنَ الشُّبُهَاتِ» (٣).

٨٢. تَعَلَّمِ الْإِنْسَانَ خَطُورَةَ الشَّهَوَاتِ

(١) أخرجه ابن جرير (٣١٤/٩)، وأبو نعيم في الحلية (١٨٤/٣) ..

(٢) رواه أحمد (١٩٦٦٢)، وأبو داود (٤٢٦٢)، وصححه لغيره الألباني في الترغيب، وقال: (وفي هذا المعنى

أحاديث كثيرة في الصحاح وغيرها).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٤٠٢٤٥)، وأحمد (١٩٨٧٥)، وأبو داود (٤٣١٩)، وهو حديث صحيح.

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِخْنِ

إنَّ الشُّبُهَاتِ إِذَا كَانَتْ تُضَعْفُ البصيرةُ أو تعميها؛ فإن الشهوات أيضًا تُضَعْفُ البصيرة، وتُضَعْفُ إرادة العبد؛ فيكون سهل المنال، قريب الوقوع في الوحال، ومن جملة ذلك وحال الفتن، لا سيما التي فيها بريق الشهوات ظاهرة، ولمعان الشهوات بادية، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (٢٧) [النساء].

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: (والله يريد أن يرجع بكم طاعته، والإنابة إليه؛ ليغفوَ لكم عما سلف من آثامكم، ويتجاوز لكم عما كان منكم في جاهليّتكم؛ من استحلالكم ما هو حرامٌ عليكم من نكاحِ حلائلِ آبائكم وأبنائكم، وغير ذلك مما كنتم تستحلُّونه وتأتونه، مما كان غير جائزٍ لكم إتيانه من معاصي الله، {ويُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ}، يقول: ويريد الذين يطلبون لذات الدنيا وشهوات أنفسهم فيها {أَنْ تَمِيلُوا} عن أمرِ الله تبارك وتعالى، فتجوروا عنه بإتيانكم ما حرّم عليكم، وركوبكم معاصيه، {مَيْلًا عَظِيمًا} جورًا وعدولًا عنه شديدًا)^(١).

ومما يدل على خطورة الشبهات، ويظهر ذلك المِخْنُ، ويجلي خطورتها على الإنسان الفتن، قول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَآءِ (١٤)﴾ [آل عمران].

(١) تفسير الطبري (٦/٦٢٢).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: (جميع ما ذُكِرَ في هذه الآية مِنَ النساءِ والبنينَ، والقناطرِ المقنطرة مِنَ الذهبِ والفضةِ، والخيلِ المسومةِ، والأنعامِ والحرثِ...، {ذَلِكَ}... يُكْنَى به عن جميع ذلك. وأما قوله: {مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}؛ فإنه خبرٌ مِنَ اللَّهِ عن أن ذلك كله مما يَسْتَمْتَعُ به في الدنيا أهلها أحياءً، فَيَتَبَلَّغُونَ به فيها، وَيَجْعَلُونَهُ وُضْعَةً في معاشِهِمْ، وسبباً لقضاءِ شَهَوَاتِهِمْ، التي زُيِّنَ لَهُمْ حُبُّهَا في عاجِلِ دُنْيَاهُمْ، دونَ أن يَكُونَ عُدَّةً لِمَعَادِهِمْ، وقُرْبَةً لَهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ، إِلَّا مَا أُسْلِكَ في سَبِيلِهِ، وَأُنْفِقَ مِنْهُ فيما أَمَرَ به) (١).

ومن ضَمِنَ ما بينَ لِحْيَيْهِ ورجليه ضمن رسول الله صلى الله عليه وسلم له الجنة، مما يدل على نجاته من الفتن، وبعده عن المحن؛ كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لِحْيَيْهِ، وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ» (٢).

٨٣. الفتن تكشف أثر المعاصي في ضعف الأمة

إن الناظر إلى الفتن حيث وقعت، وإلى المحن حيث حلت، يجد أن سببها ضعف الأمة، وضعف الأمة ناشئ إما عن ضعف علمي، أو عن ضعف عملي، أو هما معاً، وبناءً على ذلك تكون المصائب والمعائب بينهم منتشرة، والذنوب والمعاصي فيهم ظاهرة أو مستفحلة؛

(١) تفسير الطبري (٥/٢٦٧).

(٢) رواه البخاري (٦٤٨٢).

فبذلك يستوجبون العقوبات، ويستحقون ما ينزل بهم من البليات؛ فهذا سنة الله في الكون، ما وقع ذنبٌ إلا ببلاء، ولا رفع إلا بتوبة، وهذا ظاهرٌ على الأمة المرحومة، بخلاف الكافرين فإن الله يمهّلهم حتى يأخذهم أخذة فيها نهايتهم، وبعدها حسابهم الشديد يوم القيامة مما فيه محتتهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٠) [الشورى].

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: (ما من عبدٍ مسلمٍ يذنب ذنباً فيأخذه الله به في الدنيا فيعاقبه به إلا كان الله عز وجل أكرم من أن يعود في عقوبته يوم القيامة، وما من مسلمٍ يذنب ذنباً فيغفر الله عنه في الدنيا إلا كان الله أكرم من أن يعود في عقوبته يوم القيامة فيما عفا عنه)^(١). وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٥) [آل عمران].

عن ابنِ عمر رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيْتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَىٰ دِينِكُمْ»^(٢).

وَعَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أَفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ عَلَىٰ قِصْعَتِهَا».

(١) أخرجه البزار كما في البحر الزخار (٤٨٣).

(٢) رواه أبو داود (٣٤٦٢)، وغيره، وهو حديث صحيح بطرقه؛ كما في الصحيحة (١١).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ قَلَّةِ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُنَاءً كَغُنَاءِ السَّيْلِ، تُتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيُجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنُ». قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الْحَيَاةِ، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»^(١).

وَعَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (مَا نَزَلَ بَلَاءٌ إِلَّا نَزَلَتْ مَعَهُ رَحْمَةٌ، فَيَكُونُ نَاسٌ فِي الرَّحْمَةِ، وَنَاسٌ فِي الْبَلَاءِ)^(٢).

وَقَالَ كُثُومُ بْنُ جَوْشَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (سَمِعْتُ أَنَّ الْبَلَايَا إِذَا نَزَلَتْ شَاهَدَتْهَا الْأَعْمَالُ، فَكَانَتْ لِلْمُؤْمِنِ أَجْرًا تَمَحِيصًا، وَكَانَتْ لِلْكَافِرِ مَحْقًا)^(٣).

وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (لَمَّا افْتَتَحَ الْمُسْلِمُونَ قُبْرُصَ وَفَرَّقَ بَيْنَ أَهْلِهَا، فَفَعَدَ بَعْضُهُمْ يَبْكِي إِلَى بَعْضٍ، وَبَكَى أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فَقُلْتُ: مَا يُبْكِيكَ فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَذَلَّ الشُّرْكَ وَأَهْلَهُ؟ قَالَ: دَعْنَا مِنْكَ يَا جُبَيْرُ، مَا أَهْوَنَ الْخَلْقَ عَلَى اللَّهِ عِزُّ وَجَلُّ إِذَا تَرَكُوا أَمْرَهُ، بَيْنَا هُوَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ قَادِرَةٌ إِذْ تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ عِزُّ وَجَلُّ فَصَارُوا إِلَى مَا تَرَى)^(٤).

(١) رواه أحمد (٢٢٣٩٧) بإسناد حسن، وأبو داود (٤٢٧٩).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٧٨)، وهذا يعني أن أهل الطاعة مرحومون في وقت الفتن والمحن والبلايا،

ولو كانت فيها مهلكتهم؛ فهم مرحومون عند الله تعالى.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٧٧).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢).

٨٤. تكشف ضرورة ترك الظلم، واجتناب الاعتداء والمظالم

إنَّ الواقعَ خيرٌ شاهدٍ على أن المحن والفتن من أعظم أسبابها فشوَّ الظلم، وانتشار المظالم، وظهور الاعتداء، وعدم من يمنع ذلك من الحكام والأمراء؛ فذلك سبب لنزول العقوبات العامة، قال عزَّ وجلَّ مبيناً قربَ عقوباته من المبدلين الظالمين: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة].

وقال سبحانه مبيناً خطورة ترك الظالمين يمرحون ويفعلون ما يفعلون: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾ [الأعراف].

وقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٨٩-١٩٠].

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: (وقاتلوا أيها المؤمنون في سبيل الله -وسبيله: طريقه الذي أوضحه، ودينه الذي شرعه لعباده-)، يقول لهم جلَّ ثناؤه. وقاتلوا في طاعتي، وعلى ما شرعت لكم من ديني، وادعوا إليه من ولى عنه واستكبر، بالأيدي والألسن، حتى يئيبوا إلى طاعتي...، وأمرهم جلَّ ثناؤه بقتال من كان فيه قتال من مقاتلة أهل الكفر، دون من لم يكن

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

فيه قتال، من نسايتهم وذرائيتهم، فانهم اموالٌ وخولٌ لهم، اذا غلب المقاتلون منهم فقهرُوا^(١).

عن انس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». فقال رجل: يا رسول الله، انصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف انصره؟! قال: «تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره»^(٢).

وعن جابر رضي الله عنه قال: اقتتل غلامان غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار، فنادى المهاجر أو المهاجرون: يا للمهاجرين، ونادى الأنصاري: يا للأنصار. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ما هذا دعوى أهل الجاهلية؟! قالوا: لا يا رسول الله إلا أن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر قال: «فلا بأس ولنصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره»^(٣).

٨٥. تجلّي الظالمين وتظهر بغيهم

(١) تفسير الطبري (٣/٢٩٢).

(٢) رواه البخاري (٦٩٥٨).

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٤).

كم من إنسانٍ يُظهرُ أنه عادلٌ فلما تمكَّن أو مُكَّن، أو صار له مَكْنَة واستمكن، أو انفلت الأمرُ ووقعت الفتنة، أصبح ظالماً، وأمسى ظالماً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠-٣١].

وبين الله تعالى أنه فرض القتال لدفع الفتنة عن المظلومين، ولصد عدوان الظالمين؛ فقال سبحانه: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

قال إمام المفسرين ابن جرير رحمه الله: (قال النبي الذي سأله أن يبعث لهم ملكاً يُقاتلوا في سبيلِ الله: {هَلْ عَسَيْتُمْ}: هل تَعِدُونَ {إِنْ كُتِبَ} يعني: إن فُرِضَ عليكم القتال، {أَلَّا تُقَاتِلُوا} يعني: أَلَّا تَفُؤُوا بما تَعِدُونَ الله من أنفسكم من الجهادِ في سبيله، فإنكم أهل نُكْثٍ وِعَدْرٍ، وِقْلَةٍ وفاءٍ بما تَعِدُونَ...؛ فلما فُرِضَ عليهم قتالُ عدوِّهم والجهادُ في سبيله...، يقول: أدبروا مَوَلِّينَ عن القتالِ، وضيعوا ما سأله نبيهم من فرضِ الجهادِ...، والله ذو علمٍ بمن ظلم منهم نفسه، فأخلف الله ما وعده من نفسه، وخالف أمرَ ربِّه فيما سأله ابتداءً أن يُوجِبَه عليه)^(١). وإن هذه المِحْن تبيِّن أهل البغي والتجاوز، قال الله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

(١) تفسير الطبري (٤/٤٤٢-٤٤٧).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال سبحانه: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران].

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: ((وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه))، يعني: بني إسرائيل، أوتوا الكتاب والعلم، {بغيا بينهم} يقول: بغيا على الدنيا وطلب ملكها وزخرفها، أيهم يكون له الملك والمهابة في الناس، فبغى بعضهم على بعض، فضرب بعضهم رقاب بعض. {فهدى الله الذين آمنوا}، يقول: فهداهم الله عند الاختلاف أنهم أقاموا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف؛ أقاموا على الإخلاص لله وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، واعتزلوا الاختلاف، فكانوا شهداء على الناس يوم القيامة؛ على قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وآل فرعون، وأن رسلهم بلغتهم، وأنهم كذبوا رسلهم^(١).

وقال جل وعز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣].

عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»^(٢).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٩٩٠-١٩٩٣).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٦٧٩) وغيره، وقال: (حديث صحيح).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُضْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُضْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»^(١).

وَعَنْ عِيَاضِ الْمُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ خَطِيبًا فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»^(٢).

وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (مَا مِنْ عِبَادَةٍ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ، وَمَا يَدْفَعُ الْقَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَإِنْ أَسْرَعَ الْخَيْرُ ثَوَابًا الْبِرِّ، وَأَسْرَعَ الشَّرُّ عُقُوبَةَ الْبَغْيِ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ عَيْبًا أَنْ يُبْصِرَ مِنَ النَّاسِ مَا يَعْمَى عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَأَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ بِمَا لَا يَسْتَطِيعُ التَّحَوُّلَ عَنْهُ، وَأَنْ يُؤْذِيَ جَلِيسَهُ بِمَا لَا يَعْنِيهِ)^(٣).

عن رجاء بن حيوة رحمه الله: (أنه سمع قاصًا في مسجد منى يقول: ثلاثٌ خلالٍ هُنَّ عَلَى مَنْ عَمِلَ بِهِنَّ: الْبَغْيُ، وَالْمَكْرُ، وَالنَّكَثُ، قال الله: {إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ}، {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر: ٤٣]، {فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ} [الفتح: ١٠].

(١) رواه مسلم (١١٨).

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) الدرر للسيوطي (٤ / ٣٥٣) وذكره أنه أخرج أبو نعيم في الحلية.

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

ثم قال: ثلاثٌ خلالٍ لا يُعَذِّبُكُمُ اللهُ ما عملتم بهنَّ: الشكرُ، والدعاءُ، والاستغفارُ. ثم قرأ: {مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ} [النساء: ١٤٧]، {وما كان اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: ٣٣] (١).

٨٦. الفتن تعلم أن ترك الأمر بالمعروف سبب لعموم البلاء

إنَّ الفتن لتتجلَّى أن سببها ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فاستسهل الناس المنكرات؛ فكانت سبباً في وقوع العذاب والمهلكات، سواء كانت سماوية أو أرضية أو آفاقية أو سببية، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إلی رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)﴾ [الأعراف].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (نجا الناهون، وهلك الفاعلون، ولا أدري ما صُنِعَ بالسَّاكِتِينَ) (٢).

(١) أخرجه البيهقي (٦٦٧٤)، وزُوي مرفوعاً كما في الدر (٣٢٥ / ٤)، ولا يصح.

(٢) أخرجه ابن جرير (٥٢١ / ١٠).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وأخبر الله تعالى أنه لا يضر العبد ضلال من ضلَّ إذا اهتدى، ومن الاهتداء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾ [المائدة].

عَنْ قَيْسٍ قَالَ: قَامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة: ١٠٥]، وَإِنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، أَوْ شَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ»^(١).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ يَبْعَثُ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ، فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ»^(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ؛ فَتَسْتَحِلُّوا مُحَارِمَ اللَّهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ»^(٣).

٨٧. تَبَيَّنَ أَنَّ الْخِلَاصَ فِي الْإِخْلَاصِ

(١) رواه أحمد (١)، وأبو داود (٤٢٢٨) بإسنادٍ صحيح.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٠٩)، وغيره، وقال: (حديثٌ حسنٌ).

(٣) أخرجه ابن بطة في إبطال الحيل ص (٤٦٠٤٧) قال ابن تيمية (إسنادٌ حسنٌ...) الفتاوى الكبرى (٤/٢٠).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

إنَّ الفتن مدرسةٌ تجلِّي الصابرين كما سبق، وتبين المخلصين كما هو محقق، فالنجاة إنما يكون بالإخلاص، وأعظمُ الفتن فتنة إبليس وأعدائه، وقد جاء الخبر بخلاصهم من شباكهم بإخلاصهم، قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)﴾ [الحجر].^(١)

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: (وعنى بقوله: {لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ}: لأُحَسِّنَ لَهُمْ معاصيك، ولأُحَبِّبَنَّهَا إِلَيْهِمْ فِي الْأَرْضِ، {وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} يقول: وَلَا ضَلَّيْنَهُمْ عَنْ سَبِيلِ الرِّشَادِ. {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} يقول: إِلَّا مَنْ أَخْلَصَتْهُ بِتَوْفِيقِكَ فَهَدَيْتَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّنْ لَا سُلْطَانَ لِي عَلَيْهِ، وَلَا طَاقَةَ لِي بِهِ. وَقَدْ قُرِئَ: {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}; فَمَنْ قَرَأَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَعْنِي بِهِ: إِلَّا مَنْ أَخْلَصَ طَاعَتَكَ، فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ لِي عَلَيْهِ، وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ)^(٢).

(١) نقل ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٤/ ١٢٦ - ١٢٧) عن ابن الجوزي في معنى الآية ثلاثة أقوال (الأول: أنه يعني بقوله هذا: الإخلاص، فالمعنى: أن الإخلاص طريق إليّ مستقيم، و {عَلَيَّ} بمعنى: إِلَيَّ. الثاني: هذا طريق عليّ جَوَازُهُ، لأنِّي بالمرصاد فأجازيهم بأعمالهم، وهو خارج مخرج الوعيد، كما تقول للرجل تخاصمه: طريقك عليّ، فهو كقوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر: ١٤]. الثالث: هذا صراطٌ عليّ استقامته، أي: أنا ضامنٌ لاستقامته بالبيان والبرهان).

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ٨٦-٦٩).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

وقد أخبر الله تعالى كيف أنه نجى نبيّه يوسف من فتنة النساء، وبين أن ذلك لما سبق من إخلاصه في الجهر والخفاء؛ فقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

قال إمام المفسرين ابن جرير رحمه الله: (اختلفت القراءة في قراءة ذلك؛ فقراءته عامة قراءة المدينة والكوفة: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} بفتح اللام من المخلصين، بتأويل: إن يوسف من عبادنا الذين أخلصناهم لأنفسنا، واخترناهم لنبوتنا ورسالتنا. وقرأ بعض قراءة البصرة: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} بكسر اللام بمعنى: إن يوسف من عبادنا الذين أخلصوا توحيدنا وعبادتنا، فلم يشركوا بنا شيئاً، ولم يعبدوا شيئاً غيرنا.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان، قد قرأ بهما جميعاً جماعة كثيرة من القراء، وهما متقاربتا المعنى، وذلك أن من أخلصه الله لنفسه فاختره، فهو مخلص لله التوحيد والعبادة، ومن أخلص توحيد الله وعبادته، فلم يشرك بالله شيئاً، فهو ممن أخلصه الله، فبأيتهما قرأ القارئ فهو للصواب مصيب^(١).

وهذا الخلوص بسبب الإخلاص يمتد بعد الموت إلى يوم القيامة، قال عز وجل: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦)﴾ [ص: ٢].

(١) تفسير الطبري (١٣/١٠٠-١٠١).

(٢) قال ابن عطية رحمه الله (٧/٣٥٦) في معنى الآية: (ويحتمل أن يريد بـ {الدار} دار الدنيا على معنى: ذكر الثناء والتعظيم من الناس، والحمد الباقي الذي هو الخلد المجازي، فتجيء الآية في معنى قوله: {لسان صدق} [الشعراء: ٨٤]، وفي معنى قوله: {وتركنا عليه في الآخرين} [الصفات: ٧٨، ١٠٨، ١٢٩]).

٨٨. تعليم أنّ الفقر والغنى والصحة والعافية والأمن والخوف من الله

قد يظن الغني بطغيانه أنّ غناه حقٌّ لازمٌ، وقد يظنُّ المعافى أنّ عافيته بحوله، وقد يظنُّ الآمن أنّ أمنه بقوّته، ولكن الفِتْنُ تُجَلِّي أنّ كل شيء بقدره الله تعالى وقوته، وأنّ الفقر والغنى والعافية كل ذلك بتقدير الله تعالى القائل: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

عن إسماعيل السّدي رحمه الله قال: (والحسنة: الخصب؛ تنتج خيولهم، وأنعامهم، ومواشيهم، وتحسن حالهم، وتلد نساؤهم الغلمان. قالوا: هذه من عند الله...، والسيئة: الجذب، والضرر في أموالهم، وتآشّموا بمحمد صلى الله عليه وسلم، قالوا: هذه من عندك، يقولون: بتركنا ديننا، واتباع محمد أصابنا هذا البلاء. فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(١)).

قال عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما: (الحسنة والسيئة من عند الله، أمّا الحسنة فأنعم بها عليك، وأمّا السيئة فابتلاك الله بها)^(٢).

وبيّن الله تعالى أنّ الغنى والفقر ليس علامة على الرضا والقبول؛ بل ذلك كلّهُ ابتلاء؛ فكَذَلِكَ مِثْلَاتِهَا، مِنَ الصَّحَّةِ وَالسَّقْمِ، وَمِنَ الْأَمْنِ وَالْخَوْفِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/١٠٠٨-١٠٠٩).

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/٢٤٠).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا ﴿ [الفجر: ١٥-١٧].

عن مجاهد بن جبر رحمه الله قال: (ظَنَّ كَرَامَةَ اللَّهِ فِي كَثْرَةِ الْمَالِ، وَهُوَ أَنَّهُ فِي قَلَّتِهِ، وَكَذَّبَ، إِنَّمَا يُكْرَمُ بِطَاعَتِهِ مَنْ أَكْرَمَ، وَيُهَيَّنُ بِمَعْصِيَتِهِ مَنْ أَهَانَ).^(١)

وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: (كَلَّا، أَكْذَبْتَهُمَا جَمِيعًا مَا بِالْغِنَى أَكْرَمَكَ، وَلَا بِالْفَقْرِ أَهَانَكَ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ بِمَا يُهَيَّنُ؛ بَلْ لَا يَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ، الْآيَةُ)^(٢).

قال سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

عَنْ عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَبْشِرُوا، وَأَمَلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ»^(٣).

٨٩. الفتنُ تبين من يرفعُ كلمةَ الله تعالى حقيقة

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٩٢٧٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٩٢٧١).

(٣) رواه البخاري (٣١٦٧)، ومسلم (٢٩٦١).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

إنَّ المتاجرين بالشعارات يستغلون الناس بالهتافات، ويرفعون الشعارات الزائفة، وتتجلى الزيوف في الفتن، وتظهر المتاجرات في المحن، ويتبين حقيقة من يهتم برفع راية الإسلام، وتنكشف من هو متلبس بذلك، قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾ [التوبة].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال في الآية: (وذلك أن المشركين قالوا: عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد!! فكانوا يفخرون بالحرم، ويستكبرون به، من أجل أنهم أهلُه وعمارُه، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم...، ويهجر القرآن، والنبي صلى الله عليه وسلم؛ فخير -الله تعالى- الإيمان بالله، والجهاد مع نبي الله صلى الله عليه وسلم، على عمران المشركين البيت، وقيامهم على السقاية، ولم يكن ينفعهم عند الله تعالى مع الشرك به، وإن كانوا يعمرون بيته ويخدمونه؛ قال الله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: الذين زعموا أنهم أهل العمارة، فسمّاهم الله ظالمين بشركهم، فلم تغن عنهم العمارة شيئاً^(١).

وَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ رضي الله عنهما: (كُنْتُ عِنْدَ مَنبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ، إِلَّا أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ. وَقَالَ آخَرٌ: مَا أَبَالِي

(١) أخرجه ابن جرير (١١/٣٧٨-٣٧٩)، وابن أبي حاتم (١٠٠٦٢).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمَوْحِنِ

أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَعْمَرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَقَالَ آخَرُ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ. فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَقَالَ: لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَقَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ: {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} الْآيَةَ إِلَى آخِرِهَا^(١).

وقال سبحانه: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

٩٠. الفتنُ تُظهرُ من يعتزُّ بدينِ الله تعالى

إنَّ الاعتزازَ بالدينِ من أهمِّ المهمَّاتِ التي ينبغي أن يتشرف بها المسلم؛ فهو على نورٍ من ربه، يعبد رب المخلوقات، ولا ينحني لأبيٍّ من البريات؛ فهو عبدٌ لخالق المخلوقات، وليس عبدًا لما سواه من الموجودات، وبذلك يعتز، وبه يتشرف، ويعلم أن العزة في ذلك؛ فأبي عزة

(١) رواه مسلم (١٨٧٩).

(٢) رواه البخاري (٧٤٥٤)، ومسلم (١٩٠٤).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وشرفٍ أعظم من كون الإنسان عبداً لله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون].

وإنما يترك الاعتزاز بالدين المنافقون، أو ضعاف الإيمان، ويبتغون العزة من عند الكافرين، قال عز وجل: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)﴾ [النساء].

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: (فمن صفة المنافقين... يَتَّخِذُونَ أَهْلَ الْكُفْرِ بِي وَالْإِلْحَادِ فِي دِينِي {أَوْلِيَاءَ}، يعنى: أنصاراً وأخلاقاً {مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}، يعنى: من غير المؤمنين. {أَيْبَتُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ} يقول: أيتلبون عندهم المنعة والقوة باتخاذهم إياهم أولياء من دون أهل الإيمان؟ {فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} يقول: فإن الذين اتخذوهم من الكافرين أولياء ابتغاء العزة عندهم هم الأذلاء الأقلاء، فهلاً اتَّخَذُوا الْأَوْلِيَاءَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَلْتَمِسُوا الْعِزَّةَ وَالْمَنْعَةَ وَالنُّصْرَةَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، الَّذِي لَهُ الْعِزَّةُ وَالْمَنْعَةُ، الَّذِي يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، فَيُعِزُّهُمْ وَيَمْنَعُهُمْ) (١).

فالفتنُ تكشف مَنْ يعتز بدينه، ممن يتخلص منه، تُظهر من يكون أهل عزيمة، وتكشف مَنْ هو أهل رخصة؛ فيأخذ بالرُّخص، قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ

(١) تفسير الطبري (٦٠١/٧).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ [النحل].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجر إلى المدينة...؛ فأصبح بلال المؤمن، وخباب، وعمار، وجارية من قريش كانت أسلمت - رضي الله عنهم -؛ فأصبحوا بمكة، فأخذهم المشركون وأبو جهل، فعرضوا على بلال أن يكفر، فأبى، فجعلوا يضعون درعاً من حديد في الشمس، ثم يلبسونها إياه، فإذا ألبسوها إياه قال: أَحَدٌ، أَحَدٌ. وأمّا خباب فجعلوا يجرونه في الشوك. وأمّا عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقيّةً. وأمّا الجارية فوّتد لها أبو جهل أربعة أوتاد، ثم مدها، فأدخل الحربة في قُبْلِها حتى قتلها، ثم خلّوا عن بلال وخباب وعمار، فلحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبروه بالذي كان من أمرهم، واشتد على عمار الذي كان تكلم به...؛ فأنزل الله: {إلا من أكرهه وقلبه مطمئن بالإيمان} (١)).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (فأمّا من أكرهه، فتكلم بلسانه، وخالفه قلبه بالإيمان لينجو بذلك من عدوّه فلا حرج عليه؛ لأن الله سبحانه إنما يأخذ العباد بما عقدت عليه قلوبهم) (٢).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٦٦٦)، وهو في الدر اللسيوطي (١٦٩/٥-١٧٠)، ونسبه إلى ابن المنذر وابن

مردويه وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٧٦/١٤).

٩١. تكشفُ خطر استعجال النتائج^(١)

إنَّ الفتن تكشفُ للجميع خطر استعجال النتائج؛ فليس كل عملٍ لا بد وأن تظهر نتائجه؛ فكم من نبيِّ دعا ولم يجد لدعوته أثراً، وكم من مصلحٍ دعا فلم يجد لإصلاحه ثمراً، وكم عاملٍ قد عملَ ولم يجد ظلَّ عمله، ولكن النتائج قد تتأخر لحكمة؛ ولهذا ينبغي للإنسان أن يحذر من استعجال النتائج؛ فإن الأمر كما قال الفقهاء رحمهم الله: (من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه)^(٢).

وهذه العِبْرَةُ ليست عبارةً فقهية؛ بل هي واقعية ملموسة، ومطرودة مدروسة، (وَالْقَاعِدَةُ الْمَشْهُورَةُ: مَنْ اسْتَعْجَلَ شَيْئًا قَبْلَ أَوَانِهِ عُوِقِبَ بِحِرْمَانِهِ، وَيَعْبَرُ عَنْهَا بِعِبَارَةِ أُخْرَى مَنْ

(١) كم عانت الدعوة بسبب استعجال الثمرة، كم عانى المسلمون بسبب استعجال الفتح، كم عانى الناس بسبب استعجال الشيء، حتى في الفقه والعلم، قال العلماء: (من تزبذ قبل أن يتحصنم أتى بالعجائب)، ومن هذه العجائب ما قال محدث العصر العلامة الفقيه الألباني رحمه الله: (هذا كالحكم خاصة من الجماعة الإسلامية زعموا، أنهم أفتوا بعض أو أفتوا أنفسهم وأفرادهم: أنه إذا وقع أسيراً في يد الحاكم الظالم أنه يجوز له أن ينتحر؟! من أين جاء هذا الحكم؟! ألم يصب المسلمون الأولون بمثل ما يصاب هؤلاء المتأخرون، فهل أفتاهم الرسول عليه السلام بمثل هذه الفتوى؟! هذا يأتي بسبب الجهل أولاً بالكتاب والسنة، وثانياً: الاستعجال بإقامة ما هو واجب وهو إقامة الحكم بالإسلام بالكتاب والسنة، فكيف يقيم الحكم بالكتاب والسنة من يفتي عاجلاً بخلاف الكتاب والسنة؟! لذلك قيل: من استعجل الشيء قبل أوانه ابتلي بحرمانه. نسأل الله عز وجل أن يلهمنا أن نسلك سبيل السلف الصالح، وأن يحيينا وإياكم حياة طيبة. والحمد لله رب العالمين). جامع تراث العلامة الألباني في الفقه (٢٢ / ١٦).

(٢) المعونة على مذهب عالم المدينة (١ / ٨٦)، كافية النبيه لابن الرفعة الشافعي (١٥ / ٨٩).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

اسْتَعْجَلَ الشَّيْءَ قَبْلَ أَوَانِهِ عُرِضَ بِنَقِيضِ الْمَقْصُودِ^(١)؛ ولهذا أمر الله تعالى الرُّسُلَ وهم خيرة الخلق بما هو من وظيفتهم، وحصر وصفهم بذلك، لكيلا يبحثوا عن النتائج، قال الله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة: ٩٩].

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: (وهذا من الله تعالى ذكره تهديدٌ لعباده ووعيدٌ، يقولُ تعالى ذكره: ليس على رسولنا الذي أرسلناه إليكم أيُّها الناسُ بإنذاركم عقابنا، بين يدي عذابٍ شديدٍ، وإعذارنا إليكم بما فيه قطعُ حُجَجِكُمْ، إلا أن يؤدِّيَ إليكم رسالتنا، ثم إلينا الثوابُ على الطاعة، وعلينا العقابُ على المعصية)^(٢).

وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرَحَّ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٤٨-٤٩].

وقال عز وجل: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ وَاللَّهِتَكَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)﴾ [الأعراف].

(١) حاشية البجيرمي على الخطيب في الفقه الشافعي (٤/٤٧٩)، وانظر: لوامع الدرر في هتك أستار المختصر

للمجلسي الشنقيطي (٦/٣٣).

(٢) تفسير الطبري (٩/١١-١٢).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

وقال جلّ في علاه: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨)﴾ [الأنعام].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)﴾ [الأنعام].

عَنْ سَعْدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا سِتَّةً: فِيَّ وَفِي ابْنِ مَسْعُودٍ وَصُهَيْبٍ وَعَمَّارٍ وَالْمِقْدَادِ وَبِلَالٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّا لَا نَرْضَىٰ أَنْ نَكُونَ أَتْبَاعًا لَهُمْ، فَاطْرُدْهُمْ عَنْكَ، قَالَ: فَدَخَلَ قَلْبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْخُلَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] الْآيَةَ)^(١).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهِيظُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَوْمُهُ،

(١) رواه مسلم (٢٤١٣)، وابن ماجه (٤١٢٨) وهذا لفظه.

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْأُفُقِ فَتَنْظُرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخِرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»^(١).

وَعَنْ خَبَابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ، فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيَجَاءُ بِالْمِشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ بِنِصْفَيْنِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ، أَوْ عَصَبٍ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّابِئُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَالذُّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^(٢).

٩٢. تجلية مكانة الرفق والحلم^(٣)

(١) رواه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠)، وهذا لفظه.

(٢) رواه أحمد (٢١٠٧٣) وهذا لفظه، والبخاري (٣٦١٢، ٦٩٤٦).

(٣) الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ صِفَتَانِ عَظِيمَتَانِ: يَثْمِرَانِ أَجَلَ الثَّمَرَاتِ، وَيُورِدَانِ أَحْسَنَ الْمَوَارِدِ، فَيَحْمِلَانِ عَلَى فِعْلِ الْحَسَنِ، وَتَرْكِ الْقَبِيحِ، وَيَكْفِي فِي الْحِلْمِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَجَعَلَهُ مِنْ أَسْمَائِهِ، وَوَصَفَ بِهِ أَنْبِيََاءَهُ، قَالَ تَعَالَى: {وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ}، وَالآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ، وَقَالَ عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}.

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمُحَنِّ

كما سبق - في العبرة السابقة - أنه لا ينبغي استعجال الأشياء قبل حينها؛ فكذاك المحن والفتن تكشف وتجلي مكانة الرفق والحلم، والبعد عن الغضب، وتغليب جانب العقل والأناة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)﴾ [النساء].

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: (يقول: فتأنوا في قتل من أشكل عليكم أمره، فلم تعلموا حقيقة إسلامه ولا كفره، ولا تعجلوا فتقتلوا من التبس عليكم أمره، ولا تتقدموا على قتل أحد إلا على قتل من علمتموه يقيناً حرباً لكم والله ولسوله^(١)).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)﴾ [فاطر].

وأما العجلة والتسرع؛ فصفتان مذمومتان في الغالب، وفي أكثر الأحوال؛ لأنهما ثمرة الهوى والشهوة، فيمنعان التفكير في الأمر، والنظر في العواقب؛ بل ويحرمان من كثير من العلم النافع والعمل الصالح.

(١) تفسير الطبري (٣٥١/٧).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قال أبو جعفر ابن جرير رحمه الله: (يقولُ تعالى ذكره: إن الله كان {حَلِيمًا} عَمَّنْ أَشْرَكَ وكَفَّرَ به مِنْ خَلْقِهِ، فِي تَرْكِهِ تَعْجِيلَ عَذَابِهِ لَهُ، {غَفُورًا} لذنوبِ مَنْ تابَ مِنْهُمْ وَأَنابَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وَالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ) (١).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ» (٢).

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ، فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ» (٣).
وَعَنْ جَرِيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ يُحْرَمِ الرَّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرِ» (٤).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلْأَشَجِّ - أَشَجَّ عَبْدُ الْقَيْسِ - : «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ» (٥).

(١) تفسير الطبري (٣٩٢/١٩).

(٢) رواه البخاري (٦٠٢٩)، ومسلم (٢٥٩٣)، وهذا لفظه.

(٣) رواه الترمذي (٢١٣٢)، وقال: (حديث حسنٌ صحيح).

(٤) رواه مسلم (٢٥٩٢).

(٥) رواه مسلم (١٧).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وعن عبد الله بن سرجس المُرَني رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «السَّمْتُ الْحَسَنُ، وَالتُّوَدَةُ، وَالْاِقْتِصَادُ، جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ»^(١).
وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: (التُّوَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ خَيْرٌ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ)^(٢).

وعن علي رضي الله عنه قال: (لَا تَكُونُوا عَجَلًا مَذَائِعَ بُدْرًا؛ فَإِنَّ مِنْ ورائِكُمْ بَلَاءً مُبْرَحًا، مُكَلِّحًا، وَأُمُورًا مُتَمَاحِلَةً رُدْحًا)^(٣).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (قُولُوا خَيْرًا تُعَرَفُوا بِهِ، وَاعْمَلُوا بِهِ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهِ، وَلَا تَكُونُوا عَجَلًا مَذَائِعَ بُدْرًا)^(٤).

٩٣. الْفِتْنُ تُعَلِّمُ التَّثَبُّتَ

فِي الْمِحْنِ يَتَجَلَّى الْمُتَرَيِّثُونَ، وَيُظْهِرُ الْمُذْيِعُونَ، الَّذِينَ يَجِبُونَ السَّبْقَ فِي الْأَقْوَالِ، وَالْمَسَارِعَةَ فِي نَقْلِ الْأَحْوَالِ، دُونَ تَرِيثٍ وَلَا تَثَبْتٍ، وَهَذَا يَتَعَلَّمُ الْإِنْسَانُ فِي الْفِتَنِ التَّثَبُّتَ، وَعَدَمَ تَصْدِيقِ كُلِّ خَبَرٍ بَلَا تَثَبُّتٍ، لَا سِيَّمَا عِنْدَمَا تَنْكَشِفُ، وَتَتَبَيَّنُ أَنَّ أَكْثَرَ مَا كَانَ يُقَالُ، أَوْ يُنْقَلُ إِنَّمَا هُوَ قِيلٌ وَقَالَ، وَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّثَبُّتِ؛ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ

(١) رواه الترمذي (٢١٢٨)، وغيره، وقال: (حديث حسن غريب).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٣٨٣٥٨)، وانظر: شرح السنة للبغوي (١٣/١٧٧).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (٣٢٧)، ومعنى: (مذايع بُدْرًا) أي ينشرون الكلام ولا يستطيعون كتمه. و(مُبْرَحًا) أي شديدًا موجعًا. و(مُتَمَاحِلَةً) أي طويلة المدة. و(رُدْحًا) أي مُثْقَلَ الْحَمْلِ.

(٤) رواه ابن أبي شيبة (٣٧٢٦٠).

جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنِيٍّ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ [الحجرات].

عن قتادة رحمه الله قال في تفسير الآية وأنها نزلت في ابن أبي مُعيط: (بعثه نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم مُصَدِّقًا إِلَىٰ بَنِي الْمِصْطَلِقِ، فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ أَقْبَلُوا نَحْوَهُ، فَهَابَهُمْ، فَرَجَعَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُمْ قَدْ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ، فَبَعَثَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَثَبَّتَ وَلَا يُعْجَلَ، فَاذْهَبْ حَتَّىٰ أَتَاهُمْ لَيْلًا، فَبَعَثَ عِيُونَهُ، فَلَمَّا جَاءُوا أَخْبَرُوا خَالِدًا أَنَّهُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِالْإِسْلَامِ، وَسَمِعُوا أَذَانَهُمْ وَصَلَاتَهُمْ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَتَاهُمْ خَالِدٌ، فَرَأَى الَّذِي يُعْجِبُهُ، فَرَجَعَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ مَا تَسْمَعُونَ...) (١).

وَعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُتُوقَ الْأُمَّهَاتِ، وَوَادَ الْبَنَاتِ، وَمَنْعَ وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قَيْلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ» (٢).

(١) أخرجه ابن جرير (٣٥٢/٢١).

(٢) رواه البخاري (٢٤٢٠)، ومسلم (٥٩٣).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُرَاعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنِ إِلَى جَارِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمِ صَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لَيْسَ كُتًّا»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»^(٢).

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَالَ لِي مَالِكٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: اِعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ يَسْلَمُ رَجُلٌ حَدَّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ، وَلَا يَكُونُ إِمَامًا أَبَدًا وَهُوَ يُحَدِّثُ بِكُلِّ مَا سَمِعَ)^(٣).

٩٤ . الفتن تربي على حفظ اللسان^(٤)

إِنَّ الْمِحْنَ مَدَارِسُ شَدِيدَةٌ تَرْبِي عَلَى الْأَخْلَاقِ النَّبِيلَةَ، وَتَعِينُ عَلَى تَرْبِيَةِ الْإِنْسَانِ، وَحِفْظِ اللِّسَانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا

(١) رواه البخاري (٦٤٨٤)، ومسلم (٧٧/٤٨).

(٢) رواه مسلم (٥) في مقدمة صحيحه.

(٣) رواه مسلم في مقدمة صحيحه (٨/١).

(٤) قال النووي رحمه الله تعالى: (اعلم أنه لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة؛ فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، بل هذا كثير أو غالب في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء) الأذكار ص (٣٣٢).

سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) ﴿

[النور: ١٥-١٧].

قالت الصّديقة عائشة رضي الله عنها المبرأة من فوق سبع سماوات، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، لما تكلم المنافقون في عرضها: (...فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيْتَهُ هَوْنِي عَلَيْكَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةً قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرٌ إِلَّا كَثُرْنَ عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا...)^(١).

وأمر الله عز وجل مريم عليها السلام حين ولدت عيسى عليه السلام وحتى لا يكثر الكلام بالألّا تتكلم؛ فقال لها: ﴿فَأَمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٢٦) ﴿ [مريم].

وقال سبحانه: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (١٨) ﴿ [ق].

وقال عز وجل في صفات المؤمنين الثابتين المتشبتين: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٧٢) ﴿ [الفرقان].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَّبِعُنُ مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَوْ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»^(٢).

(١) رواه البخاري (٤٧٣١)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) رواه البخاري (٦٤٨٥)، ومسلم (٢٩٨٨).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ صَيْفَهُ»^(١).

وَعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعَ أُذُنَايَ، وَوَعَاهُ قَلْبِي، النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الضِّيَافَةُ ثَلَاثَةٌ أَيَّامٍ، جَائِزَتُهُ»، قِيلَ مَا جَائِزَتُهُ؟ قَالَ: «يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَمَنْ كَانَ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ صَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ
لِيَسْكُتْ»^(٢).

٩٥. الفتن تُربِّي على ترك ما لا يعني الإنسان

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]^(٣).
قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: (قَوْلُهُ: لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ يَقُولُ: إِذَا مَا
أَطَاعَنِي الْعَبْدُ فِيمَا أَمَرْتَهُ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ؛ فَلَا يَضُرُّهُ مَنْ ضَلَّ بَعْدَهُ إِذَا عَمَلَ بِمَا أَمَرْتَهُ
بِهِ)^(٤).

(١) رواه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٤٧).

(٢) رواه البخاري (٦٤٨٤)، ومسلم (٤٨).

(٣) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم، ويفعلوا الخير بجهدهم
وطاقتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريباً منه أو بعيداً) تفسير القرآن
العظيم (٣/٤٩٥).

(٤) أخرجه الطبري (٩/٤٩)، وابن أبي حاتم (٦٩٢٥).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال الله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠)﴾ [عبس].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ»^(١).

وَعَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ، قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُسَيْنِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ تَصْنَعُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؟ قَالَ: آيَةُ آيَةٍ؟ قُلْتُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} قَالَ: سَأَلْتُ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «بَلْ اتَّمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، وَرَأَيْتَ أَمْرًا لَا يَدَانَ لَكَ بِهِ، فَعَلَيْكَ خُوصِيصَةٌ نَفْسِكَ، وَدَعِ أَمْرَ الْعَوَامِ؛ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، صَبْرٌ فِيهِنَّ عَلَى مِثْلِ قَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ»^(٢).

(١) رواه الترمذي (٢٤٧٠)، وغيره، وقال: (حديثٌ غريب)، ورُوي عن علي بن الحسين عن أبيه رضي الله عنه موصولاً ومرسلاً، وذكر الترمذي رحمه الله أن المرسل (أصح)، وقال الألباني: (حسنٌ لغيره).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠١٤)، والترمذي (٣٣١٠)، وغيرهما، وقال: (حديثٌ حسنٌ غريب).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا رَفَعَهُ قَالَ: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ أَعْضَاءَهُ تُكْفَرُ لِلِّسَانِ، تَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا، فَإِنَّكَ إِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اغْوَجَجْتَ اغْوَجَجْنَا»^(١).

وعن أبي الحوراء السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا حَفِظْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: حَفِظْتُ مِنْهُ: «دَعْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ إِطْمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الكَذِبَ رِيْبَةٌ»^(٢).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الْإِيْمَانُ بِاللَّهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ». قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا». قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تُعِينُ صَانِعًا، أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقٍ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «تَكْفُ شَرِّكَ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٣).

وَعَنْ ابْنِ شِهَابِ الزَّهْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (قَالَ رَجُلٌ لِلْقَمَانَ: بِمَاذَا أَدْرَكْتَ هَذَا؟ قَالَ: بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَتَرْكِي مَا لَا يَعْنِينِي)^(٤).

(١) رواه أحمد (١١٩٠٨) بإسنادٍ حسن، والترمذي (٢٤٠٧)، وغيره، ولم يرفعه، وقال عن الموقوف: (أصح).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٧)، وغيره، وقال: (حديثٌ صحيحٌ).

(٣) رواه مسلم (٨٤).

(٤) أخرجه ابن وهب كما في جامعه (٢٩٨).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَبْتَدَأْتُهُ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَجَاةُ الْمُؤْمِنِ؟ قَالَ: «يَا عُقْبَةُ، احْرُسْ لِسَانَكَ، وَلَيْسَعَكَ بَيْتُكَ، وَابْنُكَ عَلَى خَطِيئَتِكَ»^(١).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (فَقَامَ مُعَاوِيَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَشِيَّةً فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مُتَكَلِّمًا فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَلْيُطْلِعْ لِي قَرْنَهُ، فَوَاللَّهِ لَا يَطْلُعُ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا كُنْتُ أَحَقَّ بِهِ مِنْهُ، وَمِنْ أَبِيهِ... قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَأَطْلَقْتُ حَبَوْتِي؛ فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُومَ إِلَيْهِ؛ فَأَقُولُ: يَتَكَلَّمُ فِيهِ رِجَالٌ قَاتِلُونَكَ وَأَبَاكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ خَشِيتُ أَنْ أَقُولَ كَلِمَةً تُفَرِّقُ بَيْنَ الْجَمْعِ، وَتُسْفِكُ فِيهِ الدَّمَاءَ، وَأُحْمَلُ فِيهِ عَلَى غَيْرِ رَأْيٍ، فَكَانَ مَا وَعَدَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْجِنَانِ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ: فَلَمَّا انْطَلَقْتُ إِلَى مَنْزِلِي أَتَانِي حَبِيبُ بْنُ مَسْلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: مَا الَّذِي مَنَعَكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ حِينَ سَمِعْتَ الرَّجُلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ؟! فَقُلْتُ لَهُ: لَقَدْ أَرَدْتُ ذَلِكَ، ثُمَّ خَشِيتُ أَنْ أَقُولَ كَلِمَةً تُفَرِّقُ بَيْنَ الْجَمْعِ، وَتُسْفِكُ فِيهَا الدَّمَاءَ، وَأُحْمَلُ فِيهَا عَلَى غَيْرِ رَأْيٍ، فَكَانَ مَا وَعَدَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْجِنَانِ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَقَالَ حَبِيبُ بْنُ مَسْلَمَةَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ: فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، فَإِنَّكَ عَصِمْتَ، وَحَفِظْتَ مِمَّا خَفَتْ عُرَّتَهُ^(٢).

(١) رواه أحمد (١٧٣٣٤)، والترمذي (٢٥٦٩)، وقال: (حديث حسن).

(٢) رواه عبد الرزاق (١٠٦٣٧)، ورواه البخاري بنحوه (٤٠٩٨).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

وفي رواية عن هُزَيْلِ بْنِ شُرْحَبِيلٍ قَالَ: (خَطَبَهُمْ مَعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ جِئْتُمْ فَبَايَعْتُمُونِي طَائِعِينَ، وَلَوْ بَايَعْتُمْ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعًا لَجِئْتُ حَتَّى أَبَايَعَهُ مَعَكُمْ. فَلَمَّا نَزَلَ عَنِ الْمَنْبَرِ قَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تَدْرِي أَيُّ شَيْءٍ جِئْتَ بِهِ الْيَوْمَ؟ زَعَمْتَ أَنَّ النَّاسَ بَايَعُوكَ طَائِعِينَ، وَلَوْ بَايَعُوا عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعًا لَجِئْتُ حَتَّى تَبَايَعَهُ مَعَهُمْ؟! قَالَ: فَندم؛ فَعَادَ إِلَى الْمَنْبَرِ؛ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ! وَهَلْ كَانَ أَحَدٌ أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنِّي؟ وَهَلْ هُوَ أَحَدٌ أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنِّي؟

قال: وابنُ عمرَ رضي الله عنه جالس، قال: فقال ابن عمر: هممت أن أقول: أحق بهذا الأمر منك من ضربك وأباك عن الإسلام؟ ثم خفت أن تكون كلمتي فساداً؛ وذكرت ما أعد الله في الجنان، فهون علي ما أقول^(١).

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ أَبِي سِنَانٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَهْوَنَ مِنَ الْوَرَعِ، دَعَا مَا يَرِيئُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيئُكَ)^(٢).

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: (أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى ابْنِ أَبِي دُجَانَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ مَرِيضٌ، وَكَانَ وَجْهُهُ يَتَهَلَّلُ، فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ يَتَهَلَّلُ وَجْهُكَ؟ قَالَ: مَا مِنْ عَمَلٍ شَيْءٍ أَوْثَقَ عِنْدِي مِنْ اثْنَيْنِ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَنْتُ لَا أَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَعْنِينِي، وَأَمَّا الْآخَرَى: فَكَانَ قَلْبِي لِلْمُسْلِمِينَ سَلِيمًا)^(٣).

(١) رواه ابنُ أبي شيبَةَ (٤٠١٠٤).

(٢) ذكره البخاري معلقاً، تحت الباب (٣): (باب تفسير المشتبهات)، من كتاب البيوع في صحيحه.

(٣) رواه ابن وهب كما في الجامع (٣١٩).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

وكان سعدُ بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه وهو أحدُ العشرة المبشرين بالجنة (مِمَّنْ قَعَدَ وَلِزِمَ بَيْتَهُ فِي الْفِتْنَةِ، وَأَمَرَ أَهْلَهُ أَلَّا يُخْبِرُوهُ مِنْ أَخْبَارِ النَّاسِ بِشَيْءٍ حَتَّى تَجْتَمَعَ الْأُمَّةُ عَلَيَّ إِمَامًا)^(١).

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (كَانَتْ فِتْنَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَسَعَ سِنِينَ فَمَكَثَ شَرِيحًا - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَا يُخْبِرُ وَلَا يَسْتَخْبِرُ)^(٢).

وَعَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (لَبِثَ شَرِيحًا - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي الْفِتْنَةِ تِسْعَ سِنِينَ لَا يُخْبِرُ وَلَا يَسْتَخْبِرُ)^(٣).

٩٦. تجلية أصحاب الدعوى

إِنَّ الْفِتْنَ إِذَا وَقَعَتْ تَبَيَّنَ مَنْ كَانَ يَقُولُ وَيَدَّعِي؛ وَإِذَا جَدَّ الْجَدُّ ظَهَرَ مَنْ لَيْسَ لَجِبْنَهُ وَخَوْرَهُ حَدًّا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿[الصف: ١-٣].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (كان ناسٌ من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لو ددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال ففعل به. فأخبر الله نبيه: أن أحب الأعمال

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (٦/١٦٠)، تهذيب الكمال للمزي (١٠/٣٠٩)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين

(٤/١٩٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤/١٣٣).

(٣) أخرجه الداني في السنن الواردة في الفتن (١٧٣).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

إيمانٌ بالله لا شكَّ فيه، وجهادُ أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان، ولم يُقرِّوا به. فلما نزل الجهاد كره ذلك أناسٌ من المؤمنين، وشقَّ عليهم أمره^(١).

وعن الحسن البصري - في قوله تعالى: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ }** - قال: (يعني: المنافقين، نَسبهم إلى الإسلام الذي أظهرُوا، وهو الإقرار، وكانوا يقولون: نجاهد مع رسول الله، ونؤمن به، فإذا جاء الجهاد بعدوا عنه)^(٢).
وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رحمه الله: (نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ، كَانُوا يَعِدُونَ الْمُؤْمِنِينَ النَّصْرَ، وَهُمْ كَاذِبُونَ)^(٣).

وقال الله سبحانه: **{ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ }** [آل عمران: ١٦٧].

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله مبيِّناً ما قاله المنافقون: (قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم إليهم، ولكننا معكم عليهم، ولكن لا نرى أنه يكون بينكم وبين القوم قتال. فأبدوا من نفاق أنفسهم ما كانوا يكتُمونه، وأبدوا بألسنتهم بقولهم: **{ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا }**

(١) أخرجه ابن جرير (٢٢/٦٠٦-٦٠٧).

(٢) تفسير ابن أبي زمنين (٤/٣٨٢)، والثعلبي (٩/٣٠٢).

(٣) تفسير الثعلبي (٩/٣٠٢)، والبيهقي (٨/١٠٨).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

لَا تَبْعَنَا كُمْ}، غيرَ ما كانوا يكتُمونه ويُخفونه؛ من عداوةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم، وأهلِ الإيمانِ به^(١).

٩٧. الفتن تُظهِرُ خطورةَ الشائعات

إنَّ الفتنَ تبيِّنُ ضررَ الإشاعات، وتجلِّي مخاطرَ الإذاعات، قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣)﴾ [النساء].

عن إسماعيل السُّدِّيِّ رحمه اللهُ قال: (إذا جاءهم أمرٌ أنَّهُم قد آمنوا من عدوهم، أو أنهم خائفون منه؛ أذاعوا بالحديث حتى يبلُغ عدوهم أمرهم، {ولو ردوه إلى الرسول} يقول: ولو سكتوا، وردُّوا الحديث إلى النبي صلى اللهُ عليه وسلم {وإلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ} يقول: إلى أميرهم حتى يتكلم هو به)^(٢).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رحمه اللهُ: (الولاءُ الذين يكونون في الحرب عليهم، الذين يتفكرون فينظرون لِمَا جاءهم من الخبر، أصدق أم كذب؟ باطل فيبطلونه، أو حق فيحقونه؟ الولاءُ الذين يستنبطونه على القوم من الحرب. قال: وهذا في الحرب، وقد أذاعوا به، ولو فعلوا غير هذا وردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ)^(٣).

(١) تفسير الطبري (٦/٢٢١).

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/٢٥٣).

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/٢٥٨).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحَنِ

وقال الله سبحانه: ﴿لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢) [النور].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٩) [النور].

عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (مَنْ حَدَّثَ النَّاسَ بِمَا رَأَتْهُ عَيْنَاهُ، أَوْ سَمِعَتْ أُذُنَاهُ، أَوْ أَخَذَتْهُ يَدَاهُ، فَهُوَ مِنَ {الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا} [النور: ١٩]).^(١)
وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ وَقِيلَ لَهُ: مَا سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي زَعْمُوا؟ قَالَ: «بِئْسَ مَطِيئَةُ الرَّجُلِ زَعْمُوا»^(٢).

٩٨. الفتن تُعَلِّمُ أَنَّ النِّجَاةَ فِي لَزُومِ وَلِيِّ الْأَمْرِ (الْحَاكِمِ)

معلومٌ واقعاً، وملموستُ فطرةً، ومدلولٌ عليه شرعاً، أنَّ أمور الدنيا؛ بل وجُلُّ الأمور الدينية لا تتنظم إلا بإمام وحاكم له سماع وطاعة؛ فيطاع بالمعروف، وأنه لا يستقيم أمرُ الناس إلا بالسمع والطاعة، وأنه لا بد من الرجوع إلى ولاة الأمر، وولاية الأمر في الأمور الدينية هم العلماء الراسخون، وفي الأمور الدنيوية هم الحكام المسيطرون، وهذا ما يتعلَّمه المؤمن في المحن والفتن؛ فيرى ما كان يعلمه علماً ضرورة وواقعاً ملموساً، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

(١) الزهد لأبي حاتم (٧٨)، وعند الديلمي في كتابه الفردوس (٥٦٧٣) من كلام معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٧٤٥٦) والبخاري في الأدب المفرد (٧٦٢)، وصححه الألباني.

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) ﴿النساء﴾^(١).

عن عطاء بن أبي رباح رحمه الله قال: (طاعة الله: اتباع كتابه. وطاعة الرسول: اتباع سنته.

وأولي الأمر: أهل العلم)^(٢).

وقال ابن جرير رحمه الله: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هم الأمراء والوُلاة؛ لصحة الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر بطاعة الأئمة والوُلاة فيما كان لله طاعةً، وللمسلمين مصلحةً...؛ فإذا كان معلوماً أنه لا طاعةَ واجبةً لأحدٍ غير الله أو رسوله أو إمامٍ عدلٍ، وكان الله قد أمر بقوله: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}، بطاعة ذوى أمرنا، كان معلوماً أن الذين أمر بطاعتهم تعالى ذكره من ذوى أمرنا هم الأئمة ومن وُلّوه أمر المسلمين، دون غيرهم من الناس، وإن كان فرضاً القبول من كل أمرٍ أمر بترك معصيته ودعا إلى طاعته، غير أنه لا طاعةَ تجب لأحدٍ فيما أمر ونهى فيما لم تُقم حجةٌ وجوبه إلا للأئمة الذين ألزم الله عباده طاعتهم فيما أمروا به رعيّتهم، مما هو مصلحةٌ

(١) قال القرطبي رحمه الله: (إن الجماعة في مصرٍ من أمصار المسلمين إذا مات إمامهم ولم يكن لهم إمامٌ ولا استخلفَ فأقام أهل ذلك المصر الذي هو حضرة الإمام، وموضعه إماماً لأنفسهم، اجتمعوا عليه، ورَضَوْهُ؛ فإن كل من خلفهم وأمامهم من المسلمين في الآفاق يلزمهم الدخول في طاعة ذلك الإمام، إذا لم يكن الإمام مُعلناً بالفسق والفساد، لأنها دعوة مُحيطَةٌ بهم تجب إجابتها، ولا يسع أحدٌ التخلف عنها، لما في إقامة إمامين من اختلاف الكلمة وفساد ذات البين) تفسير القرطبي (١/٢٦٩).

(٢) أخرجه عبد الله بن وهب في الجامع (٢/٩).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

لعامة الرعية، فإن على من أمره بذلك طاعتهم، وكذلك في كل ما لم يكن لله معصية. وإذا كان ذلك كذلك، كان معلوماً بذلك صحة ما اخترنا من التأويل دون غيره^(١).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيَّةٌ»^(٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»^(٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ يَعِصَنِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعِصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي»^(٤).

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وكلها تدل على أهمية السمع والطاعة، وما ذاك إلا لأن النجاة في المحن إنما يكون بذلك، والخروج من الفتن إنما يكون كذلك^(٥).

(١) تفسير الطبري (٧/١٨٢-١٨٤).

(٢) رواه البخاري (٧١٤١).

(٣) رواه البخاري (٧١٤٣)، ومسلم (١٨٣٩).

(٤) رواه البخاري (٢٩٧٤)، ومسلم (١٨٣٥).

(٥) ومما يدل على ذلك قول جَمْعٍ من مشايخ الدعوة في نصيحة عامة وجَّهوها إلى الناس في وقت يُشابهُ هذا الوقت، منهم: الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن، والشيخ سعد بن حمد بن عتيق، والشيخ عبد العزيز

٩٩. الفتن تجلّي أهمية الجماعة

من سمات الدعوة السّنية السّلفية أنّها تأمر بالسمع والطاعة في المنشط والمكروه؛ كما جاء في النصوص الشرعيّة، ولا سيما في الفتن والمحن الواقعيّة، ومن عرف منهمجهم، ونظر إلى مسطور عقائدهم، علم يقيناً؛ كم يُجلّون أهمية السمع والطاعة، وأهمية الجماعة، وكم يحذرون من البعد والحذر عن الفرقة والاختلاف، والخروج والشقاق والنزاع والخلاف.

وقد قرّر أهل العلم أنّ الاجتماع نوعان:

الأول: الاجتماع في الدين.

الثاني: الاجتماع على وليّ الأمر.

وأن الافتراق نوعان:

الأول: الافتراق في الدين.

الثاني: الافتراق في الجماعة، وهذا كله يدخل في عموم قول الله تعالى: ﴿واعتصموا بحبلِ الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمتَ الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألفَ بينَ قلوبكم فأصبحتم

العنقري، والشيخ عمر بن سليم، والشيخ محمد بن إبراهيم، كلهم ذكروا هذا في نصيحتهم بعد سياق النصوص الدالّة على وجوب السمع والطاعة لوليّ الأمر، قالوا: (وإذا فهم ما تقدم من النصوص القرآنيّة، والأحاديث النبويّة، وكلام العلماء المحققين، في وجوب السمع والطاعة لوليّ الأمر، وتحريم منازعته، والخروج عليه، أنّ المصالح الدينيّة والدينيّة لا انتظام لها إلا بالإمامة والجماعة، تبيّن أنّ الخروج عن طاعة وليّ الأمر، والافتتات عليه بغزو، أو غيره معصية ومُشاقّة لله ورسوله، ومخالفة لما عليه أهل السنة والجماعة) الدرر السنية (٧/ ٢٩١).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿آل عمران﴾.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَكَرِهَهُ فَلْيُضْبِرْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُفَارِقُ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَيَمُوتُ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^(١).

وَعَنْ أَبِي عَامِرٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ لُحَيٍّ قَالَ: (حَجَجْنَا مَعَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَامَ حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الظُّهْرِ، فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي: الْأَهْوَاءَ -، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عَرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ». وَاللَّهُ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ لَئِنْ لَمْ تَقُومُوا بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَغَيْرِكُمْ مِنَ النَّاسِ أَحْرَى أَنْ لَا يَقُومَ بِهِ»^(٢).

وَقَالَ حُدَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ؛ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخْنٌ»، قُلْتُ: وَمَا دَخْنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ

(١) رواه البخاري (٧١٤٢)، ومسلم (١٨٤٩).

(٢) رواه أحمد (١٦٩٣٧) بإسنادٍ حسن، وأبو داود (٤٥٩٧).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

هَدِيي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ»، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرِّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، فَقَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِالسِّنْتَانَا»، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلْزِمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعْضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»^(١).

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَطَبَنَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْجَابِيَةِ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا، قَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِأَصْحَابِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَخْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ، وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ، أَلَا لَا يَخْلُونَ رَجُلًا بِامْرَأَةِ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ، عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفِرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الْاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ، فَلْيَلْزِمِ الْجَمَاعَةَ، مِنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ»^(٢).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ»^(٣).

١٠٠. الفتن تبين مخاطر الخروج

(١) رواه البخاري (٣٦٠١)، ومسلم (١٨٤٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٠٤)، وقال: (حديثٌ حسنٌ صحيح).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٠٦)، وقال: (حديثٌ حسنٌ غريبٌ...).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِخَانِ

إنَّ المتأمل في الواقع يجد أنَّ أكثر الفتنِ سواء التي وقعت بين المسلمين، أو التي وقعت من جهة الكافرين، كان للخوارج والباطنية دورٌ فيها، وكلُّ فتنة تجلّي مخاطر الخروج، وما يجلبه من الدماء، وما يسفك فيه من الدماء، وما يكون فيه من الغوغاء، كل هذا يجلي مخاطر الخروج.

ولهذا لم يأمر الله نبيه موسى بقتال فرعون لَمَّا لم يكن لهم بهم مَكْنَة وقوّة: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)﴾ [الأعراف].

فإذا كان الله تعالى أمرَ كليمة موسى عليه السلام أن يأمر قومه بالصبر مع الطاغية فرعون، وهو أطغى الطغاة؛ فكيف مع من ينتسب إلى الإسلام؛ فالصبرُ أولى معه، وعليه، لا سيما إذا حصل من الناس توبة وأوبة، قال ابن جرير رحمه الله: (يقول: إن الأرض لله، لعل الله يُورثكم إن صبرتم على ما نالكم من مكروه في أنفسكم وأولادكم من فرعون، واحتسبتم ذلك، واستقمتم من دينكم على السداد، أرض فرعون وقومه بأن يُهلكهم ويستخلفكم فيها، فإن الله يُورث أرضه من يشاء من عباده، {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} يقول: والعاقبة المحمودة لمن انقى الله وراقبه، فخافه باجتناب معاصيه وأداء فرائضه)^(١).

(١) تفسير الطبري (١٠ / ٣٧١)، وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله مبيناً مخاطر الخروج في أول سورة آل عمران من تفسيره (٢ / ٣١٤): (إن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج، وكان مبدأهم بسبب الدنيا، حين قَسَم النبي صلى الله علي وسلم غنائم حنين، فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة، ففاجأوه بهذه المقالة، فقال

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَكُونُ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ وَيُذْنِبُونَ، حَتَّى يُعْجِبُوا النَّاسَ، وَتُعْجِبُهُمْ أَنْفُسُهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ»^(١).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ وَسَّاجٍ قَالَ: (كَانَ صَاحِبٌ لِي يُحَدِّثُنِي عَنْ شَأْنِ الْخَوَارِجِ، وَطَعَنَهُمْ عَلَى أَمْرَائِهِمْ، فَحَجَجْتُ، فَلَقَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقُلْتُ لَهُ: أَنْتَ مِنْ بَقِيَّةِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عِنْدَكَ عِلْمًا، وَأُنَاسٌ بِهَذَا الْعِرَاقِ يَطْعَنُونَ عَلَى أَمْرَائِهِمْ، وَيَشْهَدُونَ عَلَيْهِمْ بِالضَّلَالَةِ. فَقَالَ لِي: أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، أَتَيْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَلِيدٍ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، فَجَعَلَ يَقْسِمُهَا بَيْنَ أَصْحَابِهِ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ لَئِنْ أَمَرَكَ اللَّهُ أَنْ تَعْدِلَ فَمَا أَرَاكَ أَنْ تَعْدِلَ، فَقَالَ: «وَيْحَاكَ مَنْ يَعْدِلُ عَلَيْهِ بَعْدِي؟» فَلَمَّا وَلَّى قَالَ: «رُدُّوهُ

قائلهم، وهو ذو الخويصرة - بقر الله خاصرته - : اعدل، فإنك لم تعدل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل، أيا مني على أهل الأرض ولا تأمنوني»، فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب، وفي رواية: خالد بن الوليد في قتله، فقال: «دعه، فإنه يخرج من ضئضي هذا - أي: من جنسه - قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وقراءته مع قراءتهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم» [رواه البخاري بنحوه (٦٩٣٦)، ومسلم (١٠٦٦)]، ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقتلهم بالنهروان، ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة، ثم انبعث القدريّة، ثم المعتزلة، ثم الجهميّة، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم).

(١) رواه ابن أبي شيبة في مسنده (٩٣٧)، وأحمد (١٢٩٧٢)؛ بإسنادٍ صحيحٍ على شرط الشيخين.

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

رُوَيْدًا». فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ فِي أُمَّتِي أَخًا لِهَذَا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، كُلَّمَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ»، (ثَلَاثًا)^(١).

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُمَهَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مَحْجُوبٌ الْبَصِيرُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، قَالَ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا سَعِيدُ بْنُ جُمَهَانَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ وَالِدُكَ؟ قُلْتُ: قَتَلْتَهُ الْأَزْرَقَةَ. قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ الْأَزْرَقَةَ، لَعَنَ اللَّهُ الْأَزْرَقَةَ، حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّهِمْ كِلَابُ النَّارِ». قُلْتُ: الْأَزْرَقَةُ وَحَدَهُمْ، أَمْ الْخَوَارِجُ كُلُّهَا؟ قَالَ: بَلِ الْخَوَارِجُ كُلُّهَا. قُلْتُ: فَإِنَّ السُّلْطَانَ يَظْلِمُ النَّاسَ، وَيَفْعَلُ بِهِمْ!! قَالَ: فَتَنَاوَلْ يَدِي، فَغَمَزَهَا بِيَدِهِ غَمَزَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ قَالَ: وَيَحَكَ يَا ابْنَ جُمَهَانَ، عَلَيْكَ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ، عَلَيْكَ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ، عَلَيْكَ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ، إِنْ كَانَ السُّلْطَانُ يَسْمَعُ مِنْكَ، فَأَتِهِ فِي بَيْتِهِ، فَأَخْبِرْهُ بِمَا تَعْلَمُ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْكَ، وَإِلَّا فَدَعُهُ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِأَعْلَمَ مِنْهُ)^(٢).

قال وهب بن منبه رحمه الله: (احذروا أيها الأحداث الأعمار هؤلاء الحروراء، لا يدخلوكم في رأيهم المخالف؛ فإنهم عرّة لهذه الأمة...، ولو أمكن الله الخوارج من رأيهم لفسدت الأرض، وقطعت السبل، وقطع الحج عن بيت الله الحرام، وإذن لعاد أمر الإسلام جاهليّة، حتى يعود الناس يستعينون برؤوس الجبال كما كانوا في الجاهليّة، وإذن لقام أكثر من عشرة أو عشرين رجلاً ليس منهم رجل إلا وهو يدعوا إلى نفسه بالخلافة؟! ومع كل

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة (٩٣٤)، وقال الألباني: (إسناده صحيح على شرط البخاري)، ورواه البزار كما

في كشف الأستار (١٨٥٠)، وقال الهيثمي في المجمع: (ورجاله رجال الصحيح).

(٢) رواه أحمد (١٩٤١٥)، قال الهيثمي في المجمع (٥/٢٣٠): (ورجال أحمد ثقات).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

رجل مِنْهُمْ أَكْثَرُ مِنْ عَشْرَةِ آلَافٍ يُقَاتِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْكَفْرِ، حَتَّىٰ يَصْبِحَ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ خَائِفًا عَلَىٰ نَفْسِهِ وَدِينِهِ وَدَمِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ، لَا يَدْرِي أَيْنَ يَسْلُكُ، أَوْ مَعَ مَنْ يَكُونُ؟! غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ بِحِكْمِهِ وَعِلْمِهِ وَرَحْمَتِهِ نَظَرَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ فَأَحْسَنَ النَّظَرَ لَهُمْ؛ فَجَمَعَهُمْ، وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمُ الْأُمَّةَ؛ فَأَحْسَنَ النَّظَرَ لَهُمْ؛ فَجَمَعَهُمْ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ عَلَىٰ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لَيْسَ مِنَ الْخَوَارِجِ؛ فَحَقَّنَ اللَّهُ بِهِ دِمَاءَهُمْ وَسَتَرَ بِهِ عَوْرَاتِهِمْ، وَعَوْرَاتُ ذُرَارِيهِمْ، وَجَمَعَ بِهِ فِرْقَتَهُمْ، وَأَمِنَ بِهِ سَبْلَهُمْ، وَقَاتَلَ بِهِ عَنِ بَيْضَةِ الْمُسْلِمِينَ عَدُوَّهُمْ، وَأَقَامَ بِهِ حُدُودَهُمْ، وَأَنْصَفَ بِهِ مَظْلُومَهُمْ، وَجَاهَدَ بِهِ ظَالِمَهُمْ، رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ رَحِمَهُمْ بِهَا^(١).

١٠١. تُجَلِّيْ أَمِيَّةَ السَّلْمِ

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ مِنْ أَسْمَائِهِ (السَّلَام)، وَهُوَ يَدْعُو إِلَىٰ (دَارِ السَّلَامِ)، وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ الْمُسْلِمِينَ إِذَا التَّقَوُا أَنْ يُحْيُوا بَعْضُهُمْ بِالسَّلَامِ، وَ(السَّلَامِ وَالسَّلْمِ) وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ يَتَجَلَّىٰ أَكْثَرَ، وَيَتَضَحُّ أَكْثَرَ فِي وَقْتِ الْفِتَنِ، وَإِذَا وَقَعَتِ الْحُرُوبُ، فَبِالسَّلْمِ يَظْهَرُ مَحَاسِنُ الْأَمْنِ، وَبِالْفِتَنِ تَتَكَشَّفُ مَخَاطِرُ الْحُرُوبِ، وَمَضَارُ الْأَضْطْرَابِ، وَلِذَلِكَ كَانَ مِنَ الْحِكْمِ أَنَّهُ مَتَىٰ مَا لَجَأَ الْعَدُوُّ إِلَىٰ السَّلْمِ، لَزِمَ الْجَنُوحَ إِلَىٰ ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦١) ﴿[الأنفال].

(١) مناقحة الإمام وهب بن منبه للخوارج ص (١٤-٢٢).

عَبْرُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قال عبّاد بن عبد الله بن الزبير رحمه الله: (إِنْ دَعَوَكَ إِلَى السَّلْمِ عَلَى الْإِسْلَامِ؛ فَصَالِحُهُمْ عَلَيْهِ) (١).

وقال إسماعيل السدي رحمه الله: (إِذَا أَرَادُوا الصُّلْحَ فَأَرِدْهُ) (٢).

وقال إمام المفسرين ابن جرير رحمه الله مبيّناً معنى الآية مع الردّ على من زعم أنها منسوخة: (وَإِنْ مَالُوا إِلَى مَسَالِمَتِكَ، وَمُتَارَكَتِكَ الْحَرْبِ، إِمَّا بِالْدُخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَإِمَّا بِإِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ، وَإِمَّا بِمَوَادَعَةٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ السَّلْمِ وَالصُّلْحِ، {فَأَجْنَحْ لَهَا}، يَقُولُ: فَمِلْ إِلَيْهَا، وَابْذُلْ لَهُمْ مَا مَالُوا إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَسَأَلُوكَ. يُقَالُ مِنْهُ: جَنَحَ الرَّجُلُ إِلَى كَذَا يَجْنَحُ إِلَيْهِ جُنُوحًا...، وَ... يَجْنَحُ، بِضَمِّ النُّونِ، وَ... يَجْنَحُ بِكَسْرِ النُّونِ، وَذَلِكَ إِذَا مَالَ.

وَمَنْ قَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ -أَيَّ قِتَادَةٍ فِي النَّسْخِ- مِنْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ، فَقَوْلٌ لَا دَلَالََةَ عَلَيْهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا سَنَةٍ...، وَقَدْ دَلَّلْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِنَا هَذَا وَغَيْرِهِ، عَلَى أَنَّ النَّاسِخَ لَا يَكُونُ إِلَّا مَا نَفَى حُكْمَ الْمَنْسُوخِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، فَأَمَّا مَا كَانَ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَغَيْرُ كَائِنٍ نَاسِخًا. وَقَوْلُ اللَّهِ فِي بَرَاءةِ: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} غَيْرُ نَافٍ حُكْمَهُ حُكْمَ قَوْلِهِ: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا}؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ} إِنَّمَا عُنِيَ بِهِ بَنُو قَرِيظَةَ، وَكَانُوا يَهُودًا أَهْلَ كِتَابٍ، وَقَدْ أَذِنَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِصُلْحِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَمُتَارَكَتِهِمُ الْحَرْبِ، عَلَى اخْتِذِ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} فَإِنَّمَا عُنِيَ بِهِ مُشْرِكُو الْعَرَبِ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٧٢٥-١٧٢٦).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٧٢٥).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

مِنْ عِبْدَةِ الْأَوْثَانِ الَّذِينَ لَا يَجُوزُ قَبُولُ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ، فَلَيْسَ فِي إِحْدَى الْآيَتَيْنِ نَفْيُ حَكْمِ الْأُخْرَى، بَلْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مُحْكَمَةٌ فِيمَا أُنْزِلَتْ فِيهِ»^(١).

وَعَنْ الْمَسُورِ بْنِ مَخْرَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ فِي حَدِيثِ صَلْحِ الْحَدِيبِيَّةِ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا»^(٢).

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَاللَّهِ، لَا يَدْعُونِي الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يُعْظَمُونَ فِيهَا حَرَمَةٌ، وَلَا يَدْعُونِي فِيهَا إِلَى صَلَاةٍ، إِلَّا أُجِبْتُمْ إِلَيْهَا»^(٣).

وَقَدْ صَالَحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْوَامًا، وَرَغِبَ فِي ذَلِكَ مَعَ كَثِيرٍ مِنَ الْقَبَائِلِ؛ كَقُرَيْشٍ وَالْيَهُودِ، وَأَهْلِ نَجْرَانَ، وَغَيْرِهِمْ.

١٠٢. الْفِتْنُ تَبَيَّنُ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى

قَدْ يَظُنُّ ظَانٌّ أَنَّ النَّصْرَ مُتَعَلِّقٌ بِالْأَسْبَابِ فَقَطْ؛ فَيُؤْتِي الْمَرْءَ مِنْ مَكْمَنِهِ، وَعِنْدَ وَقُوعِ الْمِحْنِ، وَاشْتِدَادِ الْفِتَنِ، يَتَجَلَّى أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، فَهُوَ إِنْ شَاءَ جَعَلَ

(١) تفسير الطبري (١١/٢٥١-٢٥٤).

(٢) رواه البخاري (٢٧٤٨-٢٧٤٩).

(٣) رواه ابن أبي شيبة عن عروة مرسلًا (٣٩٦٢٤)، وهو عند البخاري (٢٧٣١) بنحوه عن عروة عن المسور

رضي الله عنه.

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

الأسباب تنتج، وإن شاء جعل الأسباب لا تنتج، فهو يُثَبِّتُ من يشاء، ويلقي الرعب في قلب من يشاء، وَيُيَسِّنُ للناس أن الغلبة للحق، فتقع الأمور على غير ما يظنه المفتونون، قال الله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

قال ابن جرير رحمه الله: (يعنى: وما ظَفَرُكُمْ إن ظَفَرْتُمْ بعدوكم إلا بعونِ الله، لا من قِبَلِ المَدَدِ الذى يأتىكم من الملائكة. يقولُ تعالى ذكره: فعلى الله فتوكلوا، وبه فاستعينوا، لا بالجموع وكثرة العدد، فإنَّ نَصْرَكُمْ إن كان، إنما يكونُ باللهِ وبعونه، ومعكم من ملائكته خمسةُ آلافٍ، فإنه إلى أن يكونَ ذلك بعونِ الله وبتقويته إياكم على عدوكم - وإن كان معكم من البشرِ جموعٌ كثيرةٌ - أُخْرَى، فاتَّقوا الله واصبروا على جهادِ عدوكم، فإن الله ناصركم عليهم)^(١).

وقال سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾ [آل عمران: ١٥٩-١٦٠].

عن محمد بن إسحاق رحمه الله قال: (إن ينصرك الله فلا غالب لك من الناس، لن يضرك خذلان من خذلك، وإن يخذلك فلن ينصرك الناس)^(٢).

وقال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف].

(١) تفسير الطبري (٣٨/٦).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٩٣/٦).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قال مقاتل بن سلميان رحمه الله: (يعني: والله مُتِمُّ...أمره الذي هو كائنٌ، ممّا لا يعلمه الناس)^(١).

وقال جلّ وعزّ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤)﴾ [الصفات].

عن إسماعيل السدي رحمه الله قال: (كانت الأنبياء تُقتل وهم منصورون، والمؤمنون يُقتلون وهم منصورون، نُصروا بالحُجَج في الدنيا والآخرة، ولم يُقتل نبيٌّ قطُّ ولا قومٌ يدعون إلى الحقّ من المؤمنين، فتذهب تلك الأمة والقرن، حتى يبعث الله قومًا ينتصر بهم منهم)^(٢).
وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخْبَرَهُ، أَنَّ هِرْقَلَ قَالَ لَهُ: سَأَلْتُكَ كَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ وَدُؤْلٌ، فَكَذَلِكَ الرَّسُلُ تُبْتَلَىٰ ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ)^(٣).

١٠٣. الفتن تجلّي فضل كف اليد وضرورته

إنّ الفتن إذا وقعت جلّت وأظهرت فضل من كفّ يده، وبان شناعة من تلطخت يده في الفتنة، وظهر للناس كم كانوا مخطئين بإعانتهم، أو بإمدادهم، قال الله تعالى مبيناً فضل كف اليد - إذ هو الأصل في دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام - وأما القتال فلضرورة دفع

(١) تفسير مقاتل (٢/٣٢٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٩/٦٥٧).

(٣) رواه البخاري (٢٨٢١).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلَالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: لَمَّا عَبَرَ الْحُرُورِيَّةُ النَّهْرَ انْطَلَقُوا إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَبَّابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالُوا: مَا حَدَّثَكَ أَبُوكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْفِتْنِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «تَكُونُ فِتْنٌ، فَكُنْ فِيهَا عَبْدَ اللَّهِ الْمَقْتُولَ، وَلَا تَكُنِ الْقَاتِلَ»^(١).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اُكْسِرُوا قُسِيِّكُمْ - يَعْنِي فِي الْفِتْنَةِ -، واقطعوا الأوتار، والزموا أجواف البيوت، وكُونُوا فِيهَا كَالْخَيْرِ مِنْ ابْنِي آدَمَ»^(٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(٣).

عن عامر الشعبي رحمه الله قال: (لما قاتل مروان الصُّحَاكُ بنَ قَيْسٍ أرسل إلى أيمن بن خُرَيْمِ الأَسَدِيِّ رحمه الله فقال: إنا نُحِبُّ أن تقاتل معنا؛ فقال: إنَّ أبي وعمي - رضي الله عنهما - شهدا بدرًا؛ فعهدا إليَّ أن لا أقاتل أحدًا يشهد أن لا إله إلا الله، فإن جئتني براءة من النار قاتلت معك! فقال: اذهب، ووقع فيه وسبّه، فأنشأ أيمنُ يقول:

ولستُ مقاتلاً رجلاً يصلي .. على سلطانٍ آخرٍ من قريش

(١) رواه الداني في السنن الواردة في الفتن (٣٠)، وهو عند ابن أبي شيبة في المسند (٤٧٦)، ويشهد له ما بعده.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٣٩٩٠٥)، وأحمد (١٩٦٦٣)، بإسناد حسن.

(٣) رواه البخاري (١٠).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

له سلطانه وعليّ إثمي .. معاذ الله من جهلٍ وطيشٍ

أقاتل مسلماً في غير شيء .. فليس بنافعي ما عشت عيشي^(١).

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِحَدِيثَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إِذَا اقْتَتَلَ الْمُسْلِمُونَ فَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: (انظُرْ أَقْصَى بَيْتٍ فِي دَارِكَ فَلُجْ فِيهِ، فَإِنْ دَخَلَ عَلَيْكَ؛ فَقُلْ: هَا، بُوْ بَدْنِي وَذَنْبِكَ)^(٢).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ»، قُلْتُ: لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، قَالَ فِيهِ «كَيْفَ أَنْتَ إِذَا أَصَابَ النَّاسَ مَوْتُ يَكُونُ الْبَيْتُ فِيهِ بِالْوَصِيفِ؟» يَعْنِي الْقَبْرَ، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، - أَوْ قَالَ: مَا خَارَ اللَّهُ لِي وَرَسُولُهُ -، قَالَ: «عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ» - أَوْ قَالَ: «تَصْبِرُ» - ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا أَبَا ذَرٍّ» قُلْتُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «كَيْفَ أَنْتَ إِذَا رَأَيْتَ أَحْجَارَ الزَّيْتِ قَدْ غَرِقَتْ بِالِدَّمِ؟» قُلْتُ: مَا خَارَ اللَّهُ لِي وَرَسُولُهُ، قَالَ: «عَلَيْكَ بِمَنْ أَنْتَ مِنْهُ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أَخَذُ سَيْفِي وَأَضَعُهُ عَلَى عَاتِقِي؟ قَالَ: «شَارَكَتِ الْقَوْمَ إِذَنْ» قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «تَلْزِمُ بَيْتَكَ»، قُلْتُ: فَإِنْ دَخَلَ

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٩٤٧) بإسناد صحيح، والطبراني في الكبير (٨٥٢)، والملطي في التنبيه والرد على

أهل الأهواء والبدع ص (١٨١)، والحاكم (٢٦٩٨)، وقال: (حديث صحيح الإسناد...).

(٢) رواه أحمد (٢٣٣٣٥) بنحوه، والداني في السنن الواردة (١٠٦) بلفظه.

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عَلَيَّ بَيْتِي؟ قَالَ: «فَإِنْ خَشِيتَ أَنْ يَبْهَرَكَ شُعَاعُ السَّيْفِ، فَأَلْقِ ثَوْبَكَ عَلَيَّ وَجْهَكَ يَبُوءُ بِإِثْمِكَ وَإِثْمِهِ»^(١).

١٠٤. الفتن تعلم أن السلامة لا يعدلها شيء

إنَّ رأسَ مالِ المسلمِ إيمانه ودينه؛ فلا بد أن يحرص عليه كل الحرص، حتى يبقى له رأس ماله، لا يقامر للربح على حسابه، ولا للربح مع توقع ذهابه أو نقصانه، فالسلامة لا يعدلها شيء؛ فالفتن تجلي وتعلم أن السلامة خير من الخوض، ومن القيل، ومن السعي، ورأس الأمر الإسلام، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥) [النساء].

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ»^(٢).

وَعَنِ ابْنِ سِيرِينَ قَالَ: قِيلَ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَلَا تُقَاتِلُ، فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الشُّورَى، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ غَيْرِكَ؟ قَالَ: لَا أُقَاتِلُ حَتَّى تَأْتُونِي بِسَيْفٍ لَهُ عَيْنَانِ، وَلِسَانٌ

(١) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده (٤٦١) بنحوه، وأبو داود في سننه (٤٢٦١) بلفظه، والحاكم (٨٥٤٨)،

وقال: (حديث صحيح...)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٤٥١).

(٢) رواه البخاري (٦٤٨٢).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَشَفَتَانِ، يَعْرِفُ الْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ، قَدْ جَاهَدْتُ وَأَنَا أَعْرِفُ الْجِهَادَ، وَلَا أَبْخَعُ بِنَفْسِي إِنْ كَانَ رَجُلٌ خَيْرًا مِنِّي»^(١).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخَافُ عَلَيْكُمُ الْهَرْجَ». قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «الْقَتْلُ». قَالُوا: وَأَكْثَرُ مِمَّا يُقْتَلُ الْيَوْمَ؟ إِنْ لَمْ نَقْتُلْ فِي الْيَوْمِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ قَتْلُ الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنْ قَتْلُ بَعْضِكُمْ بَعْضًا». قَالُوا: وَفِينَا كِتَابُ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَفِيكُمْ كِتَابُ اللَّهِ عِزُّ وَجَلُّ». قَالُوا: وَمَعْنَا عَقُولُنَا؟ قَالَ: «إِنَّهُ مُنْتَزِعٌ عَقُولَ عَامَةِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَخَلَفَ لَهَا هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ، يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ»^(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ فُلَانَةَ تَصُومُ النَّهَارَ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ، وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، فَقَالَ: «لَا خَيْرَ فِيهَا، هِيَ فِي النَّارِ». قِيلَ: فَإِنَّ فُلَانَةَ تُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَتَصَدَّقُ بِأَثْوَارٍ مِنْ أَقِطٍ، وَلَا تُؤْذِي أَحَدًا بِلِسَانِهَا، قَالَ: «هِيَ فِي الْجَنَّةِ»^(٣).

(١) رواه معمر بن راشد كما في الجامع (٢٠٧٣٦)، ومن طريقه عبد الرزاق (٢١٨١٣)، والحاكم (٨٦١٤)، وقال: (حديث صحيح...)، قال الحافظ: (هو منقطع) يعني أن ابن سيرين لم يسمع من سعد رضي الله عنه، وإلا فرجال الإسناد من رجال الصحيحين؛ كما قال الهيثمي في المجمع (١٢٣١٨).

(٢) رواه معمر بن راشد كما في الجامع (٢٠٧٤٤)، ومن طريقه عبد الرزاق (٢١٨٢١)، والحاكم (٨٥٩٨)، وقال الحافظ في إتحاف المهرة (١٠ / ١٤): (...، وصححه ابن حبان من حديث حماد بن سلمة...).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٩)، والحاكم (٧٥٣٣)، وأورده الألباني في الصحيحة (١٩٠).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَقَالَ سَعْدُ بْنُ مَسْعُودٍ التُّجَيْبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (إِنَّ أَتَاكَ الشَّيْطَانُ مِنْ قِبَلِ الصَّمْتِ، فَقَالَ: إِنَّ النَّاسَ يَعُدُّونَ ذَلِكَ مِنْكَ عِيًّا!! فَإِنَّهُ مِنْ قِبَلِ السَّلَامَةِ، وَقُلْ: صَامِتٌ سَالِمٌ خَيْرٌ مِنْ نَاطِقٍ آثِمٍ)^(١).

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ أَبَاهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِأَمْرٍ، أَعْتَصِمُ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمْلِكْ عَلَيْكَ هَذَا»، وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَارِثِ: فَرَأَيْتُ ذَلِكَ يَسِيرًا، وَكُنْتُ رَجُلًا قَلِيلَ الْكَلَامِ، فَلَمَّا أَفْطَنَنِي لَهُ، إِذَا، وَلَا شَيْءَ أَشَدَّ مِنْهُ)^(٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَبِيبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ دَاوُدَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: (رُبَّ كَلَامٍ قَدْ نَدِمْتُ عَلَيْهِ، مَا نَدِمْتُ عَلَى صَمْتٍ قَطُّ)^(٣).

١٠٥. الفتن تكشف أن كثرة الكلام مجلبة للشر

إِنَّ الْمِحْنَ تَظْهَرُ أَنْ مَنْ أَكْثَرَ الْكَلَامَ أَخَذَ بِمَا مَلَامَ، إِمَّا فِي الدُّنْيَا مِنْ قَبْلِ الْأَنَامِ، أَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّ الْأَنَامِ؛ فَالْفِتْنُ تَكْشِفُ أَنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ مَجْلِبَةٌ لِلشَّرِّ، وَلِهَذَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ

(١) أخرجه ابن وهب كما في جامعه (٣٩٧).

(٢) أخرجه ابن وهب كما في جامعه (٣٠١)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٧٢٥)، بإسناد حسن، ورواه

الطبراني في الكبير (٣٣٤٩)، والأوسط (١٩١٥).

(٣) أخرجه ابن وهب كما في جامعه (٣٠٤).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

يمنع كثيراً من الكلام؛ فإنها قد تخرج من باب المزاح كفرة أو نفاقاً أو خذلاناً، أو إعانة على منكر، قال الله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]^(١).

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»^(٢).

وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ؟ قَالَ: «قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَخَوْفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا»^(٣).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ صَمَتَ نَجًا»^(٤).

وَعَنْ شَقِيقِ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ لَبَّى عَلَى الصَّفَا، وَقَالَ: يَا لِسَانَ، قُلْ خَيْرًا تَغْنَمُ، أَوْ اصْمُتْ تَسْلَمُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْدَمَ. فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَهَذَا شَيْءٌ أَنْتَ

(١) قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله في الصارم المسلول ص (٥١٣): (قال أصحابنا وغيرهم: من

سبَّ الله كفرًا، سواء كان مازحًا، أو جادًا؛ لهذه الآية، وهذا هو الصواب المقطوع به).

(٢) رواه البخاري (١١).

(٣) رواه الترمذي (٢٤١٠) وغيره، وقال: (حسنٌ صحيحٌ) بلفظه، وأصله في صحيح مسلم (٦٢/٣٨) بنحوه.

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (٣٨٥)، وابن وهب كما في جامعه (٣٠٢)، وأحمد (٦٤٨١) وإسناده حسن.

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

سَمِعْتَهُ؟ قَالَ: بَلْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَكْثَرَ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ»^(١).

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: (مَا مِنْ شَيْءٍ بِأَحَقَّ بِطُولِ السَّجْنِ مِنَ اللِّسَانِ)^(٢).
وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، دَخَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ آخِذٌ بِلِسَانِهِ بِثُوبِهِ، وَهُوَ يُسْعِسِعُهُ وَهُوَ يَقُولُ: هَذَا الَّذِي أوردني المَوَارِدِ)^(٣).

وَعَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (الْمُتَكَلِّمُ يَنْتَظِرُ الْفِتْنَةَ، وَالصَّامِتُ يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ)^(٤).

وَقَالَ أَبُو مِصْعَبٍ الزَّبِيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (حَدَّثَنَا مَالِكٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ بَلَغَهُ، أَنَّ عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَقُولُ: لَا تَكْثُرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ، فَتَقْسُو قُلُوبَكُمْ، فَإِنَّ الْقَلْبَ الْقَاسِيَ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ، وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ، وَلَا تَنْظُرُوا فِي ذُنُوبِ النَّاسِ كَأَنَّكُمْ أَرْبَابٌ، وَانظُرُوا

(١) رواه الشاشي في مسنده (٦٠٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٣٣)، وحسنه الألباني في الجامع.

(٢) رواه ابن وهب كما في جامعه (٣٠٥).

(٣) رواه ابن وهب كما في جامعه (٣٠٧).

(٤) رواه ابن وهب كما في جامعه (٣٢٣).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

فِيهَا كَاتِبُكُمْ عَيْدٌ، فَإِنَّمَا النَّاسُ مُبْتَلَى، وَمُعَافَى، فَارْحَمُوا أَهْلَ الْبَلَاءِ، وَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى الْعَافِيَةِ^(١).

١٠٦. الفتن تكشف خطورة الجدل والمراء

إِنَّ الشَّرِيعَةَ حَذَّرَتْ مِنَ الْجِدَالِ وَالْمِرَاءِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لَخَطُورَتَهُمَا، وَإِنَّ الْجِدَالَ وَالْمِرَاءَ لَا سِيَمَا فِي الْفِتَنِ تُشْعِلُهَا، وَتَوْقِدُ نِيرَانَهَا، وَتَنْفِخُ فِي رِمَادِهَا، وَتَسَبِّبُ الْفِرْقَةَ، وَزِيَادَةَ الْاِخْتِلَافِ، وَلِهَذَا نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْجِدَالِ وَالْمِرَاءِ، حَتَّىٰ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ يَقِينًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].
وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢].

وَقَالَ جَلَّ فِي عِلْمِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُضْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠)﴾ [غافر].

عَنْ أَبِي قَبِيلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَقْبَةُ بْنُ عَامِرِ الْجَهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَيَهْلِكُ مِنْ أُمَّتِي؛ أَهْلُ الْكِتَابِ، وَأَهْلُ اللَّبَنِ» فَقَالَ عَقْبَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا أَهْلُ الْكِتَابِ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَتَعَلَّمُونَ كِتَابَ اللَّهِ لِيُجَادِلُوا الَّذِينَ آمَنُوا»، فَقَالَ عَقْبَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا أَهْلُ اللَّبَنِ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ، وَيُضَيِّعُونَ الصَّلَوَاتِ».

(١) موطأ مالك رواية أبي مصعب (٢٠٧٥)، ورواه الترمذي مرفوعاً (٢٥٧٥)، والبيهقي في الشعب (٤٩٥١) من

مسند ابن عمر رضي الله عنهما؛ لكن بإسنادٍ ضعيف.

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

قال أبو قبيل: لا أحسب المُكذِّبِينَ بِالْقَدْرِ إِلَّا الَّذِينَ يَجَادِلُونَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَأَمَّا أَهْلُ اللَّبَنِ، فلا أحسبهم إلا أهل العمود ليس عليهم إمام جماعة، ولا يعرفون شهر رمضان^(١).

وَعَنْ أَبِي أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا زَعِيمٌ بَيْتٍ فِي رَبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبَيْتٍ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَنَ خُلُقُهُ»^(٢).

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ يَجِدُ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: تَرَكَ الْمِرَاءَ فِي الْحَقِّ، وَالْكَذِبَ فِي الْمَزَاحَةِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ)^(٣).

وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنْبِهٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (بُلِّغَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ مَجْلِسٍ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فِي نَاحِيَةِ بَابِ بَنِي سَهْمٍ يَجْلِسُ فِيهِ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فَيَجْتَمِعُونَ فَتَرْتَفِعُ أَصْوَاتُهُمْ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَيْهِمْ، فَاَنْطَلَقْنَا إِلَيْهِمْ حَتَّى وَقَفْنَا عَلَيْهِمْ، فَقَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَخْبِرْهُمْ عَنِ الْكَلَامِ الَّذِي كَلَّمَ بِهِ الْفَتَى أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ فِي مَلَأِهِ، قَالَ: قُلْتُ: قَالَ الْفَتَى: يَا أَيُّوبُ مَا كَانَ فِي عَظْمَةِ اللَّهِ، وَذِكْرُ الْمَوْتِ مَا يُكِلُّ لِسَانَكَ، وَيَقْطَعُ قَلْبَكَ،

(١) رواه أحمد (١٧٣١٨)، والحاكم (٣٤١٧)، وابن جرير واللفظ له، وهو في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٩٤٤) للشيخ مقبل الوداعي رحمه الله، وعند بعضهم: (أهل اللين) وأظنه تحريفًا، والصواب: «أهل اللين»، كما في أكثر المصادر، وكما هو ظاهر في سياق الكلام.

(٢) رواه أبو داود (٤٨٠٠) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) رواه معمر بن راشد كما في الجامع (٢٠٠٨٢)، ومن طريقه عبد الرزاق (٢١١٤٩).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَيَكْسِرُ حُجَّتَكَ؟ يَا أَيُّوبُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ عِبَادًا أَسَكَّتَهُمْ خَشْيَةَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ عِيٍّ وَلَا بَكْمٍ، وَأَنَّهُمْ لَهُمُ النَّبَلَاءُ الطُّلُقَاءُ الْفُصْحَاءُ الْأَلْبَاءُ الْعَالِمُونَ بِاللَّهِ وَأَيَّامِهِ، وَلَكِنَّهُمْ إِذَا ذَكَرُوا عَظَمَةَ الْمَوْتِ، تَقَطَّعَتْ قُلُوبُهُمْ، وَكَلَّتْ أَلْسِنَتُهُمْ، وَطَاشَتْ عُقُولُهُمْ وَأَحْلَامُهُمْ فَرَقًا مِنَ اللَّهِ وَهَيْبَةً لَهُ، فَإِذَا اسْتَفَاقُوا مِنْ ذَلِكَ اسْتَبَقُوا إِلَى اللَّهِ بِالْأَعْمَالِ الزَّائِكِيَّةِ، لَا يَسْتَكْثِرُونَ لِلَّهِ الْكَثِيرَ وَلَا يَرْضُونَ لَهُ بِالْقَلِيلِ، وَيَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ الظَّالِمِينَ وَالْخَاطِئِينَ، وَإِنَّهُمْ لَأَنْزَاهُ أَبْرَارٌ وَمَعَ الْمُضِيِّينَ وَالْمُفْرَطِينَ، وَإِنَّهُمْ لَأَكْيَاسُ أَقْوِيَاءٍ، نَاحِلُونَ دَائِبُونَ يَرَاهُمُ الْجَاهِلُ فَيَقُولُ مَرَضَى وَلَيْسُوا بِمَرَضَى، وَقَدْ حَوْلَطُوا وَقَدْ خَالَطَ الْقَوْمَ أَمْرٌ عَظِيمٌ.

قَالَ أَبُو الْحَكَمِ: وَكَتَبَ إِلَيَّ رَجُلٌ، أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ لَهُمْ عَلَيَّ أَثَرُ هَذَا الْكَلَامِ: كَفَى بِكَ ظَالِمًا أَنْ لَا تَزَالَ مُخَاصِمًا، وَكَفَى بِكَ آثِمًا أَنْ لَا تَزَالَ مُمَارِيًا، وَكَفَى بِكَ كَاذِبًا أَنْ لَا تَزَالَ مُحَدِّثًا بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ^(١).

وعن عطاء بن أبي رباح رحمه الله قال: (إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَعُدُّونَ فَضُولَ الْكَلَامِ، مَا عَدَا كِتَابَ اللَّهِ، أَوْ أَمْرَ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيَ عَنِ مَنكَرٍ، أَوْ أَنْ تَنْطِقَ فِي مَعِيشَتِكَ الَّتِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْهَا. أَتَذَكُرُونَ أَنَّ عَلَيْكُمْ حَافِظِينَ، كَرَامًا كَاتِبِينَ، وَعَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدًا، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ؟! أَمَا يَسْتَحْيِ أَحَدَكُمْ لَوْ نُشِرَتْ صَحِيفَتُهُ الَّتِي أَمْلَى صَدْرَ نَهَارِهِ؟! وَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ آخِرَتِهِ؟!)^(٢).

(١) رواه العديني في كتابه الإيمان (٥).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٥٠٨٠).

١٠٧. الفتن تكشف خطورة التحزبات

لا شك أن الله تعالى أمر المؤمنين بالاجتماع في الدنيا والدين؛ فقال الله تعالى: قال سبحانه: ﴿واعتصموا بالله هو مولاكم فنعمة المولى ونعم النصير﴾ [الحج: ٧٨].
 وإنّا مأمورون شرعاً بالاعتصام بالدين، والاعتصام بالكتاب المبين، كيف لا وربنا واحد، وكتابٌ واحدٌ، ونبينا واحدٌ، وقبلتنا واحدة، ولكنّ شياطين الإنس والجنّ يُزيّنون الباطل والتحزبات تحت مُسمّيات متعددة، وتحت تسويغات متنوّعة؛ فتارة تحت مسمّى (الحرية)، وتارة تحت مسمّى (الضرورة)، وتارة تحت مسمّى (الحاجة)، وتارة تحت مسمّى (الحضارة؟!)، وكلّ يسوّغ التحزبات بحسب منهجه وتوجهه؛ فهذا علماني يراها ضرورة دنيوية، وهذا منتسبٌ إلى الإسلام يراها ضرورة دينية!؟

وربّ العزة تبارك وتعالى قد بيّن اختلاف أهل الكتاب بعد نزول الكتاب، وخطورة ذلك في الحال والمآب؛ فقال سبحانه العليم الوهاب: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣)﴾ [المؤمنون].
 وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

وقد أخبر الله تعالى أن أهل الإيمان هم المرحومون من الاختلاف؛ فقال جلّ في علاه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمُحَايَاةِ

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: **{ولا يزالون مختلفين}** قال: أهل الحقّ وأهل الباطل، **{إلا من رحم ربك}** قال: أهل الحقّ، وقال: **{إلا أهل رحمته؛ فإنهم لا يختلفون}**^(١). وبين سبحانه أن له حزبًا واحدًا؛ فأضافهم إلى نفسه، وهم المؤمنون المسلمون؛ فقال جلّ وعزّ: **{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [المجادلة: ٢٢].

والاسمُ العلمُ لِأُمَّةِ الْإِسْلَامِ هو (المسلمون)؛ كما قال ربنا تبارك وتعالى: **{هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا}** [الحج: ٧٨]^(٢).

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنَا أَمْرُكُمْ بِخَمْسٍ: أَمْرُكُمْ بِالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَالْجَمَاعَةِ، وَالْهَجْرَةِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَمَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قَيْدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ رَأْسِهِ، وَمَنْ دَعَا دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ

(١) أخرجه ابن جرير (١٢/٦٣٥)، وانظر: الدر (٤/٤٩١)، ونسبه إلى عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) قال الحكيم الترمذي: (فَكَذَلِكَ شَأْنُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَالْأُمَّةِ؛ فَإِنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تَسَمَّتْ بِاسْمٍ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهَا، مِثْلُ: الْيَهُودِ، وَالنَّصَارَى، وَالْمَجُوسِ، فَوَلِيَ اللَّهُ تَعَالَى تَسْمِيَةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: **{هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ}**...، وَهُوَ السَّلَامُ وَالْمُؤْمِنُ وَسَمَّاهُمْ مُسْلِمِينَ، وَمُؤْمِنِينَ؛ فَاسْمُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي عَلَّمَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَاقْتَضَى مِنْهَا وَفَاءَ هَذَا الْإِسْمِ أَنْ يَأْمَنَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَيَسَلِّمَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) نواذر الأصول (٢/١٧٦ - ١٧٧).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

جُثَاءُ جَهَنَّمَ». قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى، وَلَكِنْ تَسَمَّوْا بِاسْمِ اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، الْمُسْلِمِينَ، الْمُؤْمِنِينَ»^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضِي لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا؛ فَيَرْضِي لَكُمْ؛ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا. وَيَكْرَهُ لَكُمْ؛ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ»^(٢).

١٠٨. الفتن تكشف مخاطر الأحزاب السرية

لا شك أن التفرق والتشردم شرٌّ، وأن التحزبات شرٌّ، وأعظم من ذلك تلکم التنظيمات السرية التي تعمل كمعاول هدم في بنية المسلمين، وتهدم الأسوار من الداخل، من دون أن يُفطن لهم، وهنا مكنم الخطر في التحزبات، وتكشف مخاطر الأحزاب السرية في الفتن المتعددة، والمحن المتنوعة.

فكم ظهر مخاطر ابن سبأ اليهودي على المسلمين بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكم ظهر مخاطر المخططات السرية التي عملت في اغتيال كبار الصحابة رضي الله عنهم، مثل قتل الغيلة التي وقع لطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، رضي الله

(١) رواه معمر بن راشد كما في الجامع (٢٠٧٠٩)، ومن طريقه عبد الرزاق (٥٢٨٨)، وأحمد (٢٢٩١٠)

والترمذي (٣٠٧٩)، وغيرهم، وقال: (حديث حسن صحيح غريب).

(٢) رواه مسلم (١٧١٥).

عِبْرُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عنهما، وما خطط له الخوارج سرًّا في قتل عليٍّ ومعاويةَ وعمرو، رضي الله عنهم، فتم لأصحاب التحزبات السرية قتل عليٍّ رضي الله عنه، وجرح معاوية رضي الله عنه، ونجاة عمرو رضي الله عنه.

ولا تنتهي مخاطر المخططات السرية ما دامت الأحزاب الباطنية موجودة، والأحزاب الخارجية مُشْرِبَّة - كفانا الله تعالى شرورهم، وسدد الله ولادة الأمر لفضحهم، وكشفهم - ومن عبر الفتن، وحكم المحن، ظهور هذه الأحزاب السرية، وظهور مخاطرها^(١)، قال الله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)﴾ [النساء].

قال مجاهد بن جبر رحمه الله: (الآية عامة في حق جميع الناس)^(٢).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رحمه الله: (قال: مَنْ جاءك يُناجيك في هذا فاقبل مناجاته، ومَنْ جاء يُناجيك في غير هذا فاقطع أنت ذاك عنه، لا تُناجيه)^(٣).

(١) قال الشاعر - ونسب إلى الشافعي، ولم أجده، ونسب إلى المستنصر بالله كما في أعلام المغرب لابن الأحرر

ص(٩٨):

جزى الله الشدائد كل خير ... وإن كانت تغصصني بريقي
وما شكري لها إلا ولكن ... عرفت بها عدوي من صديقي.

(٢) تفسير البغوي (١/٧٠٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/١٠٦٥).

وقال عز وجل: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧)﴾ [الإسراء: ٤٧].

قال الإمام البخاري رحمه الله: (مَصْدَرٌ مِنْ نَاجَيْتٍ، فَوَصَفَهُمْ بِهَا، وَالْمَعْنَى: يَتَنَاجَوْنَ)^(١).
وقال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩)﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠)﴾ [المجادلة].

قال مقاتل بن حيان: (كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين اليهود موادعة، وكانوا إذا مرَّ بهم الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله، أو بما يكره المؤمن، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم؛ فترك طريقه عليهم، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن النجوى فلم يتهوا، وعادوا إلى النجوى، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٨]^(٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: (كُنْتُ أَنَا وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِنْدَ دَارِ خَالِدِ بْنِ عُقْبَةَ الَّتِي بِالسُّوقِ، فَجَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يُنَاجِيَهُ، وَلَيْسَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرِ

(١) صحيح البخاري: باب طول النجوى، كتاب الاستئذان.

(٢) الدر (٨/ ٨٠)، ونسبه إلى ابن أبي حاتم، وانظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٠٢).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمُحَنِّ

الرَّجُلِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُنَاجِيَهُ، فَدَعَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَجُلًا حَتَّى كُنَّا أَرْبَعَةً، فَقَالَ لِي وَلِلرَّجُلِ الَّذِي دَعَا: اسْتَخِرَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ وَاحِدٍ»^(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى رَجُلَانِ دُونَ الْآخِرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ؛ أَجَلَ أَنْ يُحْزِنَهُ»^(٢).
وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: «إِذَا رَأَيْتَ قَوْمًا يَتَنَاجُونَ فِي دِينِهِمْ دُونَ الْعَامَّةِ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ عَلَى تَأْسِيسِ ضَلَالَةٍ»^(٣).

١٠٩. الْفِتْنُ تَكْشِفُ الْخَائِنِينَ

لَا شَكَّ أَنَّ فِي حَالِ الدَّعَةِ وَالسَّرَاءِ كُلِّ يَدَّعِي الْحَبَّ وَالْوَلَاءَ، وَلَكِنْ فِي وَقْتِ الْمُحَنِّ وَالضَّرَاءِ يَظْهَرُ الْخَوْنَةُ الدَّهْمَاءِ، فَالْفِتْنُ تُظْهِرُ الْمُنْدَسِّينَ، وَتَجْلِي الْمَتَامِرِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾ [الأنفال].

(١) رواه مالك في الموطأ (٢٠٨١) رواية أبي مصعب، وهو في صحيح البخاري بدون ذكر القصة بنحوه (٦٢٩٦)، ومسلم (٢١٨٣).

(٢) رواه البخاري (٦٢٩٨)، ومسلم (٢١٨٤).

(٣) رواه البيهقي في الشعب (٢٦٧١، ٢٦٩٦)، وقوام السنة في الترغيب والترهيب (٩٦٨)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة لأبي القاسم الطبراني اللالكائي (٢٥١)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٧٧٤).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وهؤلاء الخونة الذين يوالون أعداء الله تعالى يظهرون في كل زمان ومكان، وسيمكن الله تعالى منهم، وذلك لأنه سبحانه لا يهدي كيد الخائنين، قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

وقال سبحانه في وسط آيات فتنة وابتلاء القتال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾ [النساء].

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: (يقول: ولا تكن لمن خان مسلماً، أو معاهداً في نفسه، أو ماله، {خَصِيمًا} تخاصم عنه، وتدفع عنه من طالبه بحقه الذي خانه فيه)^(١).

وعن الزهري رحمه الله مرسلًا قال: (...قَدِمَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْجَابِيَةَ فَنَزَعَ شُرْحَيْلَ بْنَ حَسَنَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَمَرَ جُنْدَهُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا فِي الْأَمْرَاءِ الثَّلَاثَةِ؛ فَقَالَ شُرْحَيْلُ بْنُ حَسَنَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَعْجَزْتُ أَمْ خُنْتُ؟ قَالَ: لَمْ تَعْجِزْ، وَلَمْ تَخُنْ. قَالَ: فَفِيمَ عَزَلْتَنِي؟ قَالَ: تَحَرَّجْتُ أَنْ أُوْمِرَكَ وَأَنَا أَجِدُ أَقْوَى مِنْكَ، قَالَ: فَاعْذُرْنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: سَأَفْعَلُ، وَلَوْ عَلِمْتُ غَيْرَ ذَلِكَ لَمْ أَفْعَلُ، قَالَ: فَقَامَ عُمَرُ فَعَدَّرَهُ)^(٢).

وعن هشام بن عروة عن أبيه -رحمهما الله- قال: (مكتوب في التوراة: لا تخن الخائن، خيانتة تكفيك)^(٣).

(١) تفسير الطبري (٤٥٧/٧).

(٢) رواه عبد الرزاق (١٠٦٣٦).

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٢٤٤٤٣).

وَعَنْ حُمَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُقَالُ لَهُ: يُوسُفُ - وَهُوَ ابْنُ مَاهَكَ، رَحِمَهُ اللَّهُ - قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ نَلِي مَالَ أَيْتَامٍ، قَالَ: وَكَانَ رَجُلٌ قَدْ ذَهَبَ مِنِّي بِالْأَفِ دِرْهَمٍ، قَالَ: فَوَقَعْتُ لَهُ فِي يَدِي أَلْفُ دِرْهَمٍ، قَالَ: فَقُلْتُ لِلْقُرَشِيِّ: إِنَّهُ قَدْ ذَهَبَ لِي بِالْأَفِ دِرْهَمٍ، وَقَدْ أَصَبْتُ لَهُ أَلْفَ دِرْهَمٍ. قَالَ: فَقَالَ الْقُرَشِيُّ: حَدَّثَنِي أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَدُّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَدُّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»^(٢).

وَعَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَأَبَا مَرْثِدَ الْغَنَوِيِّ؛ وَكُنَّا فَارِسٌ، فَقَالَ: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاحٍ، فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مَعَهَا صَحِيفَةٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ»، قَالَ: فَأَدْرَكْنَاهَا تَسِيرٌ عَلَيَّ جَمَلٍ لَهَا حَيْثُ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: قُلْنَا أَيْنَ الْكِتَابُ الَّذِي مَعَكَ؟ قَالَتْ: مَا مَعِيَ كِتَابٌ، فَأَنخْنَا بِهَا، فَأَبْتَغِينَا فِي رَحْلِهَا فَمَا وَجَدْنَا شَيْئًا، قَالَ صَاحِبَايَ: مَا نَرَى كِتَابًا، قَالَ: قُلْتُ: لَقَدْ عَلِمْتُ مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ، لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَا جَرْدَنِكَ، قَالَ: فَلَمَّا رَأَتِ الْجِدَّ مِنِّي، أَهَوَتْ بِيَدِهَا إِلَى حُجْزَتِهَا، وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ، فَأَخْرَجَتِ الْكِتَابَ، قَالَ: فَأَنْطَلَقْنَا بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «مَا حَمَلَكَ يَا حَاطِبُ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟»، قَالَ: مَا بِي إِلَّا أَنْ أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ،

(١) رواه أحمد (١٥٤٢٤) وهذا لفظه، وأبو داود (٣٥٣٤)، والترمذي (١٢٦٤)، وقال: (حسنٌ غريبٌ).

(٢) رواه أبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٣١٠)، وغيرهما، وقال: (حسنٌ غريبٌ).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمُحَنِّ

وَمَا غَيَّرْتُ، وَلَا بَدَّلْتُ، أَرَدْتُ أَنْ تَكُونَ لِي عِنْدَ الْقَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَلَيْسَ مِنْ أَصْحَابِكَ هُنَاكَ إِلَّا وَلَهُ مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ، قَالَ: «صَدَقَ، فَلَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا». قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَدَعَنِي فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، قَالَ: فَقَالَ: «يَا عُمَرُ، وَمَا يُدْرِيكَ؟! لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ»، قَالَ: فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ، وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ^(١).

١١٠. الفتن تجلي أهمية العزلة

إِنَّ مِنْ حِكْمِ الْمُحَنِّ أَنَّهَا تَجْلِي أَهْمِيَّةَ الْعِزْلَةِ فِي الْفِتْنِ، وَتَكْشِفُ لِلنَّاسِ ضَرُورَةَ الْبَعْدِ عَنِ مَوَاطِنِ الشَّبْهَةِ، وَعَنْ مَسَالِكِ الْفِتْنَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].
وهذه العزلة قد تكون واجبة إذا خشي المسلم مشاركته في الفتنة، وقد تكون مستحبة إذا أمن من المشاركة، وأنه يكون في سلامة، قال الله تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

(١) رواه البخاري (٦٢٦٥)، ومسلم (٢٤٩٤).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عَنْ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ هِجْرَةً بَعْدَ هِجْرَةٍ لَخِيَارِ النَّاسِ إِلَى مُهَاجِرِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(١).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ؛ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ»^(٢).

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنًا، أَلَا تَمَّ تَكُونُ فِتْنَةُ الْقَاعِدِ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي فِيهَا، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي إِلَيْهَا، أَلَا فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ وَلَا غَنَمٌ وَلَا أَرْضٌ؟ قَالَ: «يَعْمِدُ إِلَى سَيْفِهِ فَيَدُقُّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ، ثُمَّ لِيَنْجُو إِنْ اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ أُكْرِهْتُ حَتَّى يُنْطَلَقَ بِي إِلَى أَحَدِ الصَّفِينِ أَوْ إِحْدَى الْفِئْتَيْنِ، فَضَرَبَنِي

(١) رواه معمر بن راشد كما في الجامع (٢٠٧٩٠)، والطيالسي في مسنده (٢٤٠٧)، وعبد الرزاق (٢١٨٦٧)، وأحمد (٦٨٧١، ٦٩٥٢)، وأبو داود (٢٤٨٢)، قال ابن حجر في الفتح (٣٨٠ / ١١): (رواه أحمد، وسنده لا بأس به)، وأورده الألباني في الصحيحة (٣٢٠٣).

(٢) رواه البخاري (١٩) تحت (باب من الدين الفرار من الفتن).

عِبْرُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

رَجُلٌ بِسَيْفِهِ، أَوْ يَجِيءُ سَهْمٌ فَيَقْتُلُنِي؟ قَالَ: «يُبْؤُءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ، وَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»^(١).

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: (نِعَمَ صَوْمَعَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ بَيْتُهُ، يَحْفَظُ عَلَيْهِ نَفْسَهُ وَسَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، وَإِيَّاكُمْ وَمَجَالِسَ السُّوقِ؛ فَإِنَّهَا تُلْهِي وَتُطْغِي)^(٢).

١١١. الفتن تجلي أهمية الصلحة الصالحة

إن الصلحة مؤثرة على الإنسان سلباً وإيجاباً؛ فإذا كان هذا في حال السراء ظاهراً؛ فإن ذلك يتجلى في الضراء والمحن أكثر؛ فيتبين للمرء أهم الرفقة الصالحة، ويتجلى ذلك في قصة أصحاب الكهف، قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (١٤)﴾ [الكهف].

وقال سبحانه مبيناً في وقت السراء أحوال الأخلاء الصالحين: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف].

(١) رواه مسلم (٢٨٨٧).

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد ص (٤).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»^(١).

وَعَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ: (خَلِيلَانِ مُؤْمِنَانِ، وَخَلِيلَانِ كَافِرَانِ، تُوْفِي أَحَدَ الْمُؤْمِنِينَ؛ فُبَشِّرَ بِالْجَنَّةِ، فَذَكَرَ خَلِيلَهُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ، إِنَّ خَلِيلِي فَلَانًا كَانَ يَأْمُرُنِي بِطَاعَتِكَ وَطَاعَةِ رَسُولِكَ، وَيَأْمُرُنِي بِالْخَيْرِ، وَيَنْهَانِي عَنِ الشَّرِّ، وَيَنْبِئُنِي أَنِّي مَلَاقِيكَ، اللَّهُمَّ، فَلَا تُضَلِّهِ بَعْدِي حَتَّى تُرِيَهُ مَا أُرَيْتُنِي وَتَرْضَى عَنْهُ كَمَا رَضَيْتَ عَنِّي. فَيُقَالُ لَهُ: اذْهَبْ، فَلَوْ تَعَلَّمَ مَا لَهُ عِنْدِي لَضَحَكَتْ كَثِيرًا وَلَبَكَيْتَ قَلِيلًا. ثُمَّ يَمُوتُ الْآخَرُ، فَيُجْمَعُ بَيْنَ أَرْوَاحِهِمَا، فَيُقَالُ: لَيْثُنِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا عَلَى صَاحِبِهِ. فَيَقُولُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ: نِعْمَ الْأَخُ، وَنِعْمَ الصَّاحِبُ، وَنِعْمَ الْخَلِيلُ. وَإِذَا مَاتَ أَحَدُ الْكَافِرَيْنِ بُشِّرَ بِالنَّارِ، فَيَذَكَرُ خَلِيلَهُ، فَيَقُولُ: اللَّهُمَّ، إِنَّ خَلِيلِي فَلَانًا كَانَ يَأْمُرُنِي بِمَعْصِيَتِكَ وَمَعْصِيَةِ رَسُولِكَ، وَيَأْمُرُنِي بِالشَّرِّ وَيَنْهَانِي عَنِ الْخَيْرِ، وَيَنْبِئُنِي أَنِّي غَيْرُ مَلَاقِيكَ، اللَّهُمَّ، فَلَا تَهْدِهِ بَعْدِي حَتَّى تُرِيَهُ مِثْلَ مَا أُرَيْتُنِي، وَتَسْخَطَ عَلَيْهِ كَمَا سَخَطْتَ عَلَيَّ. فَيَمُوتُ الْآخَرُ، فَيُجْمَعُ بَيْنَ أَرْوَاحِهِمَا، فَيُقَالُ: لَيْثُنِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا عَلَى صَاحِبِهِ. فَيَقُولُ كُلُّ وَاحِدٍ لِصَاحِبِهِ: بئس الأخ، وبئس الصاحب، وبئس الخليل)^(٢).

(١) رواه الطيالسي في مسنده (٢٦٩٦)، وإسحاق بن راهويه (٣٥١)، وأحمد (٨٠٢٨)، وأبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨) وغيرهم، وقال: (حسنٌ غريبٌ)، وكم انتفع أناسٌ بصحبتهم لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى كان سبباً لإسلامهم.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد ص (١٠٧)، والبيهقي في الشعب (٩٤٤٣)، والشَّجَرِي فِي تَرْتِيبِ الْأَمْالِي (٢١١١)، وانظر الدر المنثور (٣٨٩/٧)، ونسبه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن زنجويه وابن جرير وغيرهم.

١١٢. الفتن تكشف ضرر قرناء السوء

إن الصحبة مؤثرة على الإنسان سلباً وإيجاباً؛ فإذا كان هذا في حال السراء ظاهراً؛ فإن ذلك يتجلى في الضراء والمحن أكثر؛ فيتبين للمرء ضرر الرفقة السيئة، ويتجلى ذلك في وقت الضراء؛ فيظهر مزار الأخلاء السيئين: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩)﴾ [الفرقان].

عن قتادة بن دعامة رحمه الله قال: (صارت كلُّ خُلَّةٍ عداوة على أهلها يوم القيامة، إلا خُلَّةَ المتقين).

قال: وذكر لنا: أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «الأخلاء أربعة: مؤمنان وكافران، فمات أحد المؤمنين، فسئل عن خليله، فقال: اللهم، لم أر خليلاً أمرَ بمعروف ولا أنهى عن منكرٍ منه، اللهم، اهده كما هديتني، وأمته على ما أمتني عليه. ومات أحد الكافرين، فسئل عن خليله، فقال: اللهم، لم أر خليلاً أمرَ بمنكرٍ منه، ولا أنهى عن معروف منه، اللهم، أضله كما أضلتني، وأمته على ما أمتني عليه». قال: «ثم يُبعثون يوم القيامة، فقال: ليثن بعضكم على بعض. فأما المؤمنان فأثنى كلُّ واحد منهما على صاحبه كأحسن الثناء، وأما الكافران فأثنى كلُّ واحد منهما على صاحبه كأقبح الثناء»^(١).

(١) الدر المنثور (٧/٣٨٨) ونسبه إلى عبد بن حميد، وهو مرسل، يشهد له ما روي عن علي رضي الله عنه. وكم

تضرر أناسٌ بصحبتهم لأبي جهل، قبحه الله وأتباعه.

١١٣. تكشف قيمة العبادة الخفية

إن العبادات تظهر آثارها وفوائدها وثمراتها بعد حين جليّة، وأمّا حين أدائها فقد تكون خفية، ويسيرة، لا سيما على المبتدئين فيها، وغير المدركين لقيمتها، وفضائلها، وثمراتها.

وإنّ المحن تجلّي آثار العبادات الخفية، التي يخفيها العابد، وكان يبذل جهده لعدم إظهارها؛ فيتجلّى لطفُ الله تعالى على عبده وقت المحنة، فتقلب بتلك العبادة الخفية المحنة إلى منحة، قال الله تعالى مبيّنًا كيف عاشت مريم يتيمة في محنة لكنها كانت تعيش في منحة: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وقال الصّالح صاحبُ العبادات الخفية للطالح المجاور له: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرْنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاوُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)﴾ [الكهف].

قال عامر بن سعد رحمه الله: كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في إبله، فجاءه ابنه عمراً فلما رآه سعد قال: أعود بالله من شر هذا الراكب، فنزل فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ؛ فَقَالَ: اسْكُتْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ»^(١).

وَعَنْ أُمِّ سَلْمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَالصَّدَقَةُ خَفِيًّا تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ زِيَادَةٌ فِي الْعُمُرِ، وَكُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَأَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ»^(٢).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لِتُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ وَتَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ»^(٣).

وَقَالَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إِنَّ الْمَالَ فِيهِ صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ، وَالنَّفَقَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ، وَعَوْنٌ عَلَى حُسْنِ الْخُلُقِ، وَفِيهِ مَعَ ذَلِكَ شَرَفُ الدُّنْيَا وَلَذَّتُهَا)^(٤).

وَعَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (تَجِدُ الرَّجُلَ يَسْتَكْثِرُ مِنْ أَنْوَاعِ الْبُرِّ، وَيَحْتَاطُ فِي صَنَائِعِ الْمَعْرُوفِ، وَيَكَابِدُ سَهْرَ اللَّيْلِ، وَشِدَّةَ ظَمَاءِ الْهَوَاجِرِ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَا يُسَاوِي عِنْدَ اللَّهِ جِيْفَةَ حِمَارٍ. قَالُوا: وَكَيْفَ؟! قَالَ: ذَاكَ مِنْ قَلَّةِ عَقْلِهِ، وَسُوءِ رِعَايَتِهِ، وَلَعَلَّكَ تَجِدُ الرَّجُلَ الْعَاقِلَ

(١) رواه مسلم (٢٩٦٥).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٦٠٨٦)، وفي الكبير (٧٠١٤) بعضه عن أبي أمامة، وفي الأوسط (٩٤٣) عن بهز

عن أبيه عن جده بعضه، والحاكم (٤٣٣)، وقال: (يذكر في الشواهد)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٨٩٠).

(٣) رواه الترمذي (٦٦٩)، وغيره، وقال: (حسنٌ غريبٌ...).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (١٠٠).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

نَائِمًا بِاللَّيْلِ، مُفْطِرًا بِالنَّهَارِ، لَا يَظْهَرُ لَكَ بَرَّهُ، وَلَا يَنْسَبُ إِلَيَّ صِنَاعَ الْمَعْرُوفِ، وَبَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. قِيلَ: وَكَيْفَ ذَاكَ؟! قَالَ: لِأَنَّ رَبَّنَا افْتَرَضَ عَلَيَّ عِبَادَهُ أَنْ يَعْرِفُوهُ وَيَطِيعُوهُ وَيَعْبُدُوهُ، وَإِنَّمَا يُطِيعُهُ وَيَعْرِفُهُ وَيَعْبُدُهُ مَنْ يَعْقِلُ؛ فَأَمَّا الْجَاهِلُ فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُهُ، وَلَا يُطِيعُهُ، وَلَا يَعْبُدُهُ^(١).

١١٤. الفتن تُرَبِّي عَلَى الْإِكْتِثَارِ مِنَ الْعِبَادَةِ

إِنَّ الْمُسْلِمَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا مَنَاصَ لَهُ فِي زَمَنِ الْفِتَنِ، وَأَمَاكِنَ الْمِحْنِ، إِلَّا الطَّاعَةَ وَالْعِبَادَةَ، وَمِنْ أَعْظَمِهَا الصَّلَاةَ وَالتَّسْبِيحَ وَالتَّكْبِيرَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢)﴾ [طه].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ أَمْرًا بِاللُّجَأِ إِلَىٰ عِبَادَةِ الذِّكْرِ وَقْتَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ فِي مِحْنِ الْوَعْيِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)﴾ [الأنفال].
 وَهَذِهِ مَرِيْمُ الَّتِي وَقَعَ عَلَيْهَا الْإِبْتِلَاءُ الْقَدْرِيُّ بِأَنَّ تَكُونَ الْمَخْتَارَةَ الَّتِي تَلِدُ بِلَا زَوْجٍ، أَمْرَهَا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ تَصُومَ، وَأَنْ تَخْبَرَ بِصَوْمِهَا، وَلَا تَتَكَلَّمْ؛ فَقَالَ لَهَا: ﴿فَإِمَّا تَرِينَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦)﴾ [مريم].

(١) نوادر الأصول (٢/٣٥٨).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهَجْرَةِ إِلَيَّ»^(١).

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَيْقَظَ لَيْلَةً فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أَنْزَلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتْنَةِ؟! مَاذَا أَنْزَلَ مِنَ الْخَزَائِنِ؟! مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ؟! يَا رَبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ»^(٢).

١١٥. تظهر أهمية الدعاء

لا ريب أن الدعاء عبادة عظيمة يمكن القيام بها في أي وقت ومكان، ولكنها تتجلى بصورة الإلحاح وقت المحن، وتظهر مدى التضرع وقت الفتن؛ فهذه حكمة من تقديرات البلاءات، وعبرة من عبر الويلات، قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)﴾ [المتحنة].

وقال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام الذي افتتن بعداوة أهله، وهجرته وبعده عن داره، متضرعاً إلى ربه: ﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩)﴾ [مريم].

(١) رواه مسلم (٢٩٤٨)، تنبيه: المراد بـ «الهرج» هنا الفتنة، واختلاط أمور الناس. وسبب كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفلون عنها، ويشتغلون عنها، ولا يتفرغ لها إلا أفراد صادقون، وقلة بالدين متمسكون، لا سيما في أيام الفتن وظهور العناد بين العباد، وانتشار الفساد في البلاد.

(٢) رواه البخاري (١١٣٢).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وموسى عليه السلام بعد ما افتتن بفرعون الطاغية، واضطر للهجرة خوف الغائلة، قال مُتَضَرِّعًا وهو في طريق هجرته، مُتَوَسِّلًا بفقره وحاجته: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢)﴾ [القصص: ٢٢].

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرِ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبِدْ فِي الْأَرْضِ»؛ فَمَا زَالَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ مَا دَا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكَبِيهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكَبِيهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشِدَتَكَ رَبِّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ) (١).

١١٦. الفتنُ تُلجئُك إلى الحصون المنيعه

إنَّ المِحْنَ سببٌ لبحثِ الإنسان عن الحصون المنيعه الحسيه، وكذلك هي سببٌ للجوء إلى الحصون المعنويه؛ فتكون الفتن سببًا من أسباب كثرة البحث عن المنجيات في المهلكات، والبحث عن تلك الحصون المعنويه التي تكون من رب البريات، بأسباب

(١) رواه مسلم (١٧٦٣).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

شرعية وردت في الآيات، أو في الأحاديث الثابتات، قال الله تعالى عن لوط عليه السلام:
﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (٨٠) [هود].

وبيّن الله سبحانه كيف أنه لما لجأ إلى حصونه المؤمنون الصادقون، نجاهم، وجعل لهم من كل فتنة ومحنة منحة: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢٦) [الأنفال].

قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله: (كان هذا الحيّ أذلّ الناس ذللاً، وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً، وأبينه ضلالةً، مكعومين على رأس حجر بين الأسدَيْنِ فارس والروم، لا والله ما في بلادهم شيء يُحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيّاً، ومن مات منهم رُدِّي في النار، يُؤكلون ولا يأكلون، لا والله ما نعلمُ قبيلًا من حاضر الأرض يومئذٍ كان أشرَّ منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام، فمكّن به في البلاد، ووسّع به في الرزق، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا لله نعمه؛ فإن ربكم مُنعمٌ يحبُّ الشكر، وأهلُ الشكر في مَزِيدٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) (١).

وقال عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

(١) أخرجه ابن جرير (٥/٦٥٧).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَفِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَيَرْحَمُ اللَّهُ لَوْ طًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»^(١).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِي}: الَّذِي أَخَذْتُ فِي أَعْنَاقِكُمْ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَكُمْ، ثُمَّ {أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ} أَي: أَنْجِزْ لَكُمْ مَا وَعَدْتُمْ عَلَيْهِ بِتَصَدِيقِهِ وَاتِّبَاعِهِ، بِوَضْعِ مَا كَانَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْإِصْرِ وَالْأَغْلَالِ الَّتِي كَانَتْ فِي أَعْنَاقِكُمْ بِذُنُوبِكُمْ الَّتِي كَانَتْ مِنْ أَحْدَاثِكُمْ^(٢).

١١٧. الْمِحْنُ تَعَلِّمُكَ أَنَّ الثَّبَاتَ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى

قَدْ يُصَابُ الْعَبْدُ بِالغُرُورِ، أَوْ يَفْتَخِرُ بِمَا عَلَيْهِ مِنَ الْحُبُورِ، وَمَا حَبَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ السَّرُورِ، وَيَرَى نَفْسَهُ شَاكِرًا وَهُوَ مَغْرُورٌ؛ لَكِنَّ الْبَلَايَا تَكْشِفُ أَنَّ الثَّبَاتَ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى، مِنَ الَّذِي يَكُونُ شَاكِرًا حَقًّا؟ وَصَابِرًا وَاقِعًا؟ وَرَاضِيًا قَدْرًا؟ كُلُّ ذَلِكَ يَتَبَيَّنُ بِالْبَلَايَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مَبِينًا حِكْمَتَهُ فِي الْإِبْتَلَاءِ، وَأَنَّهُ مُثَبَّتُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الْبَلَاءِ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهَّرَ كُفْرًا بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (١١) [الأنفال].

(١) رواه البخاري (٣٣٧٥)، ومسلم (١٥١).

(٢) تفسير ابن جرير (٥٩٧/١).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (النعاس في القتال أمانة من الله عز وجل، وفي الصلاة من الشيطان)^(١).

وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن؛ فلا يغتر أحد بنفسه، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصْرَفُ حَيْثُ يَشَاءُ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ مُصْرِفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»^(٢).

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مَنْ كَانَ مُسْتَنَّاً فَلَيْسَتْ بِيَمَنِ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمِنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَبْرَهَا قُلُوبًا، وَأَعَمَّقَهَا عِلْمًا، وَأَقْلَهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلِإِقَامَةِ دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَسِيَرِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ)^(٣).

وَكَتَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ حِينَ سَارَ إِلَى الْحَرُورِيَّةِ يُخْبِرُهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ، يَنْتَظِرُ حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ؛ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ،

(١) أخرجه ابن جرير (٥٩/١١).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٩٧/٢)، وانظر: تفسير البغوي (٥١٨/٢).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

فَإِذَا لَقِيتُمْهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ». ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، أَهْزِمْهُمْ وَأَنْصُرْنَا عَلَيْهِمْ»^(١).

١١٨. خطورة الانحراف

إنَّ الانحراف الأخلاقي والديني سببٌ للانحراف في المحن والفتن، والمنحرفون منهم مخاطر؛ فهم يتلونون وقت الفتن، ويتغيرون في الإحن، فقد يكونون مع الأعداء، وهم يُظهرون الولاء، أو مع البلاء وهم يظهرون البراء، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)﴾ [الحج].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كَانَ الرَّجُلُ يَقْدَمُ الْمَدِينَةَ؛ فَإِنْ وَلَدَتْ امْرَأَتُهُ غُلَامًا، وَنَتَجَتْ خَيْلُهُ، قَالَ: هَذَا دِينٌ صَالِحٌ. وَإِنْ لَمْ تَلِدِ امْرَأَتُهُ، وَلَمْ تُنْتَجِ خَيْلُهُ، قَالَ: هَذَا دِينٌ سَوْءٌ)^(٢).

ولمزُ وغمزُ هؤلاء المنحرفون من المنافقين وغيرهم لا ينتهي، حتى يصل ذلك في كلِّ فعلٍ يعملهُ المؤمنون، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا

(١) رواه مسلم (١٧٤٢).

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٣).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) ﴿ [التوبة].

وقال عز وجل مبيناً خطر المنحرفين، الذين يكون في المجتمع ظاهراً مع المسلمين: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧)﴾ [التوبة].

قال ابن جرير رحمه الله: (صَرَفَ اللَّهُ عَنْ الْخَيْرِ وَالتَّوْفِيقِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ قُلُوبَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ، ذَلِكَ {بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} يَقُولُ: فَعَلَّ اللَّهُ بِهِمْ هَذَا الْخِذْلَانَ، وَصَرَفَ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْخَيْرَاتِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ عَنِ اللَّهِ مَوَاعِظَهُ، اسْتِكْبَارًا وَنِفَاقًا)^(١).

١١٩. تكشف خطر حب الرئاسة والمسؤولية

إنَّ بعضَ المفتونين بالدُّنيا الفانية ليحبِّونَ الرئاسةَ، ويسعون للمسؤوليات، وقد لا يظهرون ذلك لا سيما في السراء، ولكن في وقت الفتن تتجلى مطالبهم، وتنكشف نواياهم، وتظهر مخابئ ما في نفوسهم، من حب الرئاسة، والسعي وراء الكراسي الزائلة، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩)﴾ [الأعلى].

(١) تفسير الطبري (١٢/٩٤).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قال ابن مسعود رضي الله عنه لما كان يقرأ الآية: (ترك القراءة، وأقبل على أصحابه، فقال: آثرنا الدنيا على الآخرة. فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا؛ لأننا رأينا زيتها ونساءها، وطعامها، وشرابها، وزويت عنا الآخرة؛ فآثرنا هذا العاجل، وتركنا الآجل) (١).

وقال سبحانه مبيِّناً أن المسؤولين مسؤولون؛ بل وعموم الخلق؛ فكيف بهم: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (٢٤) [الصفات].

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِن أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكِلْتَا إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا» (٢).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أَحِبُّ لَكَ مَا أَحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأْمُرَنَّ عَلَيَّ اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ» (٣).

١٢٠. تبين مخاطر حب الظهور

إنَّ حَبَّ الظُّهُورِ يَقْصِمُ الظُّهُورَ، وَيَكْسِرُ القَوَامَ، وَيَهِينُ الطَّالِبِينَ لَهُ بَيْنَ الأَنَامِ؛ فَكَمْ مِمَّنْ يَحِبُّ الظُّهُورَ لَا يَدْرِي الخَطَرَ المَحْدَقَ بِهِ إِلا وَقْتُ البَلَاءِ، وَعِنْدَ الفِتْنِ وَالإِبْتِلَاءِ، قَالَ مُؤْمِنٌ

(١) أخرجه ابن جرير (٣٢٢/٢٤)، والطبراني (٩١٤٧).

(٢) رواه البخاري (٦٦٣٠)، ومسلم (١٦٥٢).

(٣) رواه مسلم (١٨٢٦).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

آل فرعون الذي كان يكتُم إيمانه، ولم يذكر الله اسمه لحبّه الخمول، وعدم بحثه عن الظهور: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر].

وهكذا ذكر الله تعالى مؤمن آل يس، ولم يذكر له اسمًا ليشتهر في العالمين؛ بل أهمه ليجازيه بإخلاصه يوم الدين: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠)﴾ [يس].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَتَكُونُ فِتْنٌ كَرِيحِ الصَّيْفِ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، مَنْ اسْتَشْرَفَ لَهَا اسْتَشْرَفَتْهُ»^(١).

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَتَكُونُ فِتْنٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ تَشْرَفَ لَهَا تَسْتَشْرِفُهُ، فَمَنْ وَجَدَ فِيهَا مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُدْ بِهِ»^(٢).

وَعَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ أَخَاهُ عُمَرَ انْطَلَقَ إِلَى سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي غَنَمٍ لَهُ خَارِجًا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا رَأَاهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّكِبِ. فَلَمَّا أَتَاهُ قَالَ: يَا أَبَتِ، أَرْضِيَتْ أَنْ تَكُونَ أَعْرَابِيًّا فِي غَنَمِكَ، وَالنَّاسُ يَتَنَازَعُونَ فِي الْمُلْكِ بِالْمَدِينَةِ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٨٣٨).

(٢) رواه البخاري (٧٠٨١)، ومسلم (٢٨٨٦).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

صَدَرَ عُمَرَ، وَقَالَ: اسْكُتْ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ»^(١).

وَعَنْ حذيفة رضي الله عنه في حديثه: (قال صلى الله عليه وسلم: «فتنٌ كأنها قطع الليل المظلم»، قال: فقلنا: أيُّ الناس فيها شرٌّ؟ قال: كلُّ خطيبٍ مضقع، وكلُّ راكبٍ موضع. فقلنا: أيُّ الناس خيرٌ؟ قال: كلُّ غنيٍّ خفيٍّ، قال: فقلت: ما أنا بالغنيِّ ولا بالخفيِّ، قال: فكن كابن اللبؤن، لا ظهرَ فيركب، ولا ضرعَ فيحلب»^(٢)).

١٢١. تُعَلِّمُ أَنَّ الْقُرْآنَ أَعْظَمُ وَأَوَّلُ أَسْبَابِ الثَّبَاتِ

عند المحن المتلاطمة، والفتن المتماوجة؛ فإن المؤمن يجد السكينة في آيات الله تعالى، تُثَبِّتُهُ آيَاتُ الْقُرْآنِ، وتشرح صدره، وتنور طريقه، لا سيما في البلايا والفتن، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢].

وقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥)﴾ [النساء].

وقال جل في علاه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران].

(١) رواه أحمد (١٤٤١) بهذا اللفظ، وهو في صحيح مسلم بنحوه (٢٩٦٥).

(٢) رواه الحاكم (٨٨٢٦)، وقال: (صحيح...).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَوَجْهُ الْمِحْنَةِ

ولمّا وقعت الفتنة على آدم عليه السلام بخروجه من الجنة، وهي فتنة عظيمة، ومصيبة كبيرة، بين الله تعالى له المخرج؛ بأنه باتباع المنزل؛ فقال سبحانه: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة].
وقال عز وجل: ﴿فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه]:
[١٢٣].

عن جابر رضي الله عنه في حديث حجة الوداع، وفيه قال صلى الله عليه وسلم: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابُ اللَّهِ»^(١).
وقال عبد الله بن عبد الرحمن بن أبيزى رحمه الله يحدث عن أبيه رضي الله عنه، قال: (لمّا وقع الناس في أمر عثمان رضي الله عنه، قلت لأبي بن كعب رضي الله عنه: أبا المُنذر، ما المخرج من هذا الأمر؟ قال: كتابُ الله، وسنةُ نبيّه، ما استبانَ لكم فاعمّلوا به، وما أشكلَ عليكم فكلّوه إلى عالمه)^(٢).

وعن سعد بن هشام بن عامرٍ رحمه الله قال: (كُنْتُ رَجُلًا اتَّبَعْتُ السُّلْطَانَ، فَأَخَذَنِي أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَحَبَسَنِي، وَقَيَّدَنِي. فَقَالَ لِي: وَاللَّهِ، لَا تَخْرُجَ حَتَّى تَسْتَظْهَرَ كِتَابَ اللَّهِ، فَاسْتَظْهَرْتُ كِتَابَ اللَّهِ؛ فَفَنَعَنِي اللَّهُ بِهِ، فَذَهَبَتْ عَنِّي الدُّنْيَا...)^(٣).

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

(٢) رواه الحاكم (٥٤٠٥).

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده (٤٨٦٢).

١٢٢. تظهر قيمة التمسك بالسنة

لا ريب أن الإنسان قد يرى بعقله حسناً ما ليس بالحسن؛ فإن العقول لا ضوابط لها ما لم تضبط بالنصّ المنزل، فقد ترى العقول استحالة شيء ثم تراه واقعاً، وقد ترى استدامة شيء ثم تراه فانيّاً، وهذا أظهر ما يكون في وقت البلاءات، وعند ظهور الفتن بين البريات؛ فإن أصحاب العقول يحارون، وتطيش عقولهم ويسفهنون.

أما أصحاب السنة فهم ثابتون، وتتجلى قيمة السنة لمن كان عنها في غفلة، وتظهر فوائد مدلولاتها لمن كان عنها في جهالة، قال الله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور].

وأمر الله تعالى باتباعها في أشد الظروف، وأصعب الأوقات؛ فقال تعالى بعد ذكره لما حصل في فتنة الأحزاب، وثبات النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)﴾ [الأحزاب].

عَنْ عَرَبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الْفَجْرِ، ثُمَّ وَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ. فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةٌ مُودَعٍ؟ فَأَوْصِنَا. فَقَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي، فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهَدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْمُحَدَّثَاتِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ»^(١).

١٢٣. تُجَلِّي سَلَامَةَ مَنْهَجِ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ

قد يدّعي كلُّ صاحبِ نحلةٍ أنه على الحقِّ، أو أنه على السنّة، ولكن علامة ذلك اتباعُ الآثار، وفهم الكتاب والسنّة بفهم صحابةٍ محمدٍ صلى الله عليه وسلم فهم الأبرار، وهم من شاهدوا التنزيل، وعرفوا التفسير والتأويل، وقد تجلّى في كلِّ محنةٍ صحة طريقتهم، وسلامة منهجهم، ونجاة من سار على دربهم، واتبع آثارهم، وكلٌّ من يزعم الإصلاح على خلاف طريقتهم فهو مفسدٌ سفيه، وإن زعم ما زعم من التوفيق والتفريق والتنبيه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾ [البقرة].

قال ابن جريرٍ رحمه الله: {آمِنُوا}: وإنما عنى المنافقون بقيلهم إذ دُعوا إلى التصديق بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من عند الله، والإقرار بالبعث، فقيل لهم: {آمِنُوا}

(١) رواه أحمد (١٧١٤٤)، والدارمي (٩٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٨٧٠)، وابن ماجه (٤٢)، وقال

الترمذي: (حسنٌ صحيحٌ).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

كما آمن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه من المؤمنين المصدقين به من أهل الإيمان واليقين، والتصديق بالله^(١).

وقال سبحانه مبيناً ضرر من يخالف سبيل المؤمنين من الصحابة رضي الله عنهم: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١١٥) [النساء].

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (سَنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَلَاةُ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ سُنَنًا، الْأَخْذَ بِهَا تَصَدِيقًا لِكِتَابِ اللَّهِ عِزِّ وَجَلِّ، وَاسْتِكْمَالًا لِطَاعَتِهِ، وَقُوَّةَ عَلَىٰ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، مَنْ عَمَلَ بِهَا مُهْتَدٍ، وَمَنْ اسْتَنْصَرَ بِهَا مَنْصُورٌ، وَمَنْ خَالَفَهَا اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَاةُ اللَّهِ مَا تَوَلَّىٰ)^(٢).

ولمَّا كان منهمجهم سليماً بقوا أمام جميع الفتن والمحن، وجعل الله تعالى لهم البقاء والديمومة، بخلاف الطوائف الأخرى فهي تظهر وتختفي، خطب معاوية رضي الله عنه على المنبر قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ»^(٣).

(١) تفسير الطبري (١/٣٠٣).

(٢) رواه الخلال في السنة (١٣٢٩)، وابن أبي حاتم (٥٩٦٩).

(٣) رواه البخاري (٧٢)، ومسلم (١٠٣٧).

١٢٤. المِحْنُ تُبَيِّنُ صِحَّةَ أَقْوَالِ عُلَمَاءِ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ

إنَّ علماءَ أهلِ السَّنةِ والجماعةِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ متمسكون بالقرآن والسنة، ومدلولات النصوص بفهم سلف الأمة، ولهذا كانوا على المنهج القويم، والطريق المستقيم، ويتبين للناس صحة أقوالهم، وسلامة منهجهم في الفتن والمحن أكثر فأكثر، قال الله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤)﴾ [الحج].

وقال الله سبحانه مبينا ضرورة سؤال أهل الذكر - وهم أهل القرآن والسنة الذين إذا رؤوا ذكروا الله تعالى، ويذكرون الناس بالله تعالى، وبكتابه، وبسنة نبيه، وبما كان عليه سلف الأمة - : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾ [النحل].

عن محمد بن كعبٍ رحمه الله قال: (لا يحلُّ لعالم أن يسكت على علمه، ولا لجاهل أن يسكت على جهله)^(١).

(١) تفسير الثعلبي، وعزاه السيوطي في الدر (٥/١٣٣)، لبعث بن حميد، عن جابر مرفوعاً، ولا يصح.

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اِقْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»^(١).

وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إِنَّ الْفِتْنَةَ لَتُعْرَضُ عَلَى الْقُلُوبِ ، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُقِطَ عَلَى قَلْبِهِ نُقِطٌ سُودٌ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُقِطَ عَلَى قَلْبِهِ نُقِطَةٌ بَيضاء ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَعْلَمَ أَصَابَتَهُ الْفِتْنَةُ أَمْ لَا ، فَلْيَنْظُرْ ، فَإِنْ رَأَى حَرَامًا مَا كَانَ يَرَاهُ حَلَالًا ، أَوْ يَرَى حَلَالًا مَا كَانَ يَرَاهُ حَرَامًا ؛ فَقَدْ أَصَابَتْهُ)^(٢).

وَعَنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (كَانَ الْحَسَنُ - يَعْنِي الْبَصْرِي - يَبْصُرُ مِنَ الْفِتْنَةِ إِذَا أَقْبَلَتْ كَمَا نَبْصُرُ نَحْنُ مِنْهَا إِذَا أَدْبَرَتْ)^(٣).

١٢٥. تُعَلِّمُ أَنَّ قِلَّةَ النَّاجِينَ لَا تَعْنِي بَطْلَانَ الْحَقِّ الْمُبِينِ

إِنَّ الْحَقَّ لَا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ ، وَقِلَّةُ الْمُتَمَسِّكِينَ بِالْحَقِّ لَا يَعْنِي بَطْلَانَ الْحَقِّ فِي الْحَالِ وَلَا فِي الْمَالِ ، وَلَا قِلَّةُ النَّاجِينَ فِي الْفِتْنَةِ تَعْنِي بَطْلَانَ الْحَقِّ ؛ فَإِنَّ مِيزَانَ الْحَقِّ لَيْسَتْ الْعُقُولُ الَّتِي قَدْ تَرَى اسْتِحَالَةَ أَمْرِ الْيَوْمِ وَأَنْ مَنْ قَالَ بِهِ يَكُونُ مَجْنُونًا ، ثُمَّ تَرَى بَعْدُ أَنْ مَنْ لَمْ يَقُلْ بِهَذَا الْأَمْرِ

(١) رواه الترمذي (٣٩٩١)، وغيره، وقال: (حديث حسن).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٤٠١٢٦)، وأحمد (٢٣٣٢٨).

(٣) المجالسة وجواهر العلم لابن قتيبة (٢٤٠٧).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

يكون مجنوناً؛ فالعقول ليست موازين في حقائق الأشياء^(١)؛ فضلاً عن حقائق الشريعة؛ فضلاً عن الحواس والمشاعر المتأثرة بمجريات الأحوال؛ فضلاً عن القلة أو الكثرة، سواءً من حيث الميل أو من حيث النجاة أو عدمه، قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، ﴿فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

وقال سبحانه مبيناً أن الذين نجوا من فتنه الغرقِ قلة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود].

وقال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا

(١) تنبيه: لو أن رجلاً قبل (١٠٠) سنة قال: يمكن أن نتحدث مع إنسانٍ في الصين بحديدة نضعه على طرف الأذن؛ لقال باستحالته عقلاء ذلك الزمان، ولنسبوه إلى الجنون في الحال، ولو أن رجلاً اليوم قال لا يمكن أن نتحدث مع إنسان في الصين بحديدة (الهاتف) نضعه على طرف الأذن؛ لقال بجنونه عقلاء هذا الزمان؛ ولنسبوه إلى الجنون في الحال؛ فهذا يدلُّك: أن العقول ليست موازين في الاستحالة مطلقاً، وإنما هي تابعة للمنقولات الشرعية، أو المحسوسات المرعية.

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ [سبأ].

قال ابن جرير رحمه الله: (وقال أهل الاستكبار على الله من كل قرية أرسلنا فيها نذيرًا؛ لأنبيائها ورسلها: نحن أكثر منكم أموالاً وأولاداً، وما نحن في الآخرة بمُعَذِّبِينَ؛ لأن الله لو لم يكن راضيًا ما نحن عليه من المِلة والعمل، لم يُحوّلنا الأموال والأولاد، ولم يبسط لنا في الرزق، وإنما أعطانا ما أعطانا ذلك؛ لرضاه أعمالنا، وآثرنا بما آثرنا على غيرنا؛ لفضلنا منه، وزُلفَةً لنا عنده.

يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُمْ: {إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ} مِنَ الْمَعَاشِ وَالرِّيَاشِ فِي الدُّنْيَا {لِمَنْ يَشَاءُ} مِنْ خَلْقِهِ، {وَيَقْدِرُ} فَيُضِيقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، لَا لِفَضْلٍ فِيمَنْ يَبْسُطُ ذَلِكَ لَهُ وَلَا خَيْرٍ فِيهِ، وَلَا زُلفَةٍ لَهُ اسْتَحَقَّ بِهَا مِنْهُ، وَلَا لِبُغْضٍ مِنْهُ لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَلَا مَقْتٍ، وَلَكِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِحْنًا لِعِبَادِهِ وَابْتِلَاءً، وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ذَلِكَ اخْتِبَارًا لِعِبَادِهِ، وَلَكِنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْهُ مَحَبَّةٌ لِمَنْ يَبْسُطُ لَهُ، وَمَقْتٌ مِنْهُ لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ^(١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا»^(٢).

(١) تفسير الطبري (١٩/٢٩٤).

(٢) رواه البخاري (١٨٨٧)، ومسلم (١٤٧).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا»^(١).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَيَّ أَحَدٍ يَقُولُ: اللَّهُ اللَّهُ»^(٢).

١٢٦. تُبَيِّنُ فَضْلَ الْغُرَبَاءِ الْمُتَمَسِّكِينَ بِالسُّنَّةِ الْغُرَاءِ فِي كُلِّ أَنْحَاءِ

إِنَّ الْمُتَمَسِّكِينَ بِالسُّنَّةِ لَهُمْ فَضْلٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا رَيْبَ، وَيَتَبَيَّنُ فَضْلُهُمْ فِي الْمِحْنِ، وَمَا يُقَدِّرُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ مِنَ الْفِتَنِ، حَيْثُ إِنَّ تَمَسُّكَهُمْ بِالسُّنَّةِ تَجْعَلُهُمْ بِالْفَضَائِلِ الدِّينِيَّةِ ظَاهِرِينَ، وَفِي الْمِحْنِ ثَابِتِينَ، وَتَكْشِفُهُمُ لِلْعُقُلَاءِ، وَتَجْلِيهِمُ عَنِ السَّفَهَاءِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥)﴾ [الأعراف].

وَقَالَ سَبْحَانَهُ فِي خَبَرِ هَارُونَ الْمُسْتَمْسِكِ بِالْوَحْيِ الْمَنْزَلِ: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ مَبِينًا فَضْلَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِالْوَحْيِ: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)﴾ [الأعراف].

(١) رواه مسلم (١٤٦).

(٢) رواه مسلم (١٤٨).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَدَأَ الْإِسْلَامَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»^(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»، قِيلَ: مَنْ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ»^(٢).

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «الَّذِينَ يُضْلِحُونَ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ»^(٣).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيَّ اللَّهُ تَعَالَى الْغُرَبَاءُ. قِيلَ: وَأَيُّ الْغُرَبَاءِ؟ قَالَ: الَّذِينَ يَفِرُّونَ بِدِينِهِمْ، يَجْتَمِعُونَ إِلَيَّ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ)^(٤).

(١) رواه مسلم (١٤٥).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٣٧٠٨٥، ٣٧٠٨٧)، وفي مسنده (٢٦٠)، وأحمد (٣٧٨٤)، ورواه الترمذي (٢٦٢٩)، وابن ماجه (٣٩٨٨)، وقال الترمذي: (حسنٌ صحيحٌ).

(٣) رواه الدولابي في الكنى (١٠٩٦)، والطبراني في الكبير (٥٨٦٧)، ورواه في الأوسط (٨٩٧٧) من حديث جابر رضي الله عنه، ورواه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (١٧٢) من مسند بن سَنَّة رضي الله عنه، ورواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٧٤) من مسند أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه الداني في السنن الواردة في الفتن (٢٩١) من مسند بن عمرو رضي الله عنهما، قال الحافظ عنه: (وإسناده لا بأس به)، وقال الهيثمي في المجمع (١٢١٩٣) عن سند حديث سهل رضي الله عنه: (رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الثَّلَاثَةِ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ، غَيْرَ بَكْرِ بْنِ سُلَيْمٍ، وَهُوَ ثِقَةٌ).

(٤) تفسير يحيى بن سلام (٤١٠ / ١) معلقًا.

١٢٧. الْمَحَنُّ تُظْهِرُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ أَبَدًا

إنَّ أمورًا تظْهِرُ في الفتنِ، وأمورًا تقع في وقتِ المحنِّ، ولا بد فيها للشرع المبرور من حُكْمٍ مزبور، ومن دليلٍ مسطور، يدركه العلماء المتبعون، ويفتون به في وقتِ المحنِّ، ولو كانت المسألة اجتهادية فإن الله تعالى لا يُجْمِعُ الأمةَ على ضلالةٍ أبدًا، وهذا يظهر ويتجلى في المحنِّ، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١)﴾ [المؤمنون].

قال الحسن البصري وقتادة رحمه الله: (يَعْنِي الْقُرْآنَ، أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ فِيهِ مَا يَأْتُونَ، وَمَا يَتَّقُونَ، وَمَا يُحَرِّمُونَ، وَمَا يُحِلُّونَ) (١).

والقائمون بالحق لا بد وأن يكونوا موجودين في كل محنة، وفي كل حينٍ ووقعة، ومن نظر إلى الأقوال المتنازعة في وقت الفتنة نظرة متأمل ومتدبر تبين له القول الحق، وتيقن من عدم إمكان اجتماع الأمة على الضلالة أبدًا؛ فقد عصمهم الله تعالى، قال سبحانه: ﴿فَهَدَىٰ

(١) قال ابنُ قدامة رحمه الله: (فإنَّ الله تعالى برحمته وطوله، وقوته وحوله، ضمَّن بقاء طائفةٍ من هذه الأمة على الحق لا يضرُّهم من خذلهم حتى يأتي أمرُ الله وهم على ذلك، وجعل السبب في بقائهم بقاء علمائهم، واقتداءهم بأئمتهم وفقهائهم، وجعل هذه الأمة مع علمائها، كالأمم الخالية مع أنبيائها، وأظهر في كل طبقةٍ من فقهائها أئمةً يُتَدَيَّ بها، ويُنْتَهَى إلى رأيها، وجعل في سلفِ هذه الأمة أئمةً من الأعلام، مهَّد بهم قواعد الإسلام، وأوضح بهم مشكلات الأحكام، اتَّفَقَ حُجَّةٌ قاطعة، واختلافهم رحمةٌ واسعة، تحبِّي القلوب بأخبارهم، وتحصلُ السعادة باقتفاء آثارهم، ثم اختصَّ منهم نفرًا أعلى أقدارهم ومناصبهم، وأبقى ذكرهم ومذاهبهم، فعلى أقوالهم مدارُ الأحكام، وبمذاهبهم يُفْتَى فقهاء الإسلام). المغني (٥/١).

اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾
[البقرة: ٢١٣].

قال ابن جرير رحمه الله: (فكانت هداية الله جل ثناؤه الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به؛ لما اختلف هؤلاء الأحزاب من بني إسرائيل الذين أوتوا الكتاب فيه من الحق بإذنه، أن وفقهم لإصابة ما كان عليه من الحق من كان قبل المختلفين الذين وصف الله صفتهم في هذه الآية إذ كانوا أمة واحدة، وذلك هو دين إبراهيم الحنيف المسلم خليل الرحمن، فصاروا بذلك أمة واحدة وسطاً، كما وصفهم به ربهم، ليكونوا شهداء على الناس)^(١).

وَعَنْ أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَرْبَعًا، فَأَعْطَانِي ثَلَاثًا، وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يَجْمَعَ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُظْهِرَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُهْلِكَهُمْ بِالسِّنِينَ، كَمَا أَهْلَكَ الْأُمَّمَ قَبْلَهُمْ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يَلْبَسَهُمْ شَيْعًا، وَيُذِيقَ بَعْضُهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، فَمَنْعَنِيهَا»^(٢).

(١) تفسير الطبري (٣/٦٣٢).

(٢) رواه أحمد (٢٧٢٢٤)، وهو حديث (صحيح لغيره)، وله شواهد.

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي، أَوْ قَالَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيُدُّ اللَّهُ عَلَى الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَدَّ شَدَّ إِلَى النَّارِ»^(١).

فالمطائفة المهتدية باقية على الحق، مُسْتَمْسِكَةٌ بِهِ، حَتَّى الْقِيَامَةِ، عَنْ يَسِيرِ بْنِ عَمْرٍو رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (شِيعْنَا أَبَا مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ خَرَجَ، فَنَزَلَ فِي طَرِيقِ الْقَادِسِيَّةِ فَدَخَلَ بُسْتَانًا، فَقَضَى الْحَاجَةَ ثُمَّ تَوَضَّأَ، وَمَسَحَ عَلَى جَوْرِيئِهِ، ثُمَّ خَرَجَ، وَإِنَّ لِحِيَّتَهُ لَيَقْطُرُ مِنْهَا الْمَاءُ، فَقُلْنَا لَهُ: اعْهَدْ إِلَيْنَا؛ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ وَقَعُوا فِي الْفِتَنِ، وَلَا نَدْرِي هَلْ نَلْقَاكَ أَمْ لَا؟ قَالَ: اتَّقُوا اللَّهَ، وَاصْبِرُوا، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرْ، أَوْ يُسْتَرَاخَ مِنْ فَاجِرٍ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَى ضَلَالَةٍ)^(٢).

وعن عبد العزيز بن رفيع رحمه الله قال: (لَمَّا سَارَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى صِيفِينَ، اسْتَخْلَفَ أَبَا مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى النَّاسِ؛ فَخَطَبَهُمْ فِي يَوْمٍ جُمُعَةٍ؛ فَرَأَى فِيهِمْ قَلَّةً،

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٥)، وقال: (حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه)، ورواه الحاكم (٤٠٠-٤٠١)، وقال: (له أصلٌ بأحد هذه الأسانيد). تنبيه: قال الترمذي رحمه الله في تفسير الجماعة العلمية: (وَتَفْسِيرُ الْجَمَاعَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ هُمْ أَهْلُ الْفِقْهِ وَالْعِلْمِ وَالْحَدِيثِ، وَسَمِعْتُ الْجَارُودَ بْنَ مُعَاذٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الْحَسَنِ، يَقُولُ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمُبَارَكِ: مَنْ الْجَمَاعَةُ؟ فَقَالَ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، قِيلَ لَهُ: قَدْ مَاتَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، قَالَ: فُلَانٌ وَفُلَانٌ، قِيلَ لَهُ: قَدْ مَاتَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: أَبُو حَمَزَةَ السُّكْرِيُّ جَمَاعَةٌ؛ وَأَبُو حَمَزَةَ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ مَيْمُونٍ وَكَانَ شَيْخًا صَالِحًا، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا فِي حَيَاتِهِ عِنْدَنَا).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٩٩٧٥)، وفي نسخة خطأ (ابن مسعود) رضي الله عنه. قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير (٢٩٦/٣): (إسناد صحيح).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، اخْرُجُوا فَمَنْ خَرَجَ فَهُوَ آمِنٌ، إِنَّا وَاللَّهِ نَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ الْكَارِهَ لِهَذَا الْوَجْهِ، وَالْمُتَشَاكِلَ عَنْهُ، فَاخْرُجُوا، فَمَنْ خَرَجَ فَهُوَ آمِنٌ، إِنَّا وَاللَّهِ مَا نَعُدُّ عَافِيَةً أَنْ يَلْتَقِيَ هَذَانِ الْغَارَانِ يَتَّقِي أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، وَلَكِنَّا نَعُدُّهَا عَافِيَةً أَنْ يُصْلِحَ اللَّهُ أُمَّةً مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَجْمَعَ أُلُفَّتَهَا...، إِنَّا كُنَّا نَتَحَدَّثُ بِأَنَّ الْآخِرَ فَالْآخِرَ شَرٌّ، ثُمَّ خَرَجَ.

فَلَمَّا كَانَ بِالسَّيْلِحِينَ، أَوْ بِالْقَادِسِيَّةِ، خَرَجَ عَلَيْهِمْ، وَظَفْرَاهُ يَقْطُرَانِ، يَرُونَ أَنَّهُ قَدْ تَهَيَّأَ لِلْإِحْرَامِ، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرَزِ، وَأَخَذَ بِمُؤَخَّرِ وَاسِطَةِ الرَّحْلِ، قَامَ إِلَيْهِ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ؛ فَقَالُوا لَهُ: لَوْ عَاهَدْتَ إِلَيْنَا يَا أَبَا مَسْعُودٍ؟ قَالَ: عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّةً مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ضَلَالَةٍ. قَالَ: فَأَعَادُوا عَلَيْهِ!؟ فَقَالَ: عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَسْتَرِيحُ بُرٌّ، أَوْ يُسْتَرَاخُ مِنْ فَاجِرٍ^(١).

قال الإمام قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني التيمي (٥٣٥هـ): (وهم لنا جميعاً أئمة فإذا اجتمعوا على أمر قلنا به، وإذا اختلفوا في أمر لم يفرض علينا القول به والعمل)^(٢).

١٢٨. تجلية أن الأمة لا تهلك أبداً مهما كانت الفتن وعظمت

(١) رواه ابن أبي شيبة (٤٠٤٦٥)، وروى المظلل منه ابن أبي الدنيا في الصبر والثواب عليه (١٠)، وابن أبي عاصم

في السنة (٨٥).

(٢) الحجة في بيان المحجة له (٥٥٧/٢).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

إنَّ اللهَ تبارك وتعالى قد ضَمِنَ حفظَ دينه، وحفظَ كتابه، وذلك يشمل حفظَ حملته، ونقته، والمستنبتين على الصواب منه، ولهذا كانت الطائفة المنصورة على الحق باقية أبداً، ولا تهلك مهما كانت الفتنُ، ومهما كانت المحنُ، وذلك جليٌّ في القتن التي وقعت، وبقيت الأمة صامدةً، وإن مَرِضت لكنها لا تموتُ أبداً، وإن أصيبت لكنها لا تفنى أبداً، ولو اجتمع أهل الأرض كلهم عليها، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١)﴾ [الأحزاب].

وقال سبحانه مبيناً قول المؤمنين الصادقين، ويقينهم بالنجاة لهذه الأمة إلى يوم الدين: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)﴾ [الأحزاب].

وقال عز وجل: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١)﴾ [ص].

عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَدَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ كَذَلِكَ»^(١).

(١) رواه مسلم (١٩٢٠).

وَعَنِ الْمُغِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَنْ يَزَالَ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ»^(١).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»^(٢).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، ظَاهِرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣).

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شُمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ مَسْلَمَةَ بْنِ مُخَلِّدٍ، وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ، هُمْ شَرُّ مَنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَدْعُونَ اللَّهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَّهُ عَلَيْهِمْ»، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ، أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ مَسْلَمَةُ: يَا عُقْبَةُ، أَسْمَعُ مَا يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ؟! فَقَالَ عُقْبَةُ: هُوَ أَعْلَمُ، وَأَمَّا أَنَا فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»؛ فَقَالَ عَبْدُ

(١) رواه البخاري (٧٤٥٥)، ومسلم (١٩٢١).

(٢) رواه مسلم (١٩٢٢).

(٣) رواه مسلم (١٩٢٣).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

الله: أَجَلٌ، «ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا كَرِيحِ الْمِسْكِ مَسَّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ، فَلَا تَتْرُكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا قَبَضَتْهُ، ثُمَّ يَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ عَلَيْهِمْ تَقْوَمُ السَّاعَةُ»^(١).

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزَالُ أَهْلُ الْعَرَبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقْوَمَ السَّاعَةُ»^(٢).

وَعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيَتْ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةِ بَعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بِيضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أُعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ بَعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بِيضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(٣).

وَعَنْ سَعْدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ

(١) رواه مسلم (١٩٢٤).

(٢) رواه مسلم (١٩٢٥)، تنبيه: معنى: (العرب)، قيل: أهل المغرب، وهم مصر وما بعدها. وقيل: هم العرب؛ لأنهم هم أهل العرب، وعاءٌ يُسْتَقَى به على الجمال ونحوها، وهو خاصٌّ بالعرب، وقيل: هم المجاهدون أهل العرب يعني أهل السلاح.

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمَحْنِ

إِلَيْنَا؛ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُجْعَلَ بِأَسْهُمِ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَنِيهَا»^(١).

١٢٩. تَجَلَّى أَهْلَ عَفْوِ اللَّهِ تَعَالَى

إنَّ المَحْنَ تَكْشِفُ أَهْلَ عَفْوِ اللَّهِ تَعَالَى، الَّذِينَ نَجَاهُمْ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْفِتْنَةِ، وَنَجَاهُمْ مِنَ الْمِشَارَكَةِ فِي الْفِتَنِ، وَهَذِهِ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ تَتَجَلَّى بِوُقُوعِ الْمَحْنِ، وَيُظْهِرُ أَهْلَ مَغْفِرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، الَّذِينَ لَا حَوْلَ لَهُمْ وَلَا قُوَّةَ، وَتَقَعُ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ وَالْفِتَنُ؛ فَيُهْجَرُونَ، أَوْ يُقْتَلُونَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا (٩٩) * وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠) ﴿ [النساء].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٠) ﴿ [النحل].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٢) ﴿ [النور].

(١) رواه مسلم (٢٨٩٠).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قالت عائشة رضي الله عنها المبرأة من فوق سبع سماوات: (فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ} عَشْرَ آيَاتٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ بَرَاءَتِي. قَالَتْ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه -وَمَا كَانَ يُنْفِقُ عَلَيَّ مِنْ مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ-: وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَيْهِ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى} إِلَى قَوْلِهِ: {أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ}؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي. فَرَجَعَ إِلَيَّ مِنْ مِسْطَحِ النَّفَقَةِ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيَّ، وَقَالَ: لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا) (١).

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَعُودُ عَائِدٌ بِالْبَيْتِ، فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ، فَإِذَا كَانُوا بِيَدَاءِ مِنَ الْأَرْضِ حُسِفَ بِهِمْ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ كَارِهًا؟ قَالَ: «يُخْسَفُ بِهِ مَعَهُمْ، وَلَكِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيَّ نَيْتَهُ» (٢).

١٣٠. تَبَيَّنُ أَهْلُ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّذِينَ سَلَّمَهُمْ مِنَ الْمَشَارَكَةِ فِيهَا

في الفتن يتبين الذين رحمهم الله تعالى فأبعدهم من المشاركة فيها، ورحمهم بالبعد عنها، وفي المحن يتجلَّى أهلُ رحمة الله تعالى الذين كانوا مظلومين فيها، قال الله تعالى في ضمن

(١) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) رواه مسلم (٢٨٨٢).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

آيات المِحْنِ عنهم: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ١-٢].

قال ابن جرير رحمه الله: (مفاتيح الخير، ومغالقه، كلها بيده، فما يفتح الله للناس من خير، فلا مُغْلَقَ له، ولا مُمْسِكَ عنهم؛ لأن ذلك أمره، ولا يستطيع ردّ أمره أحد، وكذلك ما يُغْلَقُ من خير عنهم، فلا يبسطه عليهم، ولا يفتحهم لهم، فلا فاتح له سواه؛ لأن الأمور كلها إليه وله) (١).

وقال جلّ في علاه مبيناً حسن مآل لو طِ عليه السلام الذي صبر وتطهّر عن فسق قومه: ﴿وَلَوْ طَأَّ آتِيَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) [الأنبياء].

وقال عز وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الإنسان].
وقال جلّ وعزّ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٨) [الشورى].

وقال عز وجلّ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٥٧) [النور].

(١) تفسير الطبري (١٩/٣٢٨).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُدْخِلُ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ، وَيُدْخِلُ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ: انظُرُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مِنْهَا حُمَمًا قَدْ امْتَحَشُوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ - أَوْ الْحَيَا - فَيَبْتُونَ فِيهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ إِلَى جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَوْهَا كَيْفَ تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً؟»^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»^(٢).

١٣١. الْمِحْنُ تُبَيِّنُ أَهْلَ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى

إِنَّ حُصُولَ النِّعْمَةِ بَعْدَ أَلَمٍ وَمَشَقَّةٍ وَمُصِيبَةٍ أَعْظَمُ قَدْرًا عِنْدَ الْإِنْسَانِ؛ فَيَعْرِفُ الْإِنْسَانُ قَدْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ، وَيَقْدِرُهَا حَقَّ قَدْرِهَا بَعْدَ الْبَلَاءِ؛ فَمَنْ حَكِمَ الْمَصَائِبَ التَّذْكَيرُ بِنِعْمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْإِنْسَانِ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقَ مَبْصِرًا يَنْسَى نِعْمَةَ الْبَصَرِ، وَلَا يَقْدِرُهَا حَقَّ قَدْرِهَا، فَإِنْ ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِعَمَى مُؤَقَّتٍ ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ بَصَرُهُ أَحْسَنَ بِكُلِّ مَشَاعِرِهِ بِقِيَمَةِ هَذِهِ النِّعْمَةِ، فَدَوَامَ النِّعْمِ قَدْ يُنْسِي الْإِنْسَانُ النِّعْمَةَ؛ فَلَا يَشْكُرُهَا، فَيَقْبِضُهَا اللَّهُ ثُمَّ يَعِيدُهَا إِلَيْهِ تَذْكَيرًا لَهَا بِهَا لِيَشْكُرَهَا؛ فَإِنَّ النِّعْمَةَ الْحَقِيقِيَّةَ هِيَ نِعْمُ الطَّاعَةِ الدِّينِيَّةِ،

(١) رواه مسلم (١٨٤).

(٢) رواه مسلم (٢٨١٦).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وتحصيل الأجر الأخرى، والثبات على الدين في المحن المتعددة، فمن كان من أهل النعمة تجلّى ثباته، وسمع وطاعته لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٧) [المائدة].

قال ابن جرير رحمه الله: (يعنى جلّ ثناؤه بقوله: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون، بالعقود التي عقدتموها لله على أنفسكم، واذكروا نعمته عليكم في ذلكم، بأن هداكم من العقود لما فيه الرضا، ووفّقكم لما فيه نجاتكم من الضلالة والردي، في نعم غيرها جمّة^(١)).

وقال جلّ في علاه: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران].

وقال سبحانه مبيناً غرق الناس في النعم، وعدم إمكانية إحصائها، وإن عدّوها: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨) [النحل].

عن الحسن رحمه الله قال: (إن داود النبي عليه السلام قال: إلهي، لو كان لي بكل شعرة في جسدي لسانان، يُسبّحانك الليل والنهار، والدهر كلّه، ما أدت شكر نعمة واحدة أنعمتها عليّ)^(٢).

(١) تفسير الطبري (٢١٩/٨).

(٢) أخرجه يحيى بن سلام في تفسيره (٥٦/١).

١٣٢. تُبَيِّنُ مَنْ يَقْدَمُ حَبَّ اللَّهِ عَلَىٰ مُحَابَّ نَفْسِهِ

إِنَّ الْمِحْنَ تَكْشِفُ مَنْ هُوَ مُحِبُّ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَيَتَحَمَّلُ جَمِيعَ مَا يَقْدَرُهُ حَبِيبَهُ وَرَبَّهُ، الَّذِي يَحِبُّهُ صَدَقًا، وَيَتَفَانِي فِي طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَعِبُودِيَّتِهِ، وَتَجَلُّ مَنْ يَكُونُ دَعِيًّا لِلْحَبِّ خَلِيًّا وَقَتَ الْفِتْنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي مَا تَوَانِي، وَفَعَلَ مَا أَمَرَهُ رَبِّي وَوَفَّى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة].

عَنْ قَتَادَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (إِنَّ الْكَافِرَ يُعْرِضُ عَنْ مَعْبُودِهِ فِي وَقْتِ الْبَلَاءِ، وَيُقْبَلُ عَلَى اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ؛ لِقَوْلِهِ: {فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفَلَكَ دَعَا اللَّهُ مَخْلَصِينَ لَهُ الدِّينَ} [العنكبوت: ٦٥]...، وَالْمُؤْمِنُ لَا يُعْرِضُ عَنِ اللَّهِ فِي الضَّرَاءِ وَالسَّرَاءِ، وَالرَّخَاءِ وَالْبَلَاءِ، وَلَا يَخْتَارُ عَلَيْهِ سِوَاهُ) (١).
وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾ [التوبة].

(١) تفسير الثعلبي (٢/ ٣٤)، تفسير البغوي (١/ ١٧٨).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجَعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ»^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ»^(٢).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(٣).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هِشَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الآنَ يَا عُمَرُ»^(٤).

١٣٣. تجعلُ أهلَ الحقِّ يزدادون حبًّا في الله

(١) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) رواه البخاري (١٤).

(٣) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

(٤) رواه البخاري (٦٦٤٠).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمُحَنِّ

إِنَّ الْمُحَنِّ تَكْشِفُ مَعَادِنَ الرِّجَالِ، وَتُظْهِرُ إِيمَانَ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَيَتَجَلَّى أَهْلُ حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَهْلُ مَحَبَةِ اللَّهِ تَعَالَى، الَّذِينَ تَأَلَّفُوا وَتَحَابَبُوا فِي اللَّهِ تَعَالَى؛ فَتَجْعَلُهُمُ الْمُحَنِّ يَزْدَادُونَ أَلْفَةً وَمَحَبَةً فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (قَرَابَةُ الرَّحِمِ تُقَطِّعُ، وَمِنَّةُ الْمُنْعَمِ تُكْفِرُ، وَلَمْ تَرَ مِثْلَ تَقَارُبِ الْقُلُوبِ، يَقُولُ اللَّهُ: {لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ} . وذلك موجودٌ في الشعر، قال الشاعر...:

وَلَقَدْ صَحِبْتُ النَّاسَ ثُمَّ سَبَرْتُهُمْ ... وَبَلَوْتُ مَا وَصَلُوا مِنَ الْأَسْبَابِ

فَإِذَا الْقَرَابَةُ لَا تَقْرَبُ قَاطِعًا ... وَإِذَا الْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْأَنْسَابِ^(١).

وَيَتَجَلَّى لَهُمْ أَنَّ الْغَلْبَةَ تَكُونُ بِوَلَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَوَلَايَةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَوَلَايَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَحَبَّتِهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾ [المائدة].

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَهَذَا إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ذَكَرَهُ عِبَادَهُ جَمِيعًا - الَّذِينَ تَبَرَّءُوا مِنْ حَلْفِ الْيَهُودِ وَخَلَعُوهُمْ، رِضًا بِوَلَايَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَالَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِحَلْفِهِمْ وَخَافُوا دَوَائِرَ السُّوءِ تَدَوَّرَ عَلَيْهِمْ فَسَارَعُوا إِلَى مُوَالَاتِهِمْ، بِأَنَّ مَنْ وَثِقَ بِاللَّهِ، وَتَوَلَّى اللَّهَ

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٩٠٣٤).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

ورسوله والمؤمنين، ومن كان على مثل حاله من أولياء الله من المؤمنين، لهم الغلبة والدوائر والدولة على من عاداهم وحادهم؛ لأنهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون دون حزب الشيطان^(١).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»^(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله؛ فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان - وإن كثرت صلواته، وصومته - حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً)^(٤).

١٣٤. تُظْهِرُ أَخَوَةَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) تفسير الطبري (٥٣٢ / ٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٨١)، والطبراني (٧٧٣٧)، وأورده الألباني في الصحيحة (٣٨٠).

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٦).

(٤) تفسير ابن جرير (١)، وتفسير ابن رجب (١ / ٥٠٤).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

إِنَّ الْمِحْنَ تَجَلِّي أَخُوَّةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي اللَّهِ بِأَفْعَالِهِمْ، وَتَعَاوَنِهِمْ، وَتَنَاصُحِهِمْ، وَتَكشِفُ أُنَانِيَّةَ الْفَسَاقِ وَالْمُنَافِقِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)﴾ [الحجرات].

وَقَالَ سَبْحَانَهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُيُوتًا مَرْضُوضًا (٤)﴾ [الصف].

وَفِي الشَّدَائِدِ وَالْحُرُوبِ يَظْهَرُ الْأَثَرُ الْحَقِيقِيُّ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»^(١).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ»^(٢).

(١) رواه البخاري (٦٧٣٣)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) رواه البخاري (٦٠٨١)، ومسلم (٢٥٥٩).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ؛ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا، وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ»^(١).

١٣٥. تجلية أهل البدع، وأنهم مفاتيح الفتن ووقودها

إنَّ أهلَ البدعِ قد يظهرون الوداعة في وقت السراء، وقد يظهرون الطاعة بإبداع وقت الرِّخاء، ولكنهم يتجلون على حقائقهم في وقت الضراء، ويظهرون أنهم هم مفاتيح الفتن والبلاء، وذلك لأن فيهم شعبة من شعب النفاق، ولهذا خالفوا الجماعة وأوجدوا الشقاق، وتجلَّى الفتنُ أهلَ البدع، وتُظهرُ المِحْنُ أنهم هم من يسعون وراء كل فتنة، ويوقدون كل ما اشتعل من بلية، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر].

قال قتادة رحمه الله: (هَذَا نَعْتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، نَعْتَهُمُ اللَّهُ أَنْ تَقْشَعِرَّ جُلُودُهُمْ، وَتَبْكِي أَعْيُنُهُمْ، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ، وَلَمْ يَنْعَتَهُمْ بِذَهَابِ عُقُولِهِمْ، وَالْغَشْيَانِ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا هَذَا فِي أَهْلِ الْبِدَعِ، وَهَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ)^(٢).

وقال الله سبحانه: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

(١) رواه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٥٦٠).

(٢) تفسير عبد الرزاق (٢٦٢٦).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قال عبّاد بن عبّاد الخواص رحمه الله: (إِنَّ انْتِحَالَ السُّنَّةِ دُونَ الْعَمَلِ بِهَا كَذِبٌ بِالْقَوْلِ مَعَ إِضَاعَةِ الْعِلْمِ، وَلَا تَعْيِبُوا بِالْبِدْعِ تَزِينًا بَعِيْبَهَا، فَإِنَّ فَسَادَ أَهْلِ الْبِدْعِ، لَيْسَ بِزَائِدٍ فِي صَلَاحِكُمْ، وَلَا تَعْيِبُوهَا بَغِيًّا عَلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ الْبَغِيَّ مِنْ فَسَادِ أَنْفُسِكُمْ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلطَّبِيبِ أَنْ يُدَاوِيَ الْمَرَضَى بِمَا يُبْرِئُهُمْ وَيُمْرِضُهُ، فَإِنَّهُ إِذَا مَرِضَ، اشْتَغَلَ بِمَرَضِهِ عَنِ مُدَاوَاتِهِمْ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَلْتَمَسَ لِنَفْسِهِ الصِّحَّةَ، لِيَقْوَى بِهِ عَلَى عِلَاجِ الْمَرَضَى) (١).

وَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

عَنِ ابْنِ سِيرِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (لَمْ يَكُونُوا يَسْأَلُونَ عَنِ الْإِسْنَادِ، فَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ، قَالُوا: سَمُّوا لَنَا رِجَالَكُمْ؛ فَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ فَيُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ، وَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ الْبِدْعِ فَلَا يُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ) (٢).

١٣٦. إظهارُ أنَّ أهل الملل والنحل يوالي بعضهم بعضاً ضد الحق

إنَّ المرأً ليعجبُ كيف يمكن لضدّين أن يلتقيا؟! ولكن هذا العجب يزول إذا رأينا في الواقع العملي كيف يجتمع أهل الكفر المتناقضين ضدّ الإسلام، وكيف تجتمع العقائد المُكفِّرة بعضها بعضاً ضد الحق، وكيف يجتمع أهل البدع المتناقضين ضد أهل السنة

(١) رواه الدارمي (٦٧٥).

(٢) مقدمة صحيح مسلم (١/ ١١). تنبيه: قد رأينا في الواقع من الذين سعوا في قتل عثمان رضي الله عنه، وكانوا مفاتيح شرّ وبلاء على الأمة في النزاعات، ورأينا من الذين سعوا في قتل علي رضي الله عنه، وعلمنا طائفة الحشاشين ماذا كانوا يدسّون ويخططون في قتل أئمة السنة من الخلفاء والعلماء، ورأينا ماذا فعل ابن العلقمي مع التتار حين مكّنهم من الدخول إلى بغداد وأسر الخليفة العباسي وقتله رحمه الله.

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

والجماعة، وكيف يوالي أهل البدع بعضهم بعضاً ضد أهل السنة والجماعة، فكم طائفة بدعية تكفر طائفة أخرى، مثل تكفير الروافض للدروز والعلويين ثم توليهم ضد أهل السنة والجماعة، حتى يصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢٨) وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ [الأنعام: ١٢٨-١٢٩].

عن الحسن البصري رحمه الله قال: (إن بني إسرائيل سألوا موسى، قالوا: سل لنا ربك يُبَيِّنْ لنا عِلْمَ رضاهِ عَنَّا، وَعِلْمَ سَخَطِهِ. فسأله، فقال: يا موسى، أنبئهم أن رضاي عنهم أن أستعمل عليهم خيارهم، وأن سخطي عليهم أن أستعمل عليهم شرارهم) (١).

وقال سبحانه: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨) ﴿ [آل عمران].

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنَى؛ فَقَالَ: «...ثَلَاثٌ لَا يُغْلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ، وَالنَّصِيحَةُ لَوْلِيِّ الْأَمْرِ، وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تَكُونُ مِنْ وَرَائِهِ» (٢).

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٣٨٨).

(٢) رواه أحمد (١٦٧٣٨)، والدارمي (٢٣٦)، والترمذي (٢٨٤٩)، وابن ماجه (٢٣٠، ٣٠٥٦)، وقال الترمذي:

(حسنٌ صحيح) كما في بعض النسخ، ورواه الحاكم (٢٧٩)، وقال: (حديثٌ صحيحٌ...)، ومعنى: (يُغْلُّ) من الغلِّ

وهو الحقد، ومعنى (يُغْلُّ) من الخيانة.

١٣٧. كَشَفُ أَنْ أَكْثَرَ النَّاسِ مُتَّبِعُونَ لِمَشَاعِرِهِمْ

إنَّ الإنسانَ في وقتِ المضايقِ يتصرفُ بما طُبِعَ عليه وقتَ اليسارِ؛ فتجده إذا كان شديدَ اللهجِ باللهِ تعالى يستغيثُ ويلجأُ إلى اللهِ تعالى فهو النَّافعُ الضارُّ، وإذا كان لهجًا بغيره استغاثَ به، وتظهرُ الأهواءُ في وقتِ البلاءِ، وتتكشفُ المخبوءاتُ في وقتِ البلاءاتِ، ويتجلى عندَ المحنِّ أن أكثرَ الناسِ متبعونَ للهوى لا للحقِّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦)﴾ [الأنعام].

وقال جلَّ في علاه: ﴿وَلَا تُطِغْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال قتادة رحمه الله: (أضاع أكبر الضيعة، أضاع نفسه، وعسى مع ذلك أن تجده حافظًا لماله، مُضَيِّعًا لدينه)^(١).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)﴾ [الأعراف].

قال قتادة رحمه الله: (لَمَّا ابتلاهم بالشدة والجهد والبلاء، ثم أتاهم بالرخاء والعافية، ذمَّ اللهُ أكثرهم عند ذلك، فقال: {وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسيقين})^(٢).

(١) أخرجه ابن جرير (٢٤٢/١٥).

(٢) الدرر للسيوطي (٥٠٨-٥٠٩/٣)، وعزاه إلى أبي الشيخ في تفسيره.

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال عز وجل: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهَا إِنَّمَا تَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)﴾ [القصص].

قال ابن جرير رحمه الله: (يقول تعالى ذكره: إِنَّ اللَّهَ لَا يُوقِّقُ لِإِصَابَةِ الْحَقِّ وَسَبِيلِ الرِّشْدِ الْقَوْمَ الَّذِينَ خَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ، وَتَرَكَوا طَاعَتَهُ، وَكَذَّبُوا رَسُولَهُ، وَبَدَّلُوا عَهْدَهُ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَ أَنْفُسِهِمْ؛ إِثَارًا مِنْهُمْ لَطَاعَةِ الشَّيْطَانِ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِمْ) (١).

وَقَالَ حُدَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكْتَةٌ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تُضْرُهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدٌ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ، مُجَحِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» (٢).

١٣٨. تَبَيَّنُ عَجْزُ الْعُقْلَاءِ فِي دَفْعِ عَمَلِ السَّفَهَاءِ

إنَّ أعظم ما يستفاد من الفتن: أنَّ النجاة في تحقيق التوحيد، ولزوم السنة، والصبر، وترك الهوى، وأن الضلالة والخسارة فيما خالف ذلك، ومما يتبين في الفتن أنها إذا وقعت على أيدي السفهاء عجز عن دفعها العقلاء، ولهذا كان لا بد من حزم العقلاء قبل أن يقع من

(١) تفسير الطبري (١٨/٢٧٣).

(٢) رواه مسلم (١٤٤).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

السفهاء ما يعجزون عن دفعه، قال الله سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)﴾ [الشعراء].

وقال الله تعالى عن سفهاء ثمود: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨)﴾ [النمل].

وقال الكلبي موسى عليه السلام مبيناً عدم تمكنه من ضبط السفهاء: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَآيَايَ أَهْلَكْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥)﴾ [الأعراف].

عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا: كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا؛ فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا»^(١).

(١) رواه البخاري (٢٥٠٦)، وقال الإمام الآجري رحمه الله: (الْمُؤْمِنُ الْعَاقِلُ يَحْتَاطُ لِدِينِهِ، فَإِنَّ الْفِتْنََةَ عَلَى وَجْهِ كَثِيرَةٍ، وَقَدْ مَضَى مِنْهَا فِتْنٌ عَظِيمَةٌ، نَجَا مِنْهَا أَقْوَامٌ، وَهَلَكَ فِيهَا أَقْوَامٌ بِاتِّبَاعِهِمُ الْهَوَى، وَإِثَارِهِمْ لِلدُّنْيَا، فَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا فَتَحَ لَهُ بَابَ الدُّعَاءِ، وَالتَّجَا إِلَى مَوْلَاهُ الْكَرِيمِ، وَخَافَ عَلَى دِينِهِ، وَحَفِظَ لِسَانَهُ، وَعَرَفَ زَمَانَهُ، وَلَزِمَ الْمَحَجَّةَ الْوَاضِحَةَ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ، وَلَمْ يَتَلَوَّنْ فِي دِينِهِ، وَعَبَدَ رَبَّهُ تَعَالَى، فَتَرَكَ الْخَوْصَ فِي الْفِتْنَةِ، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ يَفْتَضِحُ عِنْدَهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ). الشريعة له (٩٣/١).

عِبْرُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

بل جاء في الإسرائيليات أن الفتنة إذا وقعت لم يُمكن للأنبياء دفعها، قال الوضين بن عطاء رحمه الله: (إِنَّ الْفِتْنَةَ لَمَّا ظَهَرَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْحَى اللهُ إِلَيْ أَنْبِيَائِهِمْ أَنْ يَفْرُوا بِدِينِهِمْ إِلَى جَبَلِ الْخَلِيلِ)^(١).

١٣٩. تُعَلِّمُ حَسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ

إنَّ الفتن إذا وقعت ورأى العقلاء ما فيها من العبر، وما في المحن من الحكم، تعلموا حسن الظن بالله تعالى، وتيقن المؤمنون حينها عدم اليأس، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (كُنَّا نَقُولُ: مَا لِمُفْتَتِنٍ تَوْبَةٌ، وَمَا اللهُ بِقَابِلٍ مِنْهُ شَيْئًا؛ عَرَفُوا ذَلِكَ، وَآمَنُوا بِهِ، وَصَدَّقُوا رَسُولَهُ، ثُمَّ رَجَعُوا عَنْ ذَلِكَ لِبَلَاءٍ أَصَابَهُمْ، وَكَانُوا يَقُولُونَ لِأَنفُسِهِمْ؛ فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ أَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ {الآيات})^(٢).

وقال عز وجل مجلياً خطر سوء الظن بالله تعالى: ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران].

(١) كتاب الفتن لنعيم بن حماد (٧٠٦) مرسلًا، ولا يصح رفعه، والأشبه أنه من الإسرائيليات، وكذلك رواه ابن عساكر (٣٤٩/٢).

(٢) رواه الحاكم (٥٠٥٤)، والطبراني (٤٦٢).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال سبحانه مبيناً خطورة ظن السوء به تبارك وتعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوِّءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٦) [الفتح].

قال ابن جرير رحمه الله: (يقول: وليُعَذِّبَ كذلك أيضاً المشركين والمشركات، الظانِّينَ بالله أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك، ولن يُظهِرَ كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به، وذلك كان السَّوِّءَ مِنْ ظُنُونِهِمُ التي ذكرها الله تعالى ذكره في هذا الموضع. يقول تعالى ذكره: على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الذين ظنُّوا هذا الظنَّ، {دَائِرَةُ السَّوِّءِ} يعني: دائرة العذابِ تدورُ عليهم به) (١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي» (٢).

١٤٠. تُبَيِّنُ أَنَّ السَّنَنَ الْإِلَهِيَّةَ لَا تَتَخَلَّفُ

إن الناظر في الأمور الكونية ليستيقن أن السَّنَنَ الْإِلَهِيَّةَ لَا تَتَخَلَّفُ؛ فيرى كيف خلق الله تعالى الكون بنظام دقيق، سائر على سنن كونية، وأسباب، وكذلك في المؤاخذات والبلاءات لا تتخلف سنن الله تعالى الكونية، وأن الذنوب إذا عمت عمَّ البلاء، والمِحْنُ إذا وقعت ولم

(١) تفسير الطبري (٢١/٢٤٨).

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٠)، ومسلم (٢٦٧٥)، واللفظ له.

عِبْرُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

يُتَجَلَّدُ لَهَا كَانَتْ نِيَّاحَاتٍ، وَإِذَا تُجَلَّدُ لَهَا كَانَتْ مِئَحَاتٍ، فَمَنْ أَخَذَ بِالْأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْكُونِيَّةِ نَجَا، وَمَنْ لَا فَلَآ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)﴾ [الرعد].

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (ليس من عبدٍ إلا ومعه ملائكةٌ يحفظونه من أن يقع عليه حائطٌ، أو يتردى في بئر، أو يأكله سبعٌ، أو غرقٌ، أو حرقٌ، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر)^(١).

وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ: (إِنَّ الْحَجَّاجَ عَقُوبَةً، فَلَا تَسْتَقْبِلُوا عَقُوبَةَ اللَّهِ بِالسَّيْفِ، وَلَكِنْ اسْتَقْبِلُوهَا بِتَوْبَةٍ وَتَضَرُّعٍ وَاسْتِكَانَةٍ)^(٢).

وَقَالَ سَبْحَانَهُ مَبِينًا وَقُوعِ الْفِتَنِ: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمَّوْا وَصَمُّوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمُّوْا كَثِيرًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١)﴾ [المائدة].

قال مقاتل بن سليمان رحمه الله: (يعني: اليهود حسبوا ألا يكون شرك، ولا يُبتلوا، ولا يعاقبوا بتكذيبهم الرسل، وبقتلهم الأنبياء: أن لا يبتلوا بالبلاء والشدة من قحط المطر)^(٣).

(١) الدر المنثور (١)، وعزاه إلى أبي الشيخ في تفسيره.

(٢) الدر المنثور (١)، وعزاه إلى أبي الشيخ في تفسيره.

(٣) تفسير مقاتل (١/٤٩٤).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنَةِ

وقال عز وجل: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٦٢) [الأحزاب].

قال ابن جرير رحمه الله: (يقول تعالى ذكره لنبية محمد صلى الله عليه وسلم: ولن تجد يا محمد لسنة الله التي سنّها في خلقه تغييرًا، فأيقن أنه غير مغيرٍ في هؤلاء المنافقين سنّته) (١).
وقال جل في علاه: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٢٣) [الفتح].

قال ابن جرير رحمه الله: (يقول جل ثناؤه لنبية محمد صلى الله عليه وسلم: ولن تجد يا محمد لسنة الله التي سنّها في خلقه تغييرًا، بل ذلك دائمٌ، للإحسان جزاؤه من الإحسان، وللإساءة والكفر العقاب والنكال) (٢).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ...، ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَدْ انْجَلَتِ الشَّمْسُ، فَخَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا اللَّهَ، وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا، وَتَصَدَّقُوا» (٣).

(١) تفسير الطبري (١٨٧/١٩).

(٢) تفسير الطبري (٢٨٨/٢١).

(٣) رواه البخاري (١٠٥٣)، ومسلم (٩٠١).

١٤١. توالي البلاءات تخفيفاً من ربّ البريات

إنّ الله تعالى الذي يتبلي عباده بما شاء، وهو سبحانه لطيفٌ بهم؛ فمع كونهم في ابتلاء، يخفف عنهم البلاء، بطرقٍ شتّى؛ فقد فرض الله الصلاة خمسين وخففها إلى خمسٍ؛ فصار الخمس أخفّ حتى لا يكاد يسمّى ابتلاءً بالنسبة للخمسين، وهكذا في الأمور الكونية، يأتي بالبلاء تلو البلاء؛ فيرى الناس الأوّل أخفّ بالنسبة للثاني؛ فمن ذلك ما قد حصل في الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من البلاء بموت خليلهم وحبیبهم محمدٍ صلى الله عليه وسلم بعد أن عاش بين ظهرانيتهم، ففاجأهم البلاء بالمرتين؛ فانشغلوا بهذا البلاء حتى نسوا التي قبلها، من شدة وقعة الثانية، وهكذا سنّه الله تعالى في خلقه؛ فيوقع بهم من البلاءات وتتوالى عليهم المحنّ؛ فيرون الذي بعده أشدّ من الأوّل؛ فينسون الأوّل، أو ينشغلون بالثاني، ولو كان أخفّ فتخفف عليهم الأوّل، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلًا تَحْزِنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)﴾ [آل عمران].

عن مجاهد بن جبر رحمه الله قال: (أصاب الناس حزنٌ وغمٌّ على ما أصابهم في أصحابهم الذين قُتلوا، فلمّا تولّجوا في الشّعْبِ - وهم قُلُ مُصَابُونَ - وقفَ أبو سفيان وأصحابه بباب الشّعْبِ، فظن المؤمنون أنّهم سوف يميلون عليهم فيقتلونهم أيضًا، فأصابهم حزنٌ من ذلك أنساهم حُزنهم في أصحابهم، فذلك قوله سبحانه: {فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ} (١).)

(١) أخرجه ابن جرير (١٥٦/٦).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال قتادة رحمه الله: (الغمُّ الأول الجراحُ والقتلُ، والغمُّ الآخرُ حينَ سمعوا أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قد قُتِلَ، فأنساهم الغمُّ الآخرُ ما أصابهم من الجراح والقتل، وما كانوا يرجون من الغنيمة)^(١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿لِكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾ [الحديد].

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: (ليس أحدٌ إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن من أصابته مصيبةٌ جعلها صبراً، ومن أصابه خيرٌ جعله شكراً)^(٢).

وعن إبراهيم بن أدهم رحمه الله قال: (على القلب ثلاثة أغشية؛ الفرح، والحزن، والسرور، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، والحريص محروم، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط، والساخط مُعَذَّب، وإذا سُررت بالمدح فأنت مُعجَب، والعُجْبُ يُحِبُّ العمل، ودليل ذلك كله قوله تعالى: ﴿لِكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾^(٣)).

وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ حُدَيْفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَمَّتِهِ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعُودُهُ فِي نِسَاءٍ، فَإِذَا سِقَاءٌ مُعَلَّقٌ نَحْوَهُ، يَقَطُرُ مَاءٌ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا

(١) أخرجه ابن جرير (١٥١/٦).

(٢) أخرجه ابن جرير (٤٢١/٢٢) ..

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣٤/٨).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

يَجِدُ مِنْ حَرِّ الْحُمَّى، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ دَعَوْتَ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ أَسَدِّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ»^(١).

١٤٢. تُظْهِرُ أَنَّ الْفَرْجَ يَأْتِي بَعْدَ الشَّدَةِ

إِنَّ مِنْ حِكْمِ الْمِحْنِ، وَعِبْرَةِ الْفِتْنِ، أَنَّهَا تُظْهِرُ قَاعِدَةً وَسُنَّةَ كَوْنِيَّةَ جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي قَدَرِهِ، وَهِيَ: أَنَّ الْفَرْجَ بَعْدَ الشَّدَةِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي ضَيْقٍ فِي رَحِمِ أُمِّهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَيَجِدُ سَعَةً فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يَكُونُ فِي عَافِيَةٍ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِ، ثُمَّ يَجِدُ الْمَرَضَ أحياناً، وَعَمَّا قَرِيبٍ يَنْكَشِفُ، مَا لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ، وَهَكَذَا دَوَالِيكَ فِي جَمِيعِ الْمِحْنِ، وَفِي كُلِّ الْفِتْنِ، تَجِدُ أَيَّ شِدَّةٍ بَعْدَهُ انْفِرَاجٌ، كَمَا كَانَ قَبْلَهَا انْفِرَاجٌ؛ فَكُلُّ شِدَّةٍ بَيْنَ انْفِرَاجَيْنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)﴾ [الفتح].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشْرٌ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)﴾ [الصف].

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءَ وَكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ

(١) رواه أحمد (٢٧٠٧٩)، والنسائي في الكبرى (٧٤٤٠)، وبُوبَ بِهِ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٣) كِتَابِ الطَّبِّ.

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)
هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) ﴿[الأحزاب].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (لَمَّا حَفَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ الْخَنْدَقَ؛ أَصَابَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمِينَ جَهْدٌ شَدِيدٌ، فَمَكَّثُوا ثَلَاثًا لَا يَجِدُونَ طَعَامًا، حَتَّى رُبِّطَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَطْنِهِ حَجْرًا مِنَ الْجَوْعِ)^(١).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَأَعْلَمُ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكَرَّرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^(٢).
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي أُتِيْتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدِي»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَقَدْ ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْتُمْ تَلْغُثُونَهَا، - أَوْ تَرَعُثُونَهَا، أَوْ كَلِمَةً تُشْبِهُهَا)^(٣).

١٤٣. تجلِّي أن مع العسر يسرًا

إِنَّ مِنْ حِكْمِ الْمِحْنِ، وَعِبْرَةِ الْفِتْنِ، أَنَّهَا تَظْهَرُ قَاعِدَةٌ وَسُنَّةٌ كُونِيَّةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي قَدَرِهِ، وَهِيَ: أَنَّ الْعُسْرَ مَعَهُ الْيُسْرُ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي يَسَارٍ لَا يَبَالِي بِالرِّزْقِ يَشْرَبُ لَبَنَ أُمِّهِ وَلَا

(١) رواه أحمد (١٤٢٢٠) بنحوه، وابن أبي حاتم (١٧٦١٠) بلفظه، وأصله في صحيح البخاري (٤٠٩٢).

(٢) رواه أحمد (٢٨٠٣)، والترمذي (٢٥١٦)، وقال: (حسنٌ صحيحٌ).

(٣) رواه البخاري (٧٢٦٩)، ومعنى: (تلغثونها: أي الدنيا تأكلونها. وترعثونها: ترضعونها بسهولة بعد الشدة.

وروي: تنقلونها: أي يبسر وسهالة بعد الشدة والضيق. وروي: تتلونها: أي تستخرجونها بسهولة بعد الشدة.

عِبْرُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِخْنِ

يدري عن أي شيء، ويأكل بعد ذلك ما يقدمه أبواه حتى إذا كبر صار يحملهم الرزق وميسر له الأكساب بطرق عظيمة وكثيرة ومتنوعة، ويجد مع كل عسر يسراً؛ بل يسر مسبوقة بعده عسر يسير مصحوب يسير، ملحوق يسير؛ فسبحان الكريم الرحيم الحكيم.

وهكذا دواليك في جميع المِخْنِ، وفي كل الفتن، تجد أي عسر مصحوباً بيسر قبله وبعده، ولهذا قيل: (لن يغلب عسر يسرين)^(١)، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾ [الشرح].

ويبين سبحانه أن الأصل أنه جل في علاه يريد بعباده اليسر لا العسر؛ فمبنى شرع الله تعالى على اليسر، ومبنى قدر الله تعالى حتى يطيقه العباد على اليسر، فقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ»^(٢).

(١) روي مرفوعاً، ولم يصح، والصواب أنه موقوف، وقد روي من قول ابن مسعود رضي الله عنه، وقتادة، والحسن، ولفظه: (كانوا يقولون: لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين)، أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٤٥٣/٨).

(٢) رواه البخاري معلقاً (٣٩) تحت (باب: الدين يسر)، بهذا اللفظ، وهو في الأدب المفرد مسنداً (٢٨٧) بنحوه.

عِبْرُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ»^(١).

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَةً، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَةً»^(٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَةً كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ)^(٣).

١٤٤. سببٌ لتوبة بعض الناس

إِنَّ الْفِتْنَ لَا تَخْلُو مِنَ الْعَبْرِ، وَالْمِحْنُ لَا تَخْلُو مِنَ الْحَكْمِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا نَرَاهُ وَقَعًا مِنْ تَوْبَةِ بَعْضِ النَّاسِ، وَصَدَقَ رَجوعُهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَقَدْ تَكُونُ الْمِحْنُ سَبَبًا لِتَوْبَةِ الْعَصَاةِ، وَسَبَبًا لِإِسْلَامِ بَعْضِ الْكُفَّارِ، وَدخولِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَبَلَّوْنَاَهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

(١) رواه البخاري (٣٩) تحت (باب: الدين يسر).

(٢) رواه أحمد (٥٨٦٦)، وابن حبان في صحيحه (٢٧٤٢)، قال الهيثمي في المجمع (٣/١٦٢-١٦٣): (رواه

أحمد، ورجاله رجال الصحيح، والبخاري في الأوسط، وإسناده حسن).

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٢٨١٦٨)، ورواه الطبراني (١٠٠٣٠) مرفوعاً.

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قال ابن جرير رحمه الله: (يقول: واختبرناهم بالرِّخاءِ في العيش، والخفضِ في الدنيا، والدَّعةِ والسَّعةِ في الرزقِ، وهى الحسنات التي ذكرها جل ثناؤه. ويعنى بـ {وَالسَّيِّئَاتِ}: الشدة في العيش، والشظف فيه، والمصائب والرزايا في الأموال، {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} يقول: ليرجعوا إلى طاعة ربهم، ويُنِيبوا إليها، ويتوبوا من معاصيه)^(١).

وقال سبحانه: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٥].

قال ابن جرير رحمه الله: (ويؤمنُ اللهُ على مَنْ يشاء من عباده الكافرين، فيقبلُ به إلى التوبة بتوفيقه إياه، {اللَّهُ عَلِيمٌ} بسرائرِ عباده، ومَنْ هو للتوبة أهلٌ، فيتوبُ عليه، ومَنْ غيرُ أهلٍ لها، فيخذله، {حَكِيمٌ} في تَصْرِيفِ عباده من حالِ كفرٍ إلى حالِ إيمانٍ بتوفيقه مَنْ وَفَّقَهُ لذلك، ومِنْ حالِ إيمانٍ إلى كُفْرٍ، بخذلانه مَنْ خَذَلَ منهم عن طاعته وتوحيده، وغير ذلك من أمرهم)^(٢).

وقال عز وجل: ﴿وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠٦) [التوبة].

وقال جل وعز: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠١) وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [التوبة: ١٠١-١٠٢].

(١) تفسير الطبري (١٠/٥٣٤).

(٢) تفسير الطبري (١١/٣٧٢).

عِبْرُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال سبحانه بعد وقعة أحدٍ وما حصل من فتنة وابتلاء في قتل سبعين من الصحابة رضي الله عنهم، ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم على الكفار بأعيانهم: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران].

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (شُجَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟!»، فَنَزَلَتْ: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} ^(١)).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو عَلِيًّا؛ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسَهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، وَالْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} إِلَى قَوْلِهِ: {فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} ^(٢)).

١٤٥. وقوع الفتن دليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم

إن وقوع الفتن علمٌ من أعلام نبوة نبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وآياتٌ من آيات رسالته، وشهادة على صحة ما جاء به، ودلائل على صدقه وصدق قضيته؛ فهذه حكمة عظيمة، تجلّي وتبين صحة رسالة الإسلام، وصحة دعوى المسلمين، قال الله تعالى مبيناً عن أمرٍ مستقبلي وقع بعد نزول الآية، وهي فتح خيبر: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٠].

(١) رواه البخاري معلقاً في الباب (٢١) من أبواب غزوة العشيرة، ورواه مسلم (١٧٩١).

(٢) رواه البخاري (٤٠٥٩).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال سبحانه بعد تبين صدق نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وإعراض الكفار: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الْعَصْرِ، ثُمَّ قَامَ خَطِيبًا بَعْدَ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبَانِ الشَّمْسِ، حَفِظَهَا مَنْ حَفِظَهَا، وَنَسِيَهَا مَنْ نَسِيَهَا، وَأَخْبَرَ فِيهَا بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَحَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهٌ خَصِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، أَلَا فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ...»^(١).

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أَشْرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ أُطْمٍ مِنْ أُطَامِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَرُونَ مَا أَرَى مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ!»^(٢).

١٤٦. الفتن سببٌ لجواز تمني الموت

إنَّ الأَصْلَ أَنَّ المؤمنَ راضٍ بقضاءِ الله وقدره؛ ويعلم أن الله تعالى أحياء لبيئته، وأنه وحياته ملكٌ لله تعالى، وأنه لا يملك حياته؛ فلا يطلبُ الخلاصَ مما لا يملكه، ولكن الشارع أجاز تمني الموت عند الفتن، لا لذات التخلص من الموت؛ بل خشية الوقوع في الفتنة، وكذلك الموتُ مكروهٌ للنفس؛ فمن الحكمة أن الله تعالى بالفتن يجعل الشيء المكروه

(١) رواه الطيالسي (٢٢٧٠)، وأحمد (١١١٤٣)، والترمذي (٢١٩١)، وقال: (حسنٌ صحيحٌ).

(٢) رواه البخاري (٢٤٨٠)، ومسلم (٢٨٨٥).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمَةُ الْمَوْتِ

للنفس محبوبًا، وهذه حكمة في كون الشيء المكروه بطريقة معينة كونه يصبح مباحًا، ومرغوبًا، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) ﴿[الملك].

عن فضيل بن عياض رحمه الله قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: أَخْلَصَهُ وَأَصَوَّبَهُ، قال: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّىٰ يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ: إِذَا كَانَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ: إِذَا كَانَ عَلَىٰ السُّنَّةِ (٣).

وقال ابن جرير رحمه الله: (يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿تَبَارَكَ﴾: تعاضم وتعالى، ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾: بيده ملك الدنيا والآخرة وسُلْطَانُهُمَا، نافذٌ فيهما أمره وقضاؤه، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. يقول: وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة، لا يمنعه من فعله مانعٌ، ولا يحول بينه وبينه عجزٌ. وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾؛ فأما مَنْ شاء وما شاء، وأحيا مَنْ أَرَادَ وما أَرَادَ إِلَىٰ أَجْلِ مَعْلُومٍ، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ يقول: ليختبركم؛ فينظر أَيُّكُمْ لَهَا أَيُّهَا النَّاسُ أَطْوَعُ، وَإِلَىٰ طَلَبِ رِضَاهِ أَسْرَعُ) (٤).

وَعَنْ قَيْسٍ، قَالَ: أَتَيْتُ خَبَّابًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَدْ اِكْتَوَىٰ سَبْعًا، قَالَ: «لَوْ لَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَانَا أَنْ نَدْعُوَ بِالْمَوْتِ، لَدَعَوْتُ بِهِ» (٥).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخلاص والنية كما في موسوعته (٢٢).

(٢) تفسير الطبري (١١٨/٢٣).

(٣) رواه البخاري (٦٣٥٧)، ومسلم (٢٦٨١).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمَوْتِ

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْمَوْتَ لِضُرِّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيًا لِلْمَوْتِ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي»^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ، وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمُرَهُ إِلَّا خَيْرًا»^(٢).

وَعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اِثْنَتَانِ يَكْرَهُمَا ابْنُ آدَمَ: يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَيَكْرَهُ قَلَّةَ الْمَالِ، وَقَلَّةَ الْمَالِ أَقْلٌ لِلْحِسَابِ»^(٣).

وَقَالَ مَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ، فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ)^(٤).

(١) رواه البخاري (٦٣٥٩)، ومسلم (٢٦٨٠).

(٢) رواه مسلم (٢٦٨٢).

(٣) رواه علي بن حجر في جزئه عن إسماعيل بن جعفر (٣٨٢)، ومن طريقه أحمد (٢٣٦٢٥)، والداني في السنن

الواردة في الفتن (٣٦)، والبعوي في شرح السنة (٤٠٦٦)، وانظر: الصحيحة (٨١٣).

(٤) رواه أحمد (٢٢١٠٩)، والترمذي (٣٥١٦)، وقال: (حسن صحيح).

١٤٧. الفتن تجعل العبد يشواق إلى لقاء الله

إنَّ الفتن تجعل المؤمنين يشتاقون إلى لقاء الله تعالى، ويزدادون عملاً شوقاً إلى الجنة، ويزهدون في الدنيا، ولن تشواق إلى الجنة إلا إذا ذقت الحلاوة التامة للدين، أو مرارة الدنيا، فكيف تشواق للجنة وأنت هانئ في الدنيا؟ قال الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

قال قتادة رحمه الله: (إنَّ الله إنما أنزل كتابه، وبعث رسوله؛ ليؤمن بوعده، وليستيقن بلقاءه)^(١).

وقال ابن جرير رحمه الله: (لتوقنوا بقاء الله، والمعاد إليه، فتصدقوا بوعده ووعده، وتنزجروا عن عبادة الآلهة والأوثان، وتخلصوا له العبادة، إذا تيقنتم ذلك)^(٢).

والمسلم مأمور في جميع الأحوال أن يدعو بحسن الخاتمة، لا سيما إذا اشتاق إلى لقاء ربه والجنة، وهذا معنى قول نبي الله يوسف عليه السلام في أواخر حياته حيث دعا؛ فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾ [يوسف].

(١) أخرجه ابن جرير (٤١٣/١٣).

(٢) تفسير الطبري (٤١٣/١٣).

عِبْرَةُ الْفِتْنَةِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (اشتاق إلى لقاء الله، وأحب أن يلحق به وبآبائه، فدعا الله أن يتوفاه، وأن يلحقه بهم، ولم يسأل نبيي قط الموت غير يوسف، فقال: {رب قد آتيتني من الملك} الآية) (١).

وَعَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» (٢).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَكْرَاهِيَةَ الْمَوْتِ؟ فَكُنَّا نَكَرُهُ الْمَوْتَ! فَقَالَ: «لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» (٣).

وَعَنْ شُرَيْحِ بْنِ هَانِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» قَالَ: فَأَتَيْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَذْكُرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثًا؟ إِنْ كَانَ كَذَلِكَ؛ فَقَدْ هَلَكْنَا!؟ فَقَالَتْ: إِنَّ الْهَالِكَ مَنْ هَلَكَ بِقَوْلِ

(١) رواه مسلم (٢٦٨٤)، والبخاري (٦٥١٥) من مسند عبادة رضي الله عنه عنها رضي الله عنها.

(٢) رواه البخاري (٦٥١٥)، ومسلم (٢٦٨٣)، واللفظ له.

(٣) رواه البخاري (٦٥١٥)، ومسلم (٢٦٨٣).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» وَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ يَكْرَهُ الْمَوْتَ؟! فَقَالَتْ: قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ بِالَّذِي تَذْهَبُ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ: إِذَا شَخَّصَ الْبَصْرُ، وَحَشَرَ جِ الصَّدْرُ، وَاقْشَعَرَ الْجِلْدُ، وَتَشَنَّجَتِ الْأَصَابِعُ فَعِنْدَ ذَلِكَ، مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(١).

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ - وَهُوَ صَحِيحٌ - : «إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ»، فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ، وَرَأْسُهُ عَلَى فَخْذِي، غُشِيَ عَلَيْهِ سَاعَةٌ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَأَشْخَصَ بَصْرَهُ إِلَى السَّقْفِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى»، قُلْتُ: إِذَا، لَا يَخْتَارُنَا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا بِهِ، قَالَتْ: فَكَانَتْ تِلْكَ آخِرَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى»^(٢).

١٤٨. الفتن العامة عقوباتها عامة وبعث الناس خاص

إِنَّ الْفِتْنَ إِذَا وَقَعَتْ تَبِينُ لِلنَّاسِ أَنَّ الْعُقُوبَاتِ الْعَامَةَ لَا تَقَعُ إِلَّا بِسَبَبِ الذُّنُوبِ الْعَامَةِ، وَحِينَهَا لَا بَدَّ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى أَنْ بَعَثَ النَّاسَ إِنَّمَا تَكُونُ عَلَى نِيَاتِهِمْ وَبِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى

(١) رواه مسلم (٢٦٨٥).

(٢) رواه البخاري (٦٥١٧)، ومسلم (٢٤٤٤).

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي
الضُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ (٢٠) ﴿[غافر].

وقال سبحانه: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ
يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى
(٨٢)﴾ [طه].

وقال عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ (٢٥)﴾ [الأنفال] (١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم؛ فيعمهم
الله بالعذاب) (٢).

وقال قتادة رحمه الله: (علم - والله - ذوو الألباب من أصحاب محمد صلى الله عليه
وسلم حين نزلت هذه الآية أنه سيكون فتن) (٣).
وقال أبو روق رحمه الله: (تصيب الصالح والطالح).

(١) قال الواحدي رحمه الله (٤٦٨ هـ) في تفسيره البسيط (١٠/٩٤-٩٥): (معنى الفتنة هاهنا: البلية التي يظهر
فيها باطن أمر الإنسان، وأصلها من الاختبار - كما ذكرنا قبل -، وسُميت البلية فتنة لأنها كالاختبار للناس؛ فمن تعرض
لها، وأثارها، دل على سوء دخلته، ومن قعد عنها، وطلب إِمَاتَتَهَا، دل على صلاح نيته، وحسن سريرته).

(٢) أخرجه ابن جرير (١١/١١٥)، وابن أبي حاتم (٥/١٦٨٢).

(٣) الدر المنثور (٤/٤٦)، ونسب تخريجه إلى عبد بن حميد وأبي الشيخ.

عِبْرَةُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال الكلبي رحمه الله: (تصيب الظالم والمظلوم، ولا يكون بالظلمة وحدهم خاصة، ولكنها عامة)^(١).

وَعَنْ جَرِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، هُمْ أَعَزُّ مِنْهُمْ وَأَمْنَعُ، لَا يُغَيَّرُونَ، إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»^(٢).

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَغْزُو جَيْشُ الْكَعْبَةِ، فَإِذَا كَانُوا بَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ، يُخَسَفُ بِأَوْلِهِمْ وَآخِرِهِمْ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُخَسَفُ بِأَوْلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَأُهُمْ؟ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «يُخَسَفُ بِأَوْلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُعْتُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ»^(٣).

١٤٩. الْفِتْنُ مُنْذَرَةٌ بِالْإِسْتِبْدَالِ

إنَّ الله تعالى لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم، ولا يهلك أمة من حيث العموم إلا إذا أوقعوا ما به يستحقون العقوبات العاجلة عمومًا، والأصل بعد إرسال الرسل عليهم السلام، وإنزال الكتب، المؤاخظة الخاصة؛ ولكن قد يبدل الله تعالى قومًا بقوم، لا سيما إذا لم يستحقوا البقاء لظلمهم وفشوِّ البلايا فيهم؛ فيستبدلهم بآخرين، وهو على ذلك قادرٌ لا يعجزه شيءٌ في السماوات ولا في الأرضين، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا

(١) التفسير البسيط (١٠/٩٥)، وتنوير المقباس ص (١٧٩).

(٢) رواه أحمد (١٩٢٣٠)، والطيالسي (٦٦٣)، وأبو داود (٤٣٣٩)، وابن ماجه (٤٠٠٩)، وحسنه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٢١٢٦).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴿التوبة﴾.

قال ابن جرير رحمه الله: (يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم، متوعدّهم على ترك النّفْرِ إلى عدوّهم من الروم: إن لم تنفروا أيها المؤمنون إلى من استنّفركم رسول الله، يُعَذِّبْكُمْ اللهُ عاجلاً في الدنيا بترككم النّفْرِ إليهم عذاباً موجعاً، **{وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ}** يقول: يَسْتَبْدِلُ اللهُ بكم نبيّه قوماً غيركم، يَنْفِرُونَ إذا اسْتَنْفَرُوا، وَيُجِيبُونَهُ إذا دُعُوا، وَيُطِيعُونَ اللهُ ورسوله، **{وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا}** يقول: وَلَا تَضُرُّوا اللهُ بترككم النّفير، وَمَعْصِيَتِكُمْ إِيَّاهُ شَيْئًا؛ لأنه لا حاجة به إليكم، بل أنتم أهل الحاجة إليه، وهو الغني عنكم، وأنتم الفقراء، **{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** يقول جل ثناؤه: وَاللَّهُ عَلَى إِهْلَاكِكُمْ، وَاسْتِبْدَالِ قَوْمٍ غَيْرِكُمْ بكم، وَعَلَى كُلِّ مَا يَشَاءُ مِنَ الْأَشْيَاءِ قَدِيرٌ^(١).

وقال سبحانه: **{وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ}** ﴿محمد: ٣٨﴾.
عن قتادة رحمه الله قال: (يقول: إن تولّيتم عن كتابي، وطاعتي، أستبدل قوماً غيركم، قَادِرٌ - وَاللَّهُ - رَبُّنَا عَلَى ذَلِكَ؛ عَلَى أَنْ يُهْلِكَهُمْ، وَيَأْتِي مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ)^(٢).

(١) تفسير الطبري (١١/٤٦٠-٤٦١).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢١/٢٣٣).

عَبْرُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وقال جلّ في علاه: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَيَّ أَنْ نُبَدَّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١)﴾ [الواقعة].

وقال عزّ وجلّ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠)﴾ عَلَيَّ أَنْ نُبَدَّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١)﴾ [المعارج].

قال مقاتل بن سليمان رحمه الله: (يعني: على أن نأتي بخلقٍ أمثلٍ منهم، وأطوعَ الله منهم، وأرضى منهم، {وما نحن بمسبوقين} يعني: وما نحن بمُعجزين، إن أردنا ذلك) (١).

وقال جلّ وعزّ مهذّباً من لا يبالي بالدين، ويتساهل حتى يُخشى عليه الخروج من الدين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَيَّ الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَيَّ الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)﴾ [المائدة].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (هذا وعيدٌ من الله أنه من ارتدّ منهم سيستبدل بهم خيراً منهم) (٢).

(١) تفسير مقاتل (٤/٤٣٩).

(٢) أخرجه ابن جرير (٨/٥٢٤).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وعن الضحاك بن مزاحم رحمه الله قال: (هو أبو بكر رضي الله عنه وأصحابه رضي الله عنهم، لَمَّا ارتدَّ مَنْ ارتدَّ مِنَ الْعَرَبِ عَنِ الْإِسْلَامِ، جَاهَدَهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى رَدَّهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ)^(١).

وقال الحسن البصري رحمه الله: (عَلِمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ قَوْمًا يَرْجِعُونَ عَنِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ مَوْتِ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَأْتِي بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ وَيُحِبُّونَهُ)، (أبو بكرٍ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَعَنْهُمْ)^(٢).

١٥٠. الْفِتْنُ مَنذَرَةٌ بِقَرْبِ الْقِيَامَةِ

إِنَّ الْفِتْنَ وَالْبَلَايَا نَذْرٌ تَنْذِرُ بِقَرْبِ الْقِيَامَةِ، وَكَلَّمَا قَرَبَتْ الْقِيَامَةَ عَظُمَتِ الْفِتْنُ، وَكَلَّمَا دَنَا النَّاسُ مِنْ زَمَانِ السَّاعَةِ دَنَسُوا بِالْدُنْيَا الْفَانِيَةِ، حَتَّى تَدْرِكَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ فِي لَهْوِهِمْ غَافِلُونَ؛ فَمِنَ الْعِبَرِ فِي الْفِتْنِ أَنَّهَا مَنذَرَةٌ بِقَرْبِ الْقِيَامَةِ، وَمَوْذَنَةٌ بِقَرْبِ السَّاعَةِ؛ فَيَسْتَعِدُّ لَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ، وَيَجْتَهِدُ لَذَلِكَ الْمُحْسِنُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مَنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) ﴿[الأنبياء].

قال ابن جرير رحمه الله: (دنا حسابُ الله للناسِ على أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَنَعَمَهُمُ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ فِيهَا؛ فِي أَبْدَانِهِمْ وَأَجْسَامِهِمْ وَمَطَاعِمِهِمْ وَمَشَارِبِهِمْ وَمَلَابِسِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ نِعْمِهِ عِنْدَهُمْ، وَمَسْأَلَتِهِ إِيَّاهُمْ مَاذَا عَمِلُوا فِيهَا، وَهَلْ أَطَاعُوهُ فِيهَا، فَانْتَهَوْا إِلَى

(١) أخرجه ابن جرير (٥١٩/٨)، وابن أبي حاتم (٦٥٣٨).

(٢) أخرجه ابن جرير (٥١٨/٨)، وابن أبي حاتم (١١٦٠/٤)، تفسير البغوي (٦٩/٣).

عِبْرُ الْفِتَنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

أمره ونهيه في جميعها، أم عَصَوْه فخالَفُوا أمره فيها؟ {وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ} يقول: وهم في الدنيا عمّا الله فاعلٌ بهم من ذلك يوم القيامة، وعن دُنُوِّ محاسبتة إياهم منهم، واقترابه لهم، في سَهْوٍ وَغَفْلَةٍ، وقد أَعْرَضُوا عن ذلك، فتركوا الفِكرَ فيه، والاستعداد له، والتأهب؛ جهلاً منهم بما هم لأقوه عند ذلك من عظيم البلاء، وشديد الأهوال^(١).

وقال سبحانه: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧)﴾ [الأنبياء].

قَالَ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمَ، فَقَالَ: «اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ مَوْتَانُ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ؛ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الْأَصْفَرِ فَيَغْدِرُونَ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا»^(٢).

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢٢١).

(٢) رواه البخاري (٣١٨٤).

عِبْرَةُ الْفِتْنِ وَحِكْمُ الْمِحْنِ

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتْنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ، وَهُوَ: الْقَتْلُ الْقَتْلُ، حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيضُ»^(١).

هذا ما تيسر جمعه من العبر المتعلقة بالفتن، والحكم المتعلقة بالمحن، فالحكم والمصالح المترتبة على حصول الابتلاء كثيرة متنوعة، وحكمة الله تعالى أعظم وأجل من أن يُحصَر في مؤلف، أو أن يُحاطَ به في كلام، وفيما ذكرتُ كفاية لمن أراد الاعتبار، وعظة لمن أراد الإدكار، وقد فُتِحَ لك البابُ فنسَقُ الشريعة كلها محكم غاية الأحكام والمساق، وهكذا نسَقُ مقادير الله تعالى في الخلائق، واستدل بما ظهر لك على ما خفي عنك، ولعل الحكمة فيما لم تعلمه أعظم منها فيما علمته؛ فإن الذي علمته على قدر عقلك وفهمك، وما خفي عنك فهو فوق عقلك وفهمك، ولو تتبعنا تفصيل ذلك لجاؤا عدّة أسفار، فيكتفى منه بأدنى تنبيه يعتني به الأبرار، والله المستعان، وعليه التكلان، ونسأله حسن الختام، وحسن العلم والعمل إلى الختام، وأن يحيينا ما علم الحياة خيراً لنا، وأن يتوفانا ما علم الوفاة خيراً لنا، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. وكان الانتهاء منه ليلة الخميس ٥ / ١١ / ١٤٤٧ هـ في دولة الكويت حرسها الله تعالى، وأدام أمنها وإيمانها، وحفظ الله ولي أمر البلاد، وصان جميع العباد، والجنود المرابطين لحفظ الأمن في البلاد، والصادقين عدوان أهل البغي والعناد.

(١) رواه البخاري (١٠٤٥).

فهرس الموضوعات

الرقم	الموضوع	الصفحة
	التنبية الأول: حتمية الابتلاء	
	التنبية الثاني: ضرورة اليقين بحكمة الله تعالى	
	التنبية الثالث: آثار اسم الحكيم	
	التنبية الرابع: اليقين بعموم حكمة الله تعالى	
	التنبية الخامس: الشارع الحكيم لا يعلل أحكامه وأفعاله	
	التنبية السادس: طريقة القرآن والسنة في ذكر العبر والحكم	
	التنبية السابع: أهمية معرفة الحكم والعبر	
	التنبية الثامن: الفرق بين العلة والحكمة	
	التنبية التاسع: تجلّي الحكمة للخلق في الخلق عمومًا	
	التنبية العاشر: خفاء الحكمة للخلق في الخلق خصوصًا	
	التنبية الحادي عشر: خفاء الحكمة في المحن وخفاء العبر في الفتن	
	التنبية الثاني عشر: بشارة الأمة بالمن في الفتن	
١	ظهور مشيئة الله تعالى العامة	
٢	زيادة اليقين بعلم الله تعالى	
٣	إظهار لطف الله تعالى في وقوع الفتن	
٤	التكليف بما في الوسع والقُدرة	

الرقم	الموضوع	الصفحة
٥	ظهور المنن الإلهية بوقوع الفتن القدرية	
٦	تجلية أن كل شيء بأجل مسمى	
٧	تجلّي حكم الخالق في الخلائق	
٨	إظهار أن الكفار الضلال هم من يوقدون الفتن الكبار	
٩	ابتلاء العباد بالواقع العلمي لإظهار التوحيد العملي	
١٠	ابتلاء العباد بالواقع العملي لإظهار التوحيد العلمي	
١١	الابتلاء بالأمور الكونية	
١٢	الامتحان بالأمور المباحة	
١٣	الامتحان بالأمور الشرعية من حيث العموم	
١٤	الامتحان بالأمور الشرعية من حيث الخصوص	
١٥	إظهار المؤمنين الصادقين	
١٦	إخراج ما في الصدور	
١٧	اتخاذ الشهداء ممن ماتوا في الفتنة مظلومين	
١٨	دفع الله الناس بعضهم ببعض	
١٩	إظهار من ينصر المستضعفين	
٢٠	العمل بالأحكام الشرعية المتعلقة بالفتنة	
٢١	الاعتبار بالفتن	

الرقم	الموضوع	الصفحة
٢٢	العلم بلزوم الحكم بما في الكتب المنزلة	
٢٣	الاصطفاء طريقه الابتلاء	
٢٤	التمييز والتمايز	
٢٥	التفاضل ورفع الدرجات	
٢٦	إظهار الصابرين	
٢٧	تأهيل الصابرين لنيل الحكم في الدين	
٢٨	توريث الصابرين العلم	
٢٩	تجلية المقسطين	
٣٠	إظهار المفلحين	
٣١	تجلي أهمية كف أذى الأعداء والكافرين	
٣٢	كشف ضرورة الحذر	
٣٣	تجلية أهل الاستقامة	
٣٤	تجلي من يتمسك بحكم الله	
٣٥	ظهور الشجعان	
٣٦	تجلية من ينصر الله تعالى ودينه	
٣٧	إظهار من يموت في سبيل الله، ومن يموت في سبيل الطاغوت	
٣٨	المؤاخذه ببعض العقوبات	

الرقم	الموضوع	الصفحة
٣٩	تكفير الذنوب والخطايا	
٤٠	التضرع إلى الله، وتجلية ضعف الإنسان	
٤١	التعليم العملي للصبر لله العلي	
٤٢	ظهور فضل الصبر وتجلية فضائل الصابرين	
٤٣	التربية العملية للتوكل على رب البرية	
٤٤	تجلية المتوكلين على الله تعالى	
٤٥	تجلي أهل الإيثار، وأهل الإنفاق، وأهل البخل والادخار	
٤٦	تجلي أهل صلة الرحم	
٤٧	عودة الناس إلى الشكر	
٤٨	سبب للاستغفار	
٤٩	سبب للإنبابة إلى الله تعالى	
٥٠	عودة الناس إلى التذكّر، وإيقاظهم من الغفلات	
٥١	رجوع الناس إلى الله تعالى، وإلى دينه	
٥٢	تجلي أهل الوفاء	
٥٣	كشف زيف الدنيا	
٥٤	التذكير بعدم قرار الدنيا وأن الآخرة هي دار القرار	
٥٥	تجلي شر بعض المحبوبات وخير بعض المبعوضات	

الرقم	الموضوع	الصفحة
٥٦	عدم إهلاك النفس لإصلاح الآخرين	
٥٧	ظهور قيمة العلم الشرعي	
٥٨	الفتن تعلم ضرورة الرجوع إلى العلماء الربانيين	
٥٩	الفتن تُربِّي على فقه المآلات والنظر في العواقب والحالات	
٦٠	تكشف الفرق بين الحماسة والبصيرة	
٦١	تجلّي أن النجاة ليست بكثرة المعلومات بل بثبات القلب من رب البريات	
٦٢	تكشف خطورة الاغترار بالأشخاص والرموز دون الاعتبار بالآيات والسنن	
٦٣	تُظهِرُ أَنَّ الْحَقَّ يُعْرَفُ بِالِدَلِيلِ لَا بِالْأَشْخَاصِ وَالرِّجَالِ:	
٦٤	تعلّم العبد التدرّج والإصلاح الممكن:	
٦٥	كشف خطورة اتباع الكثرة	
٦٦	إظهار أن الكثرة لا تنفع بدون إيمان	
٦٧	تكشف أن موقدي الفتن هم اللاهثون وراء الدنيا	
٦٨	التبّين بجلاء أن الجهل سبب كلّ بلاء	
٦٩	تبين أهمية الرجوع إلى الحكماء	
٧٠	تجلية أهل الزيغ	
٧١	بيان ضرر المفسدين	
٧٢	تبين مضار طاعة الكافرين	

الرقم	الموضوع	الصفحة
٧٣	إظهار كذب الكافرين ومخادعتهم للمسلمين	
٧٤	تجلية مخاطر طاعة المنافقين	
٧٥	كشف المنافقين	
٧٦	إظهار حسرات المنافقين	
٧٧	إظهارُ خطورة اتباع الهوى	
٧٨	خطورة ضعف الإيمان	
٧٩	إحباط أعمال المفتونين وزيادة كفر الكافرين	
٨٠	الفتن تعلم الإنسان الحذر من الشبهات	
٨١	الفتن تربي على ترك مواطن الشبهات والشر	
٨٢	الفتن تعلم الإنسان خطورة الشهوات	
٨٣	الفتن تكشف أثر المعاصي في ضعف الأمة	
٨٤	تكشف ضرورة ترك الظلم	
٨٥	تجلي الظالمين وتظهر بغيهم	
٨٦	الفتن تعلم أن ترك الأمر بالمعروف سبب لعموم البلاء	
٨٧	الفتن تبين أن الخلاص في الإخلاص	
٨٨	تعليم أن الفقر والغنى والصحة والعافية والأمن والخوف من الله	
٨٩	الفتن تبين من يرفع كلمة الله تعالى	

الرقم	الموضوع	الصفحة
٩٠	الفتنُ تُظهرُ من يعتز بدين الله تعالى	
٩١	تكشفُ خطر استعجال النتائج	
٩٢	تجليةُ مكانة الرفق والحلم	
٩٣	الفتن تعلم الثبوت	
٩٤	الفتن تربّي على حفظ اللسان	
٩٥	الفتن تُربّي على ترك ما لا يعني الإنسان	
٩٦	تجلية أصحاب الدعوى	
٩٧	الفتن تظهرُ خطورة الشائعات	
٩٨	الفتن تعلم أن النجاة في لزوم وليّ الأمر (الحاكم)	
٩٩	الفتن تجلّي أهمية الجماعة	
١٠٠	الفتن تبين مخاطر الخروج	
١٠١	الفتنُ تجلّي أهمية السلم	
١٠٢	الفتن تبين أن النصر من عند الله تعالى	
١٠٣	الفتنُ تجلّي فضل كف اليد وضرورته	
١٠٤	الفتن تعلم أن السلامة لا يعدلها شيء	
١٠٥	الفتن تكشف أن كثرة الكلام مجلبة للشر	
١٠٦	الفتن تكشف خطورة الجدل والمراء	

الرقم	الموضوع	الصفحة
١٠٧	الفتن تكشف خطورة التحزبات	
١٠٨	الفتن تكشف مخاطر الأحزاب السرية	
١٠٩	الفتن تكشف الخائنين	
١١٠	الفتن تجلّي أهمية العزلة	
١١١	الفتن تجلّي أهمية الصّحبة الصالحة	
١١٢	الفتن تكشف ضرر قرناء السوء	
١١٣	تكشف قيمة العبادة الخفية	
١١٤	الفتن تربّي على الإكثار من العبادة	
١١٥	الفتن تُظهر أهمية الدعاء	
١١٦	الفتن تُلجئك إلى الحصون المنيعة	
١١٧	الفتن تعلّمك أن الثبات بيد الله تعالى	
١١٨	خطورة الانحراف	
١١٩	الفتن تكشف خطورة حبّ الرئاسة والمسؤولية	
١٢٠	الفتن تبين مخاطر حب الظهور	
١٢١	الفتن تعلّم أن القرآن أعظم وأوّل أسباب الثبات	
١٢٢	ظهور قيمة التمسك بالسنة	
١٢٣	تجلية سلامة منهج أهل السنة والجماعة	

الرقم	الموضوع	الصفحة
١٢٤	الفتن تبين صحة أقوال علماء أهل السنة والجماعة	
١٢٥	تعلم أن قلة الناجين لا تعني بطلان الحق المبين	
١٢٦	الفتن تبين فضل الغرباء المتمسكين بالدين في كل أنحاء	
١٢٧	إظهار أن الأمة لا تجتمع على ضلالة أبدًا	
١٢٨	تجلية أن الأمة لا تهلك أبدًا مهما كانت الفتن وعظمت	
١٢٩	تجلي أهل عفو الله تعالى	
١٣٠	الفتن تبين أهل رحمة الله الذين سلمهم من المشاركة فيها	
١٣١	الفتن تبين أهل نعمة الله تعالى	
١٣٢	الفتن تبين من يقدم حب الله على محاب نفسه	
١٣٣	الفتن تجعل أهل الحق يزدادون حبًا في الله	
١٣٤	تظهر أخوة المؤمنين	
١٣٥	تجلية أهل البدع وأنهم مفاتيح الفتن ووقودها	
١٣٦	إظهار أن أهل الملل والنحل يوالي بعضهم بعضًا ضد الحق	
١٣٧	كشف أن أكثر الناس متبعون لمشاعرهم	
١٣٨	تبين عجز العقلاء في دفع عمل السفهاء	
١٣٩	الفتن تعلم حسن الظن بالله	
١٤٠	الفتن تبين أن السنن الإلهية لا تتخلف	

الرقم	الموضوع	الصفحة
١٤١	توالي البلاءات وتوالي الفتن قد يكون من باب التخفيف	
١٤٢	تُظْهِرُ أَنَّ الْفَرَجَ يَأْتِي بَعْدَ الشَّدَّةِ	
١٤٣	تُجَلِّي أَنَّ مَعَ الْعَسْرِ يَسْرًا	
١٤٤	سببٌ لتوبة بعض الناس	
١٤٥	وقوع الفتن دليلٌ على صدقِ النبي ﷺ وعلمٌ من أعلام نبوته	
١٤٦	الفتنُ سببٌ لجواز تمني الموتِ	
١٤٧	الفتن تجعل العبد يشفق إلى الله تعالى	
١٤٨	الفتنُ العامة عقوباتها عامة وبعثُ الناس خاصٌ	
١٤٩	الفتنُ مُنْذِرَةٌ بِالْإِسْتِبْدَالِ	
١٥٠	الفتنُ مُنْذِرَةٌ بِالْقِيَامَةِ	